نبيل مرعى
رواية
حكاية
حكاها
الله

حِكايةٌ حَكاها اللّٰه

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ – ٢٠٢١م

كافة الحقوق محفوظة

مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع

رواية : حكاية حكاها الله

المؤلف : نبيل مرعى

تصميم الغلاف والتنسيق : المؤلف

رقم الإيداع : ١٦١٨ / ٢٠٢١

الترقيم الدولى : ٥/ ٥٧٢/ ٧٨٣/ ٩٧٧/ ٩٧٨

الناشر : دار الأمة العربية للنشر والتوزيع

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١ م

الطبعة الأولى

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أى جزء منه أو تقليده أو تخزينه فى نطاق إعادة المعلومات ، أو نقله بأى شكل من الأشكال دون إذن مسبق موقع من المؤلف

الناشر

مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

هواتف : ٣٥٧١٢٢٣- ٠٤٨-٠٠٢

المبيعات : تحويل داخلى ١٣

الفاكس : تحويل داخلى ١٤

إدارة النشر : ٠٠٢٠١١٤٢٠٢٢١٧٤

حِكاية حَكاها اللّه

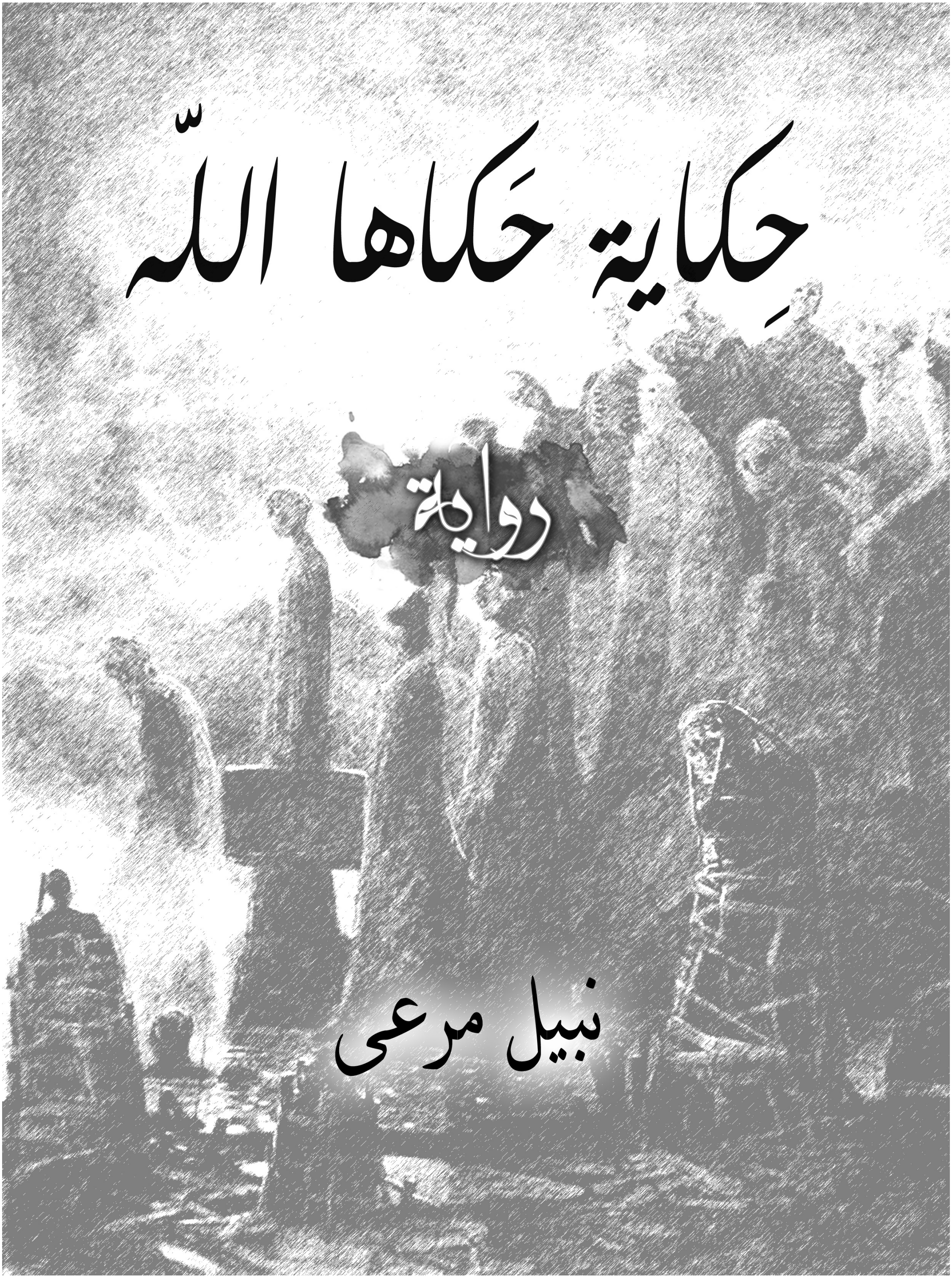

رواية

نبيل مرعى

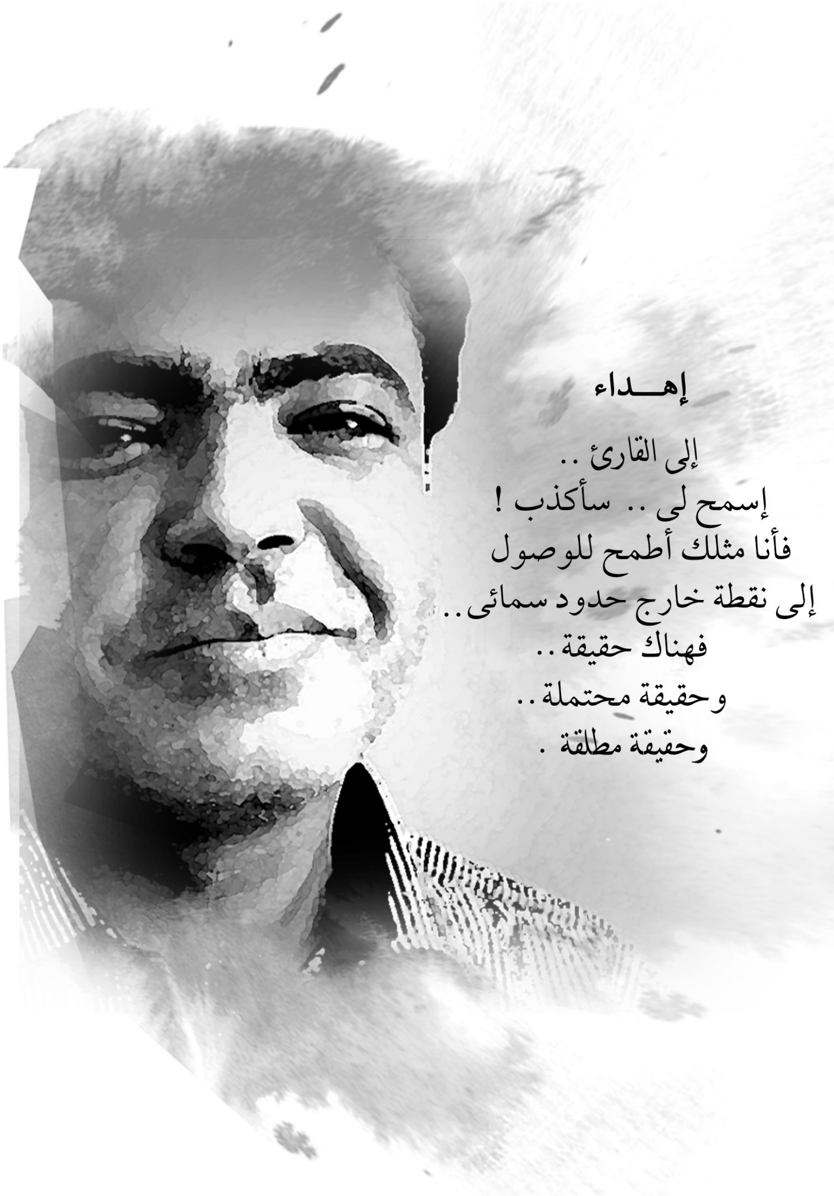

إهـــداء

إلى القارئ ..
إسمح لى .. سأكذب !
فأنا مثلك أطمح للوصول
إلى نقطة خارج حدود سمائى..
فهناك حقيقة..
وحقيقة محتملة..
وحقيقة مطلقة .

ولـوج

" ألا تبدأ الشرور كلها .. كما تبدأ الكذبة الأولى على إستحياء ؟!
كم تتأصل فى النفس وتستولى على الإرادة .. وتستعبد العقل
وتُجاهر وتتبجح ، وتُفلسف نزواتها
ثم يتحول الإنسان إلى وحش كاسر ، يفعل كل شيئ .
والذين أباحوا الإنحراف .. ظنا منهم أن المنحرف مريض نفسى
والمريض أولى بالشفقة ..
ألم يقلبوا الأوضاع ؟! ..
فجعلوا المجرم أولى بالشفقة من ضحيته " .

د/ مصطفى محمود .. عالم الأسرار

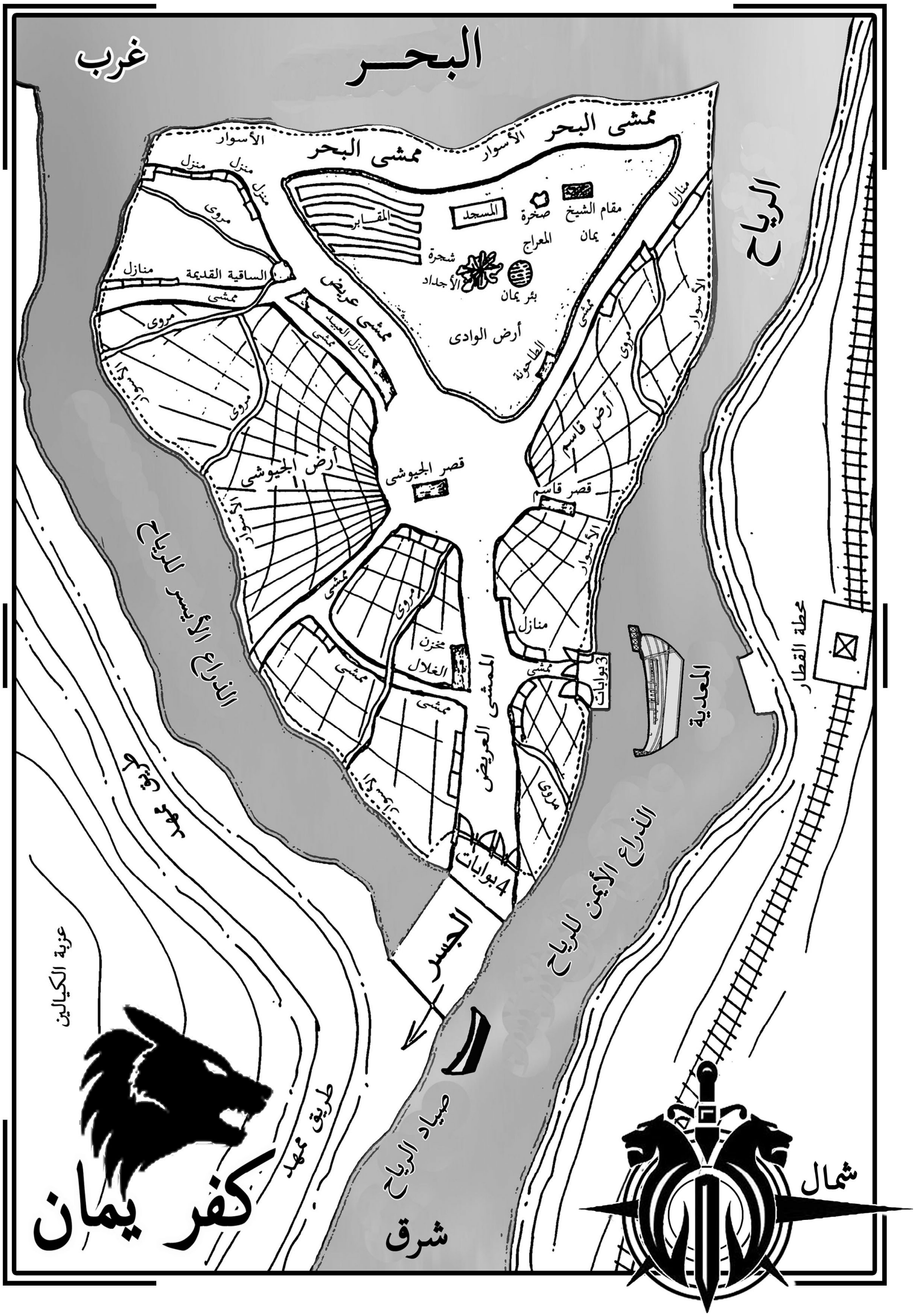

البحــر
غرب
ممشى البحر
ممشى البحر
الأسوار
منزل
مروى
المقابر
المسجد
صخرة
مقام الشيخ
يمان
المعراج
شجرة
الأجداد
بئر يمان
منازل
الساقية القديمة
ممشى
ممشى عريض
منازل العبيد
أرض الوادي
الطاحونة
الرياح
أرض قاسم
قصر الجيوشي
أرض الجيوشي
قصر قاسم
الذراع الأيسر للرياح
مخزن
الغلال
المعدية
3بوابات
الممشى العريض
4بوابات
الجسر
الذراع الأيمن للرياح
محطة القطار
عزبة الكيالين
طريق ممهد
صياد الرياح
شرق
شمال
كفر يمان

ما قبل النزع الأخير

.. كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها .. زُهِير ، أو صياد الرَيَّاح " كما يَدعُونه الأهالي " ، ولا أعرف لسوء طالعه أم لحظي العاثر .. كانت المرة الأخيرة ! ..

شهق شهقة مرعبه .. أفزعتني ، كان قابعا في قاربه العتيق مُمَدِداً ساقيه العِجاف .. ثم مال بقامته إلى صندوقه التَليد وطَوَّقَهُ بين ذراعيه ، وما رَاعني شيئ مثل تلك الرَمْقَه المُخيفة التي لاحت في عينيه المَكْفُوفَتين ! ، عينان صَمّاء ولكنها تكلمت ! ، قالت ، صرخت ! .. حدثتني بكلمات وعبارات كُثُرْ ! ، حديث طويل مُبْهَم .. بيد أنى فَهِمت منه الكثير ، وأَكْثَرهُ كان مُلَغَزاً ، ربما كانت إستغاثة .. لهفه أو خوف ، في الحقيقة لا أعرف ، تحجرت قدماي في مَحَطِهَا وأنا أراه يَنْكفىء على صندوقه فاقدا الحِراك والنطق ، ودعني دُونَما وداع .. وداع الغريب للغريب ! .

تلفت مذعوراً على جانبي الرَيَّاح ، أتوق لرؤية أحدهم .. وأخشى إنْقِضَاضِهم عليه في آن ، فقد هَجَع ناس الكفر بِرُمَّتهم قاصدين إِيذاءه ، أقمت عينى إلى الجسر فوقى .. كان الطريق والجسر خاويين تماما ، لا رجل ولا مطايا ، يبدو أن شطئان الرَيَّاح تقاذفتهم .. فأضاعتهم ، وكان ذاك رداً منصفاً لسوء طالعه وحظى العاثر .. فلايزال هناك فسحة من الوقت .

لم أجد مناصا من القفـز إلى القارب محـاولا إفاقته .. علّى أجد أنفـاساً

باقيه بصدره ، كان لدىّ الكثير لأسأله ، وددت معرفة الحقيقة ..
لم أتردد لحظه ، وثبت لتوى هاويا على جثمانه القابع فى صمت .. أرجه بعنف ، ولكن الأوان قد فات .. لقد فاضت روحه للتو ، مات الرجل ! ..
فى الواقع كنت أجبن من أن أملك الجسارة والشهامه لإنتشاله .. وإكرامه إلى مثواه الأخير ، ولكنها الفرصة واتتنى سانحه ، ثمه رغبة ملحه دفعتنى مكروبا للتنقيب بين حاجياته .. ربما وجدت ما يسكت هواجسى ، والتساؤلات الثائرة الحائرة فى عمقى ، لم أجد شيئا مُهما سوى ذاك الصندوق المبهم الذى حرص الرجل ألا يغادر ذراعيه فى نزعه الأخير ..
رفعت جسده بهدوء وركنته إلى قاع القارب ، كان ثقيلا للغايه بما حُمِلَ من أسرار حارت فى إستيعابها قرائح سادة الكفر ، لم أحتمل جحوظ عينه الضارى .. ونظراته المرتاعة ، إستشعرت وجل عميق يجوس فى صدرى .. فأسبلت جفنيه ، ثم أقمت وشاحه البنى أوراى طلته الداعيه للفزع والرهبه ! ..
إنتشلت الصندوق من بين دفتيه المتصلبتين ، ثم طفقت أتحرى عن شىء أخر مهم .. ربما كان فى ملابسه أو فى جواره ، دون جدوى .. فمازال الصندوق الواطن بين مصراعيه هو الأهم ، إلتقطته .. كان خفيفاً للغايه ، ثم وثبت إلى الشاطىء مخلفا جثمانه ورائى ، إرتقيت الجرف بتؤده أتحرى الجسر وجانبى الطريق .. فلم أجد أحد ، لازال

قلبى يرقع برقع مخيف ، رست قدماى إلى قارعه الطريق المرصوف .. وما لبثت حتى هرعت إلى الجسر ..

إجتزت إحدى بوابات الكفر الأربع الضخام إلى الممشى العريض .. المشجر كثيف الإخضرار والمؤدى إلى عمق البلدة يحاذى المجرى الجنوبى للرَيَّاح ، ركضت بكل ما أوتيت من عزم حاملاً الصندوق أسفل سترتى ، إلا أنى توانيت فى السير أمام قصر الجيوشى .. حتى لا يرتاب رجاله فى أمرى فيصبوا جام لعناتهم فوق رأسى ، خاصه وأن أنباء حراك ناس الكفر لم تلج إلى مسامعه بعد .. وإلا لغصت الساحه تلك بالقتلى والمعذبين ، سرت متثاقلاً .. أخشى أن تضحى رأسى أول الرؤوس المقطوعه لذاك القطيع النافر ، أختلس النظر إلى الحراس وبنادقهم الشاهرة .

وما إن شارفت المدق المحازى لبيوت العبيد والخدم .. إستأنفت ركضى ، إنطلقت كالريح ! ، قطعت المدق فى طرفة عين أو أقل .. إلى أن هويت على وجهى أمام الساقيه القديمه فى نهايته ، فانفتح الصندوق وأفرج مصراعيه .. إنفرط كل ما فيه ، فإنحنيت ألملم أحشاءه المتناثره ، ودون إراده منى لم تلتفت عينى لما سقط .. أعمانى الخوف والهلع ، كل ما أهمنى آنها أن أجمع لمام الصندوق قبل أن يسترعى أنظار أحدهم ، خاصه وأنهم فى صراع يبحثون عن صندوق يَمَـان .. وفى سبيله ذروا ثرى الوادى حبه حبه ، ركضت فاراً إلى دارى فى أخر بقعه بالكفر " عند تخوم الممشى قباله شاطىء البحـر ..

حيث مصب الفرع الجنوبى للرَيَّاح "
ولجت الدار فَزِعاً .. ثم أوصدت الباب فى إثرى ، أحكمت مغاليقه .. لازال صدرى مكروباً بالكاد يلتقط بضع أنفاس لاهثة ، وفى الردهه أطلقت الصندوق أمامى ثم إنكببت هاوياً .. ثقيلاً ، ركنت جسدى المحموم إلى الحائط خلفى .. أتنفس صعدائى بالأخير ..
ظللت لبرهة أرمق الصندوق بعينين زائغتين .. وصدرى يعلو ويهبط فى تسارع مكروب ، إنتبهت دَهِشاً أنى إجتزت الكفر راكضا فى محض برهات .. شوط مديد من تخومه إلى شاطىء البحر حيث حده الأخير ..
ما لبث إختلاج صدرى أن يهدأ حتى مددت يدى إلى الصندوق ووضعته أمامى ، رفعت هامتى إلى الشرفه خلفى أتحرى الممشى .. فقد شعرت بأن ثمة حراك يعتمل بالخارج ، فأوصدت النافذه ثم حملت الصندوق وهرعت إلى غرفتى بالداخل .. أستكشف المجهول داخله ، ترى ماذا يحوى ؟ .. وهل كان يسترعى كل هذا الاهتمام والحرص على إبقائه ؟! " فقط كنت أتساءل "
وفى الغرفة فتحت الصندوق .. وكانت الصدمه وخيبة الرجاء ، لا شىء هنا ذو قيمة .. محض أدوات خاصة بشباك الصيد ، وبعض لفائف من ورق مصفر قديم " زهاء عشرون لُفافه " ، أصابنى قنوط شديد فلم أدر بقدمى وهى تدفع الصندوق فى ضيق .. نافذا صبرى ، وللمرة الثانيه إنفرطت الأشياء حولى وكأن ريح هوجاء ثرثرتها ،

مكثت لبرهه أتمتم بعبارات ساخطه ملغزه .. ثم إكتنفنى صمت مريب ، رمقت اللفائف الموثقه بأربطة من خيط رفيع .. فدارت الأسئله فى رأسى فينة أخرى ، ترى ما كِنة هذه اللفافات ؟ ، إلتقطتُ واحده ومزقت أصفادها ثم أفردت طيها .. فقرأت بعض سطور بدت كسِيرةٌ ذاتيه ، علمت من سردها أنها لِزُهِير " صاحب الصندوق " .. بيد أن ما أدهشنى وأوقفنى حائرا .. كيف لهذا الضرير أن يكتب ؟! ، كيف ملأها ؟ ، كانت مرقمه .. ومذيلة بتوقيع شخصى .. صياد الرَيَّاح .

حينها راودتنى أسئله كثيرة ، أهمها .. بأى عين نسق سردها وأجرى صياغتها ؟! .. بدت وكأن شخصاً ما كتب ما أملاه هو عليه ، إستسلمت لتلك الفكره فقد كانت الأقوى والأكثر إحتمالا .. رغم ريبتى من أن أحدهم قد سبق خطاى وإطلع على ملئها ، لم أضنى ذهنى كثيراً بضروب كتلك من الأسئله .. فقد كانت رغبتى ملحه لمعرفه فحوى ما قيل على لسان شخص أمضيت عمرى أتوق للقائه .

رتبت اللفائف حسب رَقْمِها ونَظْمِها ثم وضعتها بالصندوق ، وأبقيت أولاها .. وطفقت أقرأ ..

اللُفَافَاتْ

" ١ "

التاريخ

أخيراً ..

قررت أن أكتب ماحدث بكل تفاصيله .. بعد آحايين كثيرة من الآناة والوجل ، لست بخير ، بينى وبين الردى محض خطوات .. فالأيام تقاربت وتآزفت فى لهاث مكروب ، وما عاد من فسحة لهذا الإصطبار المقيت .. أو مزيداً من الريث .

لقد تذبذبت كثيراً وأرهقنى سعار الفكر قبل أن أتخذ جدياً هذا القرار .. فأنا لا أعرف لمن أكتب ، لمن أخط حكايتى ؟! ..ولست الوحيد حاكيها ، وأول من حكاها الله ! ، وإن كنت سأفعل .. من سيأبه بقراءة مخطوط بائد لبشرى مثلى ، أهملته الذاكرة وطوته الأيام ؟! ..

لطالما خطت يدى طوال رحلتى السابقة بالقارب سطوراً على لفائف كهذى .. لكنها إهترأت وإندثرت ، وأكثرها مزقته أنا عنوة فى أحايين الأسى والقنوط .. لأجل إيصال أصل ما حدث دون تشويه أو إزادة ، وأصله فقط .

كان الخوف يفترسنى بضراوة كلما تذكرت أنى يوما ما سأكتب ، ستطوق أناملى الريشة لأخط تاريخ أوزارهم .. ناسى وعشيرتى ، سألتهما من السجلات والصحف المطوية .. وِزراً وِزرا ، وجُرماً جُرما ، تاريخ ذرارى أدم المجهوض منذ أن وطأت أقدامه البسيطة ،

المسلوب بأياديهم .. والموءود فى مخازن الذاكرة المنسية عنوة ، بألف مغلاق ومزلاج ! ..
للمرة الأولى تقلقلت الأحرف ، تصارعت ! ، ثارت على ما كُتب فى سجلات التاريخ .. بعدما لطختها جرائر لم يأتها أقوام من قبل .. إلا ناسى وأهلى .
لازال حِراكهم يأتينى من المرسى الأخر للرَيَّاح ، صراخهم كنعيب الغربان الفاجعة .. يخيم بجناحيه على صدرى ..
لست بخير ..

أثقال الخطوب المنصرمة تؤرقنى ..
برغم أن ما جرى على تلك الأرض البعيدة دوماً حيث تقطن الحقيقة .. يبدو كسراب بقيعة فى أعمق مَحَطٌ بداخلى .. إلا أنه واقع حى ينبض بالحياة ويعتمل بعنف آثم أمام ناظرى ، حسيسه كصليل هادر .. يخبو وينبو فى قشرة دماغى ، يضربها مراراً بنقرات مكرورة .. لا تتوقف ..

لست بخير ..
إنطوت عشرة ليال ولم يأتنى الرَيَّاح بهاتفه ، أنتظر على حافة القارب كل ليلة بالساعات أناجيه ، المياه ساكنة ، أهاتف سكانها ولا يجيبون ، إنه الصمت المنتظر .. الصمت الأخير ، أذوناً برحيلى المحتوم .. ولا أعرف ماذا أعددت لهذه الساعة ..

منذ اللقاء الأخير ، حين ضمت هذه الضفة ثلاثتنا ، أنا والمسحور وجنية العيوف .. وأنا أعرف أنه لا لقاء بعده ! ، ولكن أنفاسى تصارع موت تسربل إلى روحى بالأخير ..
أعرف أننى لست بخير ، ولكن لابد أن أكتب ، فالموت لن يمهلنى الموت لأكثر من ذلك ، فكم آلنى بالصبر والإمهال .
إن ما سأبدأ فى خطه الأن هو قليل مما أتذكره عن سير أجدادى البائدة .. آثرت إهالة التراب عنها قبل أن أسرد الحقيقة المكرورة منذ آدم وحتى آنه ، على أقبح أوجهها ، ومهما كان غرابة ما جرى .. فقد جرى ! ، ولا ريب فى ذلك فقد عاينت معظمه رأى العين .
ولكن قبل أن أسفر لكم حكايتى .. أوصيكم بألا تُجْهِضوها ، إقرأوا تاريخ أسلافى أولاً ، ومهما بدا مطولاً ويلفه شيئ من السأم تابعوا خيطه .. لا تبتروه ، فمنه مُبتدأ ما جرى .

تاريخ أسلافى

لابد من العودة بالزمن لألف عام قبل الأن ، يزيد أو يقصر .. إلى حيث كانت عشيرة يَمَـان ، أو الشيخ يَمَـان " كما كانوا ينعتونه " .. منبتهم الأصلى بلاد الشام ، هم ذرارى وأنسال القبائل الغابره .. حفدة العصاة من الأقوام القدامى التى تنازعت على جثمان أدم عليه السلام ، فنالها ما نالها ، سُحقت .. وضربتها أقدار الله الجاسية ..

فتشتت وبُترت أدبارها ، فما كان من شرازمها الباقية إلا أن هجرت مواطنها .. نازحة إلى مصر وجزيرة العرب ..

وأرض الكَفْرِ هى أول مستقر وطاته أقدامهم .. فأسموه " كَفْر يَمَـان " ، تيمنا بجدهم الأكبر .. راعى عاداتهم وحافظ طقوسهم المقدسه " الشيخ يَمَـان " ..

ورغم موقع الكَفْرِ المائز بين أمثاله .. إلا أن أرضه كانت قاحله بور ، غير آهله .. لا تنبت أخضر ولا تروى ظمأ ، ولاحقتها تلك اللعنه لدهور مديدة .. فكابدوا مشقة عظيمة فى إعمارها وإجراء الحياة فى شراينها ..

حفروا القنوات وخطوا على جوانبها الجداول والمَرَاوِى ، أصلحو أديمها وبذلو الجهد والعرق لإعادوا تخصيبها ، وبنو دوراً عظام ، وأفردوا الأسواق والمتاجر والحوانيت فى أواسط الكفر وأطرافه .. إلى أن طاب لهم سكناه ورخت أرواحهم للعيش فيه ..

ولقد حالفتهم الطوالع والأقدار لردح من الزمن ، فسرعان ما تبدت علائم البركات والهِبات على كبير عشيرتهم وعميدها " الشيخ يَمَـان " .. إذ تجلت معجزاته وتلألأت كراماته فباتت ملؤ العين ، فببركته وحكمته فاض الماء وأنتجت الأرض .. ونجا الكفر من القحط والجفاف ، وأصبحت الغلبة لناسه على معاديهم ، وبفضله برىء المريض ونظر الضرير وأنجبت العقيم ، وتكلمت الشاه السائبة " المسفـوك دمـها ".. فأشارت إلى قاتلـها ، وكـم ببصـيرته الثاقبـة من

نبواءات تحققت ..
فلما رأوا من قدراته وإعجازاته الخارقه بِذَاتِ أعينهم .. حفرو له بئراً ينسل إليه الناس من كل حدب للتبرك والإستشفاء ، وأسموه " بئر يَمَـان " ، وإلى الجوار بنو مسجداً يأمه كل آمل مُريد ، وأضحى الشيخ يَمَـان صاحب كرامة غراء .. مائزة بين بلدان الجوار ..
وبغتة ، وبين يوم وليلة .. ما لبثت البركات أن تحل بالكفر حتى إختفى صاحبها " الشيخ يَمَـان " ما لم يحسبوا له حساباً ، وأُشِيعَ آنها بأن الشيخ قد فاضت روحه .. فشدهت العشيرة وضربها الشتات والذهول من أمرها ، وتساءلوا عما ستؤول إليه أحوالهم دونه ، حار ناس الكفر فى الحدث الجلل ، إلا أنه وفى غمره تعجباتهم إنبلج منهم من إدعى بأن " يَمَـان " لم يمت .. بل صُعِّدَ به على صخره بالوادى " إلى الجوار من المسجد والبئر " .. فتلقفته الملائكة ، حملته على أجنحة عظام وعُرِجَ به إلى السماء ، والعجيب فى الأمر أن أهل الكفر صدقوا ما رُوِجَ عن شيخهم .. وبرهنوا على ذلك بأنه لا أثر لجثمانه ، وما لبثت أن تفتقت أرهاطتهم عن أناس إدعوا بأن أكثرهم رأى مشهد مِعْرَاجِه .. رأى العين ! ..
وسريعا ودون تعقل للأمر بنى الأهالى لـ " الشيخ يَمَـان " مقاماً مهيباً يليق به ، ضريح بجوار المسجد وإلى اليمين من الصخرة .. تلك الصخرة التى أصبحت بتعاقب الأيام مرصداً لـ " نَجم الشَعْرَى اليَمَـانية " نجم الوحى ، والذى بات بدوره أحد علامات تجلى

الشيخ من علياءه على الكفر .. ينظرونه راصدين من آن لأخر يباشرون بزوغه ..
ولما كان الشيخ حاملاً للعلم التليد وإرث الأجداد المجيد .. برز أحد خاصته يُشِيعُ بأنه أودع صُحُف حكمته وعلمه فى صندوق ذهبى ودفنه بأرض الكفر ، إلا أنه وَطَّنهُ فى موضع غير معلوم .. آثر إخفاءه حتى لا يضيع ويندثر ، وتجليه من السماء كل خمسين عاماً فى صورة نجم جَلِيّ لألاء .. إنما لحراسة علم الأجداد ، وللإطمئنان على مُكُونِه بين آله وناسه ، وبهذا قَنِعَ ناس العشيرة عن أًخرهم .. ناهيك عما خُبأ فى سرائرهم ..
وما لبث أن أضحى " كفر يَمَـان " ومقام الشيخ أسطورة تتحاكى بها الأقوام .. جيل بعد جيل ، فما تنفك خارقه أن تتحقق إلى الجوار من الضريح حتى تقتفى أثرها الأخرى ثم الأخرى ، ولفيضها نعتوا ساحته بساحة المعجزات .. يأتيها الحجاج آملين من أقاصى الأرض وأدانيها ..
إستتب الحال لأهل يَمَـان .. وحازوا شرفا ترنوا إليه القلوب ، نبت الزرع ولاحت الأشجار ، وتفاخروا بالبنايات الشاهرة العظام ذات الأبراج والقباب .. المزدانة بأعمدة مجلوبة من رفات معابد الأسلاف لها تيجان زهرية فخمة ، حتى أضحى كفر يَمَـان جنة الله على الأرض .. تفترشها الجنان الفيحاء والحدائق الغناء والطرقات المهدهـدة بالأحجـار ، تترامـى فى نواحـيها القصـور المهيبة والقـلاع

العتيدة ..
ولشديد حرص آل يَمَـان ألا يقاسمهم هذه الجِنان أحد بنو أسواراً عاليه كالجبال تحد الكفر من كل جانب .. وجعلوا لها سبع بوابات عظام تطامن السماء إرتفاعاً وتغور فى الأفق طولا ، أُقِيمت أربعة منها عند المدخل الشرقى " ناحية رأس تفريعتى الرَيَّاح ، المجرى المائى الذى حباهم الله بالمُكُون بين فرعيه " .. يليها جسراً يعبر من تخوم الكفر إلى القرى المحيطة ، وثلاث بوابات أخرى بمحاذاة جناح الرَيَّاح الأيسر ..
ولقد سُجل بعضاً مما حُفظ من علم الأجداد وحكمتهم على ألواح صخرية ، مكتوبه بماء الذهب الصُراح .. ونُشِبَتْ بإتقان على أسوار الكفر الصلدة ، لحفظها من العبث أو الضياع والإندثار ..
أضاءت الأنوار شواهد الكفر ، وتلألأت المشاعل هناك بأرض الوادى " جهة الغرب " حيث يرقد " الشيخ يَمَـان " كما خُيِّلَ إليهم ، أصبح مقامه ركناً مقدساً ذو جلال وهيبة أكثر من كونه محض مقبرة لم يسكنها أحد .. فهو ملاذاً يأيته الرواد المريدين والمحبين ، يلجأ إليه المكروبين والتائهين .. ويلوذ بساحته التائبين والنائبين من كل البقاع ، حسبوه حبل الله المتين الذى أُخْتِيرتْ أرضهم ليمتد بأغوارها ، كم من الصالحين مروا هنا وتجلت بركاتهم بمجرد التمسح بحيطانه ، ولقد إطمأن معتقدهم وأيقنوا بأن البئر إلى الجوار عين كبرى ، والمقام ذاته ساحة وصول ، ومحط المسجد بقعة قبول .. أما الصخرة فنافذة

لنور الله ، فأضحى الوادى رمزاً للبركة والنماء والخصوبة ، للإنسان ، جسوراً لعباد الرحمن ومشفى مبارك ..

دارت سيرة يَمَـان الكفور والنجوع ، وماج سمتهم على ألسنة السادة والأثرياء .. كمظهر للثراء الأغر والقوة المفرطة ، والسلطة والهيمنة التى لا سبيل لمنافحتها ، فإستبدوا بذاك بالمال وتلك البركة يُظَللهم الجاه والسلطان ..

بيد أنه وعلى نهج الغافلين نحا قوم يَمَـان منحى أسلافهم البائدين ، إستغلوا قوة المال والثراء أبشع إستغلال فى إسترقاق النساء وإذلال الرجال .. حتى باتت جُل القرى والبلدان المحيطة تدين لأنسالهم بالعبودية ، ففى ساحتهم لا صوت إلا صوت المال والسياط ، وحال الفقير فيهم إما عبداً ذليلاً أو مقتولاً أبشع قِتله .. حتى أضحت ميته العراء أرحم من العيش فى كنفهم أو فى جوارهم ، لقد مارسوا قوة غاشمة يحكمها الطغاة والباغيين ..

وحتى لا يختلط العبيد بأسيادهم .. بقى صنفهم جنساً صافياً لم يختلط بعوائل أخرى ، فلم يُزوِجوا أحداً من خارج العشيرة أو يصاهروا أغراب .. كنوع من الإعتزاز بنبتهم وأصلهم ، ورغم ما عاناه العباد من قسوتهم وغلظتهم ..لم يرى أى منهم فى هذا ضيم ، كانت لهم عين خاصة ، فهم نسل يَمَـان .. ذوى سيرة ممتده موغلة فى عمق الزمن ، هم المُلك ، العزة والإباء ، الأرض ، الخير والبركة .. الجنة التى طرد منها أدم ..

ولكن حدث مالم يتوقعه أحد .. وللفينة الأخرى مذ أن إختفى شيخهم ، فمنذ زهاء الثلاثة قرون وفى موسم الفيضان النيلى .. إنفجرت ذراع الرَيَّاح الأيمن ، ذاك المجرى الفتى العتيد ، أوسع فِيهِ الغليظ ليبتلع الكفر .. ففاضت مياهه بغزارة على الأرض وناسها ، سحقت الزروع وضربت الأشجار .. فقصمت ظهورها وأطاحت بشواشيها ، ودقت القصور والقلاع .. فانفجرت جدرانها محدثة متتاليات دوى ، الشلال الهادر إبتلع الناس الفارة راكلاً الدواب أمامه .. ليحمل الجميع عالياً فيعودوا ساقطين خلفه ، مقتولين وممزقين ، ولازال الهدير يتصاعد بدمدمات تشل القلب ..

لقد أغرق الماء البلدة من الجناح الأيمن للرَيَّاح إلى جناحه الأيسر .. فغمر وادى المقام عن أخره ، وغطى مأذنة المسجد فلم يعد يرى لها أثر ، فى رمقة بات الفيضان طوفاناً ..

بين يوم وليلة أضحت القرية الغارقة تموج بأجزاء أبنية وبقايا أبراج وقباب وأعمدة وسواقى وشواديف ، أشجار وناس ودواب عائمة حملها التيار الهادر .. ولازال رمق من صراخ ومواء ونباح وصهيل ونهيق ، ظلت تطن فى الأرجاء .. حتى خفتت تدريجياً إلى أن خبا كل شيئ تماماً ، إنمحت القرية فى بضع ساعات .. زال كفر يَمَـان ..

وهنا فقط أيقن التائهين غرقاً بين الرذاذ والزبد .. لماذا نزح بعضاً من الأهالى فارين قبل الطوفان بأيام ، كان النباح والمواء والنعيق المكرور نذير شؤم لكارثة أرضيه ، هم فقط من بقوا من تلك الدولـة الظالـم

أهلها .. التى زالت قبل ألف عام من مولدها ..
إرتدت المياه بعد زهاء شهر .. فتكشفت البلدة ، لقد هلك الكفر عن آخره فأصبح كرفات حرب غاشمة ..

ومرت تلك البقعة بعد الفيضان بأسوأ فترة فى تاريخها ، عاث اللصوص فى أراضيها فأفسدوها ونشروا البغاء .. نهبوا ألواح العلم المكتوبة بماء الذهب " والتى سقطت إثر تهدم أسوار الكفر " ، أتلفوا كل ما عثروا عليه من صحف ومخطوطات باقية من الفيضان ، وإنتشر القتل والدم والسطو .. وأصبحت الأرض وكراً لقطاع الطرق وتنازعتها القبائل والعشائر ، كل عشيرة تُبِيدُ وتُهَجِر سالفتها .. لتحل محلها ، حتى باتت البلدة موطئاً لكل شريد وغريب ، لم يعد يُعرف أصحابها .. ولا يُفهم داعٍ لهذا التهافت الحثيث على أرض أضحت بوراً بعد بور ، لا زرعٍ فيها ولا ماء ، خاصةً بعدما ضن الرَيَّاح أن يذيق أديمها قطرة واحدة ، فهو إما كريم حد الإغراق .. أو بخيل حد الموت ، والانسان فى الحالتين أداته ، ومن ثم لم يحفر لها جدولاً واحداً يروى ظمأ الأرض العطشى بتؤدة .. أو يبلل عروقها الجافة بِرَيثْ ..
ظل ما بقى من قوم يَمَـان فى شتاتهم .. نازحين من قرية إلى قرية ومن نجع إلى نجع ، يهجرون مستقراتهم ليلوذوا بأخريات .. يتوطنون بها لفترة ثم يهجروها ، شرازم إلى كل حدب ينسلون .. إلى أن طاب لهم العيش فى إحدى بلدان صعيد مصر ..

مكثوا فيها ما يقرب من المائتى عام ، أنتجوا خلالها أجيالاً جديدة بأحلام جديدة ، إلا أن حُلم العودة إلى أرضهم المائزة ظل يراودهم ، كانت بالنسبة لهم رحم البقاء ، ورغم هذا الوحش الخرافى ، الرَيَّاح ، الذى يهدد تلك البقعة بالفناء من آن لآخر .. ظلت فى أخلادهم محط ملكهم وعزتهم وعزهم .. بالأخير وطناً لا مفر من اللقاء فيه ..

إلى أن جاءتهم البُشرى عندما نفر أحد المنجمين إلى كبيرهم .. يبشره ببزوغ نجم الشعرى اليَمَـانية ، وتجليه فى السماء ، إنه الشيخ يَمَـان جاء برسالة العودة .. بعد الفرقة والبين ، لم يتخيل أحدهم أنه فى الأصل غاب عنهم .. فقط كان ينتظر الميقات المناسب ، وها هو يوفى بوعده .. بعدما غاب لأربع مرات ترصدوا فيها بزوغ نجم الوحى ، وبالنهايه تجلى فى الخمسين عام الرابعه ..

بيد أن خوفهم من تبعات العودة خاصةً بعدما وطأ أرضهم المجرمون واللصوص .. جعل الكثيرين منهم يعزفون عن هذه الخطوة ، أما كبيرهم فقد إرتأى أن العودة مسعى حتمى .. واقع الحدوث ، فالأرض هى شرفهم .. وبها إرثهم الذى ضاع وإندثر وماج مع فورات الفيضان ، فلا مناص من العودة .. لإسترداد عزيزهم الذى فُقِد ..

ولج أرض الكفر الخربة ثلاثة نفر .. بتكليف من كبيرهم ، هم فى أبناءه " الجيوشى ، قاسم ، صبيح " .. أخاً ظالماً ، وأخاً منقاداً ، وأخاً عـالماً ، دعمـهم بعتاد وخدم ورجـال وأسلحـة .. ليمـهدوا الأرض

للدخول العظيم لباقى عوائلهم ورعاياهم ..
كان الجيوشى وقاسم أخوين متوافقين فى كل شىء .. بيد أن السيادة والكلمة الأولى والعليا ، كانت للجيوشى " الأخ الأكبر للاثنين " ، أما الأخ الثالث صبيح " كبير ثلاثتهم " .. فقد كان منبوذاً ممقوتاً منهم ، ومغضوب عليه من أبيهم " رأس آل يَمَـان " ، والذى لم يطمح من روحته تلك أن يُرَغِبه فى سكنى الكفر .. بل ليريه مشقة العيش فيه ، فيعزف من ذاته ويهجر ناسه ..
ولقد هجع صبيح إلى الكفر بصحبة إبنته الوحيدة " كاملة " ، وكانت ذات جمال أثير .. تتحاكى بسمتها العشائر ، أرسله أبوه خالياً فقيراً بلا درهم ولا دينار ، بينما أورث إبنيه الأخرين " الجيوشى وقاسم " ارثاً ضخماً من صناديق الذهب والفضة .. ليتعيشوا بها وليتمكنوا من إصلاح بعضاً من الأرض ..
ظل الجيوشى وقاسم شديدى البخل على أخيهم الأكبر وإبنته .. فلم يبذلوا لأجلهما شىء ، حتى الكلمة الطيبة ضنت بها نفوسهم قبل ألسنتهم ، فعاش صبيح منزوياً فقيراً ومحروماً .. إلا أنه ربط على جأشه حيال غلاظتها وفجاجتهما ، يواجه وحده تلك المشقة التى يخر لها خاضعاً مهزوماً أجلد الرجال .
وجد الجيوشى ، وفى قدر متكرر لهذه البقعة .. الأرض بور قحلاء لا زرع فيها ولا ماء ، تملأوها التشققات ، فقدت خصوبتها من وفرة ماجرى على أديمها .. طوفان وهجر وسطو وإهمال وتكاسل

وتخريب ، الجدب أفنى كل شىء وقضى عليه .. حتى جفت الأرض وضاعت ملامح الوادى ، لم يبق منها إلا تلال من الركام وتهويمات لنباتات ماتت من سنين .. وبقايا جذوع وعشش وألواح مهشمة ، وأشجار تفحمت وإصفرت .. عششت فيها الغربان والعقبان وحيوانات الجبل الفارة من الإنسان ، وثمة رفات لأبراج وقباب كانت قديماً شاهرة تناطح السحاب ، طفت النباتات الطفيلية على المشهد .. كجيش إنتصر بالنهاية ، كان الحال أسوأ مما تخيلو .. الموت أشهر قامته على رفات القصور والقلاع ..

قبل كل شىء ، هرع الجيوشى وأخيه إلى مقام الشيخ يَمَـان .. يتحريا حالته ، وجدوه فى هيئة مزرية .. بيد أنه بالنهاية لازال قائماً ، وإستبشروا أن وجدوا المسجد والبئر والصخرة فى محطاتهم .. إلا من بعض التشوهات ..

شعروا أن شيخهم نظرهم بعين الرحمة ، فبينما كان ماء الرَيَّاح يرتفع ويفيض .. أبقى المقام والمسجد والصخرة والبئر ، فى حين هلكت البلدة عن أخرها ، لقد هبط ليحمى ماله .. ويصون كرامتهم وإرثهم وكما فعل الأجداد نحا الأحفاد .. وكأنما عمدت الأرض إلى إذعان ذراريهم بسياط الكد والشقاء كما أذلوا العباد بسياط الغلظة والجفاء ، بذل الجيوشى ورجاله جهوداً مضنية مميتة .. في محاولات لبث الحياة في أرض الكفر الخربة ، أزالوا نفايات الماضي ، تلال الركام والصخور وبقايا الأبنية والأشجار النافقة ، خططوا الأرض تخطيطاً

محكماً قبل أن يمهدوها ويصلحوها ، حفروا الجداول والمراوي وقسموا الكفر إلى فدادين زراعية تقوم على رؤوسها البيوت .. وكان النصيب الأكبر " بما يعادل نصف مساحة الكفر " من قسمة الجيوشى وحده ، وأنتخب لِقِسْمَتُه موقعا مائزاً بمحاذاة المرسى الجنوبي لذراع الرَيَّاح الأيسر ، بينما إفترشت أراضى قاسم شاطئ الذراع الأيمن تناظرها مباشرة ، يفصلهما ممشاه عريضة تؤدى إلى مدخل الكفر .. حيث الجسر ورأس تفريعتي المجرى المائي ، وقُسمت باقي أراضى البلدة بمساحات متفاوتة لبقية عشائرهم حسب منازلهم بالعائلة ..

وعمدوا إلى أرض الوادي .. فأقاموا جروفها المتهدلة ، وجددوا المقام والمسجد ورمموا صدوعهما .. ونظفوا البئر وأخلوها من الركام ، وغرسوا أشجاراً واطئة زاهية حول صخرة المعراج ، ورشقوا شجرة نبق معمرة بجوار البئر أسموها " شجرة الأجداد " .. ذاك أن كبيرهم كان قد أوصى بإنبات واحدة في هذه البقعة ، فهي شجرة خير وشيئ من أثر الأجداد ..

أعادوا بناء المقابر ثم نقلوا إليها كل ما عثروا عليه من رفات الأجداد .. والتى لم يتبق منها سوى شطف من هياكل عظمية بائدة ، وزرعوا صبارا ضخما في نواحيها .. وبالأخير جددوا السواقي القديمة ، ومعدات رفع المياه وما شابه .

أقاموا مبان عجيبة فاقت فى روعتها ما خلفه الأسلاف مغالاة

وتفاخراً تناهض آماد الأرض وتنافح عباب السماء .. وكأنها مسحه من حكايا الأساطير ، وأشدها إلفاتاً كان قصر الجيوشى .. أعجوبة شواهدهم وأكثرها تميزاً ، قصراً مهيباً يضاهى قصور الهند وأعلى قامة من قصر أخيه المناظر له ، نُصب على رأس الوادي بحيث تتكشف له أرض المقام والمسجد والبئر جهة الغرب .. وكل بقاع البلدة ونواحيها ، إصطفت عند سفحه الأعمدة الضخمة .. وإمتطته قبابا مقعية ومسلوبة وقبوات متقاطعة وأبراج كصَوارٍ شاهرة ، وإزدانت مبانيه بساحات مفتوحة تتوسطها النوافير .. ورصف مدخله بأحجار بديعة تم انتقاؤها وتعبيدها بعناية .

ولم ينس الجيوشى ورجاله أن يقيموا بيوتاً فاخرة لباقي عشيرته القادمين حتماً لإعمار الكفر ، وكان الممشى المحاذي لشاطئ البحر " مصب تفريعتي الرَيَّاح " .. ضرباً من ضروب الجمال والسحر والخيال ، يطل على أرض الوادى شرقاً .. ويناظره البحر غرباً ، ويحاذيه ..

وأقيمت بعض المرافق الهامة كالطاحونه ومخازن الغلال وحظائر الماشية .. ومنازل العمال والخدم والعبيد كتلويحه لإحياء نهج الأجداد ، وعند المرسى الجنوبي للرَيَّاح أطلقوا معديه تعبر المجرى وتناظر محطة القطار على الجهة الأخرى .. وعلى رأسي الممشى المؤدى إلى قلب البلدة " حيث قصر الجيوشى " .

وبالأخير أُعيد بناء الأسوار إلا أنها كانت مساحي مطموسة .. دون

ألواح ، فلقد إندثرت كِسْوتها إثر الفيضان اللعين وتفتت إثر تهدمها .. وما تبقى منها تعرض للسرقة والسطو ، ورشقت سبع بوابات ، أربع منها عند مدخل الجسر .. وثلاث عند المعدية " وهما جهتي الولوج للكفر " ..

تغيرت ملامح الأرض تماماً ، إلا من شيئين كدرا صفو الجيوشى .. فرغم جهودهم ظلت الارض عاقراً بوراً لا تنبت زرع ولا تستسيغ مياه ، ووطون أخيه صبيح والذى بقى رغم أنفه لعشة من البوص على أطراف البلدة " جهة البحر " ، ولقد رفض الجيوشى محاولاته الدائبة لإعمار الكفر .. فظل وإبنته رهين الخصاصة والعوز يتقوتان بأسماك البحر ..

دعا الجيوشى أبيه " كبير العائلة " ولملم شتات أهله من بلاد المهجر .. ليتوطنو كفر يَمَـان في " زيه الجديد " ، وتبدلت أحوال القبائل المشردة ، سكنوا أراضيهم بعد سكنى مواطن الأغراب .. ووطنوا القصور العظام بعد البيوت المتواضعة ..

وبمرور الوقت تفاقمت ثرواتهم وفاضت .. رغم بخل الأرض وقلة خصوبتها ، فكانت التجارة هي الحل ، إلا أن محاولاتهم لإنبات الأرض ظلت مستمرة ، بينما ظل صبيح الأخ الأكبر غريقا بأتراحه .. إرتكب أكابر عشيرة يَمَـان وزراً لم يقترفه أماثلهم من قبل .. إذ طردوا فقراءهم من الكفر ، وهجروهم خارجه ، وكان هذا مصير كل بائس بينهم لا يملك دار ولا دينار ، فبات الكفر موطناً

للموسرين فقط .. لا فقير فيه إلا العبيد ، وفى ذلك جلبوا أفواج العبيد تلو الأفواج من الأصقاع المحيطة .. وإستغلوا حاجتهم للمغالاة فى إذلالهم وقمعهم بأبشع الصور وأقذرها ، فنحو نهج المتجبرين القدامى فى كل أمر .. الشيخ يَمَـان ونسله ، إستبدوا وطغوا وأذلوا العباد .. الدرهم يقاس بروح الرجل وقيمة الرجل بدرهمه ..

وعاد مجد مقام الشيخ يَمَـان لسابق عهده ، إزدحم بالمريدين والمحبين من كل مكان .. إلا أنه أضحى موطناً للعرافين والدجالين من كل البقاع ، وأصبحت البلدة غيهب عظيم للجهل والبغي والثراء المُفْتِنْ ، ولولا حاجة الجيوشى لهؤلاء الشرذمة لقتلهم شر قتله .. لكنهم ظلوا ألة دعاية لظلمه وسيادته ، وبتمسحهم وإلتماسهم الرضا إستفحلت قدرته وهيمنته .. وإنصاع له الجميع مجبورين داخل الكفر وخارجه ..

ولم يخلو الأمر من كدر للصفو ، ففى أقل من عشرة أحوال .. تهافتت على الكفر أقوام ينازعون ناسه حيازة أرضه ويدعون ملكيتها ، وعلى رأسهم " عشيرة مالك " .. إحدى العائلات التي لم يرق لهم تجبر عشيرة يَمَـان وبغيهم ، وواحدة ممن وطئوا الكفر وإنتهبوا أرضه سلباً وفساداً في فترة الشتات بعد الفيضان .. فأعلنوا أنهم المالكون الأُوَلْ لتلك البقعة .. قبل أن يطأها الشيخ يَمَـان ونسله فى الأصل .. لم يُقابل إدعاءهـم بالنفـور والرفـض فحسب .. بل حمـى الوطـيس

ونشبت معارك عظيمه علت فيها صلصلة السلاح وإغتمرت البلدة بدماء القتلى ، وفقد الجيوشى الكثير من رجاله .. وكذا عشيرة مالك ، إلى أن نُصبت الجلسات العرفية .. وبرزت الوثائق القديمة الدالة على ملكية الأرض ، بيد أن الجيوشى علا صوته وإشتدت نعرته .. بأن لا حاجه لذويه بتلك الوثائق ، فبفضل قوة شيكمتهم وصعوبة مراسهم .. فَهُمْ من اليوم الأسياد أصحاب الأرض ، سواء أَرَضِىَ الجميع أم أَبَو ، أعلن أن أقدامهم منزرعة في طين الكفر لما يعدو الألف عام .. ولولا الفيضان لما هجروه ، قديماً كانت أرضه بفضلهم إرتكازاً للملك والبركة والحكم .. ومنارة للعلم والحكمة ، وكانت سيادتهم محط إنصياع القرى والنجوع ، فكم من المحاكمات عقدت هنا .. كانوا هم قضاتها ، ضج بأعلى صوته .. لنا تاريخ هنا من الصعب أن يُفنى أو يُمحى ، لن يُنسى بين يوم وليله ، ومن ثم فأية وثائق أخرى فهي مُزورة إمتدت إليها الأيدي العابثة ..

فكانت الغلبة للجيوشى وناسه .. وبُهِت الذى إدعى عزاً ليس له به طائل ، وبهذا النصر عـلا كعب أمة يَمَـان فـوق رؤوس كل مناهض متكبر .. وإنكسرت شوكة أسياد القرى وباتوا صغاراً في ساحتهم ..

مات عميد عائلة يَمَـان " والد الجيوشى وقاسم وصبيح " عن عمر يناهز المائة والثلاثون عاماً ، فني إلا أن سيرته لم تفن بعد أن إستتب الحال .. وركب يَمَـان على رؤوس العباد ، لقد تحقق حلم السيادة والإستقرار .. وذاع صيت كفر الأجداد وسادت هيمنته .

كان وقع الأمر على قلب الجيوشى روتينياً .. فقد أباه وتلك سنة الحياة ، إلا أن ما أصاب جأشه بالترح والحزن أنه فقد مستشاره الأول ومعلمه الحكيم .. الذي ينهل منه التصرف إذا ما ضاقت به الحيل ، والمكرس لعادات وطقوس القدامى ..

لذا عمد الجيوشى إلى جثته .. فحنطها ! ، وأعد له مرقداً مكشوفاً ودفنه به ، وطَّن هذا المدفن بجناحه بالقصر الذي يقيم فيه خلواته الخاصة .. لتكون على مرآي منه طوال الوقت ، وذلك ليتسنى له تعريه وجه أبيه من آن لأخر .. لإستشارته في الأحداث الجلل ، وكل ما يعن له من تصريفات مصيريه .. كالحرب والهجرة والزواج والقتل والبيع والشراء وغير ذلك من أمور غاية في الأهمية ، وكانت تلك عادتهم مع كبراءهم حين الفقد ، عادة ضاربه في القدم ورثوها عن الأجداد .. حتى لا ينقطع حبل الوصل بين القدامى وما يتقدم من أجيال ، وطقس مقدس .. لا يجرؤ كبير مهما كان عظيما على تغيره أو العبث به ، إنها قوة الأجداد وسر البقاء .. تغيرت مناهج وطرق وظل نهجاً باقياً عنيداً ، يناهض أي تطور أو تبدل .

ظلت الأرض معضله كفر يَمَـان الأهم .. فالجدب والبوار يستشريان فيها ، وترعى فى تشققاتها الجرذان والحشرات الضخام ، وهناك البئر " بئر يَمَـان " .. ما عاد ينتج إلا ماءاً أجاجاً عسر ، لا يشرب ولا يستساغ ، حاولوا بكل ما أثمرته قرائحهم من حيل لإنهائها .. ولكن دون جدوى ، كل المحاولات تذهب سدى ، حتى

خبرة الأجداد وقفت عاجزة أمام عناد الأرض وإباءها ! ، ولازالوا يجربون .. إلا أنهم لم يستبعدوا أن ما أصاب الأرض محض رصد .. أفقدها القدرة على الإنتاج والإثمار ..
لم يكن أخيهم الأكبر " صبيح " غائباً عن مسرح الأحداث ... بيد أنه إستُبعد عنوة ودون إرادة منه ، فكانت كل محاولاته للأزوف ممجوجه ممقوته .. فآثر أن يمكث بعيداً ، إلا أن حالة المُرثى له آلمه كثيراً ونغص عليه حياته وكدر صفوه ، فبينما إستتبت الأحوال لأخويه .. ظل أفقرهم ، بل أفقر رجال الكفر وأكثرهم عوزاً وإحتياجاً ! ، ولولا رباط الإخوه وتدخل الأب قديماً .. لطردوه مع أفواج الفقراء الملفوظين خارج الكفر ..
وفى إنتقال غريب وتحول مريب ، وفى غيبة من النخوه والكبرياء ، وتحت ضغط الفاقه لسنوات طوال .. ألجأ الأزف وضيق الحال صبيح إلى أن يستعين بجمال إبنته الفاتن ومشق جسدها الغض ، فى تَدَنٍّ غرير ! ، فباعها مرات ومرات لأثرياء القرى المجاورة سراً .. حتى إغتمر ثراءاً وترف مثل أخويه ، فبنى قصراً وأعلى قامته لينافح قصور الكفر فى عناد وتفاخر وغرور .. وفى نديه مقصودة ! ..
أما إبنته " كاملة " ، فأصرت أن تبنى بيتاً متواضعاً خاصاً لها .. على أن تكون حجارته بعدد عشاقها ومُضاجعيها ، وعدد لعناتها على أبيها ، جعلته موطئها وموضع خلوتها الخاصة .. لا يلجه أحد غيرها ، مغلقاً حصيناً .

لم يتخيل صبيح أن فضيحة إبنته الباغية ستثور سريعاً وتفوح رائحتها ، وسرعان ما حدث ، جابت سيرتها الكفر من جدار إلى جدار .. ومن أذن إلى أذن ، مما أثار حفيظة ناس الكفر فثاروا وضجوا .. وألهبوا البقاع بسياط ألسنتهم .

آنها أفاق الناس على سماء الكفر وقد تدثرت بغمامة سوداء ، وما لبثوا حتى ضربتهم الكروب والخطوب .. فألم النحس بمقدراتهم ، إزداد البوار وإستشرى الجفاف فطال الرَيَّاح والبئر .. فظن الناس بأنها لعنة بغاء " كاملة " إبنة صبيح ، وأنها حالماً ستبيدهم .

فعلت الأصوات والنعرات .. وسرت فتنة عظيمة إنسلت بين تلافيفهم ، فأعملوا قوتهم الجمعية للضغط على سادة الكفر ، فما كان من السادة إلا عمدوا إلى صبيح وإبنته .. أمروا زبانيتهم فنحروا رقابهما ، ونشبوا رؤوسهما على بوابات الكفر ، وليس هذا فحسب ، بل إستنزفوا ما فى جسديهما من دماء فى قرب وأوعيه .. وقدموها قربانا علَّ هذه اللعنة التى حلت بناسهم جراء البغاء أن تنتهى ، وزعوا الدماء فى كل أرجاء البلدة ونواحيها ، سكبوا بعضاً منها فى بئر يَمَـان .. يبثون فيه الحياة عله ينتج ماءاً معيناً ، وما تبقى نشروه على رؤوس الأرض البور وفى عمقها ليخصبوها .. فيتكشف الإخضرار والنماء ، عل الإله أن ينظرهم بعين الرحمة .. وكان ذاك أيضاً أحد الطقوس الدمويه التى أوصتهم بها الجدات لإجهاض الرصد ، بعدما فاضت حيلهم .. دون أن تؤتى جدواها ..

أما عن البيت الذى أقامته الفتاة بأحجار عشاقها .. فقد نفر إليه الأهالى بتحريض من الجيوشى .. فأشعلوا به النيران فإحترق بما فيه ، لدعواهم بأن الفتاة الباغية أودعت به كل رداء إرتدته لعشاقها الأغراب ، ومالبث أن أمر الأسياد عبيدهم بهدم البيت .. موطىء اللعنة التى أصابت الأرض وناسها ، إلا أن الجيوشى وقاسم وقفا حائلاً دون ذلك .. ودون إبداء سبب وجيه ، إكتفوا فقط بحرق البيت وأصروا أن يُبقوه مغلقاً مدى الحياه .. وذلك كذا مما ورثوه عن القدامى لمجابهة المصائب واللعنات ، أبقوه موصداً بمحروقاته وباللعنة الموؤدة فيه .. حتى لا تنفك أنفاسه الشريرة فتنفث شرها وتبث لعنتها فتحيق بالكفر وتبيده عن أخره ، وهكذا أفنوا أخيهم صبيح الذى طالما نغص عليهم حياتهم .. فأذهبوا ريحه ومحو أثره على نهج مشين منفر ..

وفى غداة يوم ، ولازالت أصداء الحادثة تتردد ، تجمع حشد غفير من الأهالى قبالة البيت المُحَرّق على مشهد غريب .. لم يتوقعوه ، البيت لم يحتمل تبعات الحريق والإهمال .. فإنفجرت جدرانه على نحو ملفت وبدوى مسموع ، تهدمت بعنف من كل جانب ..

وقف الناس مشدوهين ، تتلهف أعينهم لما سيتمخض به البيت .. بيد أن فزعاً عميقاً إعتمل فى صدورهم بضراوة .

فلا ريب أن اللعنة ستفور من مكمنها وتتدثر فى أردية الفتاة الباغية ، ستنفجر هى الأخرى فى وجوههم لتكشف الغائب المجهول ،

وكانت الصدمه .. أن فاض الفراغ المظلم ببقايا كتب ومخطوطات قديمه مُحرَّقه ! ..

لابد وأنها مخطوطات سحر لعينة ! .. هكذا همس بعضهم لبعض وقف الأهالى مريجون ، ففى غمرة تحمدهم أن نجوا من اللعنة التى ظنوا أنها ستحرقهم أحياءً .. حارت عقولهم ، لم يكن هذا أبداً ما ينتظرونه ، لهت الهواجس بصدورهم وكذا الريبة بأدمغتهم .. ثمة لغز فى الأمر ، أين أردية الفتاة التى حرصت على خَزْنِها ؟! ، أين ما جَنَتْه من عشاقها مما كان سببا فى لعنة الكفر وبواره ؟! ..

وما كشفته الأحداث قبلاً كان أكثر المفاجآت غرابة ، فبعد التحرى عن الكتب والمخطوطات المحرقة .. إتضح لهم أنها متوناً قيمة للعلم والحكمة وليست مخطوطات سحرية ، حينها فقط تيقنوا أن الأخ المقتول " صبيح " كان حاملاً لإرث أمة يَمَـان الحقيقى ، كان عالماً جليلاً ولم يكن داعراً أو فاسداً كما دارت دعايتهم ، وجدوا أن الكتب تحمل علم الأجداد الذى إندثر .. وبُنى هذا البيت خصيصاً لحفظ مانُسخ من ألواح الصحف البائدة بعد الطوفان القديم ، لقد جمع صبيح ما تأتى له من علوم قديمه وملاحم عظيمة .. بما فيها صحف إبراهيم الخليل وتوراة موسى والإنجيل والقرآن المفسر .

أما عن اللعنة وحكايتها فلها جانب أخر ، فالجيوشى وقاسم هما من روجا شائعة البغاء عن ابنة أخيهم .. محاولين الإنتقام منه أشد إنتقام ، ذلك العنيد ، مناهضهم الأول لنزعاتهم الشيطانية وغلظتهم ..

ولإمتقاعهم وضيقهم بتشدقه الدائم بالعلم أمام جهلهم المفضوح المخزى ، وإتباعهم الخرافات والأساطير ، فأهدروا دمه هو وإبنته .. ومثلوا بجثتيهما بمحض إفتراء وبغى ، هذان اللذان لم يتركا رذيلة إلا فعلاها ، وفى مفارقه سوداء .. سرعان ما أنتجت الأرض بغزارة ، وغمرت المياه أديمها .. وفاض بئر يَمَـان بماء معين لذة للشاربين ، وكأن القدر يسخر من عقول هؤلاء القوم الضالين .. وينذر بما لن يتحملوه ..

لكن تظل المفارقة الأغرب من هذا كله ، أنى وبعد بضعة أعوام وُلِدتُ لأبى الجيوشى .. مولود ذو شبه صارخ بعمى المسفوك دمه ، المقتول ، فبت نذير شؤم .. بأن السماء حتماً ستنتقم ..

وتلك كانت بداية حكايتى ..

" ٢ "

أمشير

عند حافة الجسر ، وقفت أنتخب الطعوم من علبتى الخزفيه .. وأرمى بها إلى سطح المياه فى الأسفل ، كنت أتخير أثراها وأغلظها .. وأرمق الأسماك منتشيا تتقافز وتتطاير من المياه لتلقطها ، كان مشهدها مبهجاً وحالماً .. الأسماك وكأنها تتراقص وتثب ، تلهو كالأطفال .. وأنا أراوغها بطعومى الدوديه كأنها ترانى ، تنظرنى وتتبع حراك يدى ، إلتقطت سمكه تونه طويله الطعم بوثبه واحده .. سهله ويسيره كرمح سمهرى ، فابتسمت ، إلا أن إبتسامتى قطعتها شهقه فزع ! .. قفزت من صدرى الواثب وجلاً ، لقد إنفلت قيادى عن العلبه .. فهوت بما تحوى إلى صفحة المياه .

تجمعت الأسماك زمره حول الطعوم الطافيه تتنازعها وتمزقها .. بينما غاصت العلبه الثقيله ببطىء إلى عمق الرَيَّاح ، إنحنيت برأسى مذعوراً أتابع ذاك العراك المحموم بالأسفل ..

هرعت راكضاً على الجسر ثم هبطت إلى الشاطىء أباشر المشهد عن كثب .. ولكنى بمجرد أن ناهزت حافة الجرف الرملى بوغت بقارب صيد رابض عند المرسى ، وثمة صياد متقدم السن يلملم شباكه الخاويه .

نظرنى الصياد هادئاً ..

- **ما لى أراك فزعاً .. أكانت لك ؟.**
- **نعم لقد إنفلتت من يدى .. وها هو الرَيَّاح إبتلعها ..**

فإبتسم الصياد إبتسامه ناعمه ..

- **ألم يروقك مشهد السمك وهو يتهافت على طعومك الشهيه ؟**
- **حقا ، ولكنى حزنت لسقوط العلبه .. أفسدت مرائى وحرمتنى من مشهد أثير .**
- **أتحب السمك ؟ ..**
- **أحب أن ألهو معه ..**
- **وماذا عن كائنات الماء ؟ .. هى تحبك فهل تحبها ؟ ..**
- **ماذا تقصد بكائنات الماء ؟ ..**
- **عالم الماء .. قبائله وعشائره ؟ ..**
- **وهل هم مثلنا .. قبائل وعشائر ؟ ..**
- **لكل حييّ أهله وذويه .. عالمه الخاص ..**

ران على وجهى صمت رتيب ، بينما طفق الصياد يلملم أطراف شبكته الغائصه بالماء ، فباشرت ما يفعله ملياً ..

- **هل لى أن أبقى معك .. أشاهدك ؟ ..**
- **وهل لى أن أعترض ؟ ، هى أرض الله .. وأنت ربيبه ..**

كان رجل مسن ، يبدو من شعره الأشيب ولحيته الثلجيه أنه يفوق الستين حولاً .. إلا أنه سمح الطله سجى السمت ، يخال لك من الإنطباع الأول بأنه جدك أو أبيك المسن ، قال ..

- **هل لى أن أسألك عن إسمك ؟ ..**
- **قل لى ما إسمك أنت أولا ..**
- **سؤال بسؤال .. لا ضيم ، أنا شمس الصياد ..**
- **وأنا زُهِير .. أنا مثلك أحب حياة الماء ..**
- **إذن كلانا صياد ..**
- **نعم .. أحب أن أكون صياداً ، ولكنى لا أحب قتل السمك .. بل أحب إطعامه فقط ..**
- **هذا جيد .. للتو إكتسب صديقا يشاركنى ما أحب ..**
- **أشكرك فليس لى أصدقاء ..**

إنتصب الصياد بعدما جمع شباكه الفارغه ونظمها .. ثم وضعها فى قاع القارب ووثب بهدوء إلى الشاطىء يجلس على مقربه منى ، وإسترعى ناظرى أثر جرح غائر محفور فى ساقه اليسرى جعله يتوكأ على ركبته فى عرجة ملحوظاً ، فرمقته قائلا ..

- **هل كانت إصابة عمل ؟ ..**

تحسس الرجل جرحه .. وند عن صدره تنهيدة ألم عميقة ، ثم نظرنى

- **إنها حكايه قديمه .. يطول شرحها ..**
- **كلى أذان صاغيه ..**
- **لكنى لا أريد أن أتذكر ما عانيت لنسيانه ، إنه ماض ثقيل ..**
- **أرجوك .. ألسنا بأصدقاء ؟ ..**

فرمقنى مبتسماً ..

- حسناً .. رغم أنه سيؤلمنى كثيراً ..
- إذن لا داعى لأن أوجعك ، لن أسالك ثانياً ..
- لا ضيم يا بنى .. سأروى لك قصتها ..
- كما تشاء ..

وأشار بإصبعيه إلى تفريعتى الرَيَّاح ، أمعن ناظراً إلى مداه البعيد ..

- ساؤنبئك أمراً ، أتدرى هذان الفرعان من مياه الرَيَّاح الريان ، اللذان يضارعان دلتا النيل .. إنهما يحصران بين مراسيه بلداً قاسياً وقوماً جبارين .. كفر يَمَـان ورأسهم رجلاً غليظاً هو علة مصابى وعرج قدمى ..سأقاضيه يوماً ما أمام ربى.. والقيامة لقاء حساب ..

إعتدلت فى جلستى .. فقد راعتنى إستهلالته الأليمة ، أردف قائلاً ..

- بينما كان أحد صغارهم الأشقياء عالقاً أسفل نقالة عربه " كارو " بين إطاريها ، يغط فى نوم عميق .. سطا على مخزن غلالهم لصوص من قطاع الطرق ، فأفرغوا ملئها ، أجولة حنطه وذره وما شابه ، ولما كلت ركائبهم عن حمل ما جمعوا .. إستعانوا بعربات " الكارو" الملحقه بالقرب من المخازن ، وكانت تلك العربه إحداهن ، وهجعوا بها إلى خارج الكفر ، إلا أن أمرهم كان قد أفتضح عند تخومه ، فقد نبا ريحه إلى رجال الجيوشى رأس الكفر وسيده .. فثارو خلفهم يتبعهم خفراء قصره ، وقبل أن يجتاز اللصوص ذاك الجسر الخشبى

وعند الرقعة الهالكه منه .. سقط الطفل من العربه إلى عمق الرَيَّاح ..

آنها ، وكعادتى كل ليله .. كنت أجوب بقاربى صفحة المياه ناشراً شباكى ، فأتى إلى مسامعى ذاك الدوى الرهيب لشىء قد هوى مرتطما بالمياه من أعلى الجسر ، فى بادىء الأمر ظننته حجراً ، أو ربما كان الجسر يتدهدم .. أو هكذا خال لى ، ففزعت مبتعداً ، إلى أن إستبان الأمر .. وبالقطع لم أتكهن أن الهاوى كان طفلاً ، فهجعت إليه أنتشله ، آنها رأنى رجال الجيوشى وهم يطاردون اللصوص .. فإنثالوا كالثجيج العرم فوق رأسى ، إنتزعوا الصغير من يدى .. وإنهالوا فوقى ضرباً مبرحاً ، ثم ساقونى إلى القصر بتهمة إختطافه والإشتراك فى سرقة مخازنهم ..

وقبالة كبيرهم الجيوشى .. أذاقونى أشد العذاب والتنكيل ، وسقطوا بسياطهم على جسدى حتى تمزق وإهترأ ، وبنهاية الأمر مَنِيت بعيارٍ نارى من سيدهم .. سكن فى ساقى اليسرى فأعرجنى ، وأسقطنى غامياً كسيحاً ..

لن أنسى ماحييت ما حدث لى فى تلك الليلة المشئومة .

فنظرت إليه متألماً ..

- أتقصد أن الجيوشى هو من أصاب ساقك ؟! ..
- هو بعينه ..

فأطرقت أسفاً .. أرمقه تارة وأرمق الماء تارةً أخرى ..

- **أيعقل أن يكون أهلى بهذه الصورة القاتمة ؟! .. إنهم قساة القلوب ! ، يؤسفنى أن أخبرك بأن هذا الصغير الذى أنقذت حياته ، وكان سبباً فى مصابك .. هو أنا ، زُهِير الجيوشى حفيد عائلة يَمَـان ..**

حملق الصياد فى وجهى .. وقارعنى الإطراق ، ثم خيم علينا صمت كئيب .. تدور أفكارنا فى ذات المدار إلى أن إنطلق لسانى ..

- **أتريد أن أخلى سبيلك ؟ .. هل غَيَّر ذلك فى أمر صداقتنا شىء ؟ ..**

ند الصياد عن صدره تنهيده أعمق من تلك التى بدأ بها حديثه .. ثم إبتسم شاحباً ..

- **وما ذنبك أنت يا بنى أن هؤلاء البغاة هم آلك ، على كل حال لقد نسيت الأمر ..**
- **ولكنى لن أنساه ، أستميحك عذرا أن تسفر لى مالا أعرفه ، أزل الستار عما أجهله ، هل هذه الحادثه خصيصاً هى التى دعتك بأن تنعتهم بالظلم والبغى ؟ ..**
- **الأمر أشد غوراً من هذا بكثير ، معقد لدرجة قد تصيبك بالقنوط والكآبة ..**
- **إذن أخبرنى أليس من حق الصديق أن ينير الطريق لصديقه ؟ ، أبصرنى مالا أراه ..**

- رغم علمى بأنه ليس من الكياسه أن أحدث طفلاً فى مثل عمرك بأمر كذاك ، وقد تمقتنى جراءه .. إلا أن عندى الرغبة لأن أبوح ..

فواجهته قائلا ..

- وهذا ما أرنو إليه ..
- كفر يَمَـان .. عالم مدهش ومقبض فى آن ، حفنة من الطغاة الجبارين .. القمع شرعتهم والبغى نهجهم ، غلاظ شداد أقوياء ، من يعرفهم كمن لا يعرفهم .. يتغيرون ويتبدلون ويتلونون دون إكتراث ..

سكانه عن أخرهم أثرياء .. أثرياء للغايه ! ، إلى حد التخمه والملل .. اللا إنسانيه ،كلهم أصحاب أطيان .. يجيدون بإمتياز إحصاء رزم النقود وحيازة الفدادين إلى الفدادين ، حتى صغارهم بارعين فى هذا ، ولا بطون تشبع ولا ألباب تقنع ، فهم أيضا بخلاء يحقدون على الكرماء ويمقتون الأصحاء ، يأكلون حصائد أيادى غيرهم ويتأففون من العمل .. فيستقطبون من يقضى حوائجهم من قرى الجوار ، خدم وعبيد وحراس ومزارعين ، وخاصة فقراءهم المطرودين بصنيعة أياديهم من نسل يَمَـان ..

ومن المدهش أنه لفرط تعاليهم وعجرفتهم ، يظنون أن قوة شكيمتهم وصعوبة مراسهم ، سطوتهم وهيمنتهم وقبضتهم

الحديديه ، ذاك كله .. هو ما يخصب الأرض التى غرسوا فيها قسراً جذوراً ممتدة على أمل إخضاعها .. وإجراء النماء على أديمها !

هو كفر طافح بالملذات ، إلا أن قاطنيه فقدوا طعم الحياه وتشوهت ذائقتهم .. فأصبح عالم متخم إلى أنفه بالعدميه والمحو ، الحراك فيه إما مدوٍ حد الزلزلة أو خامل لا يوقظ نمله هامدة ، حالة من الملل القاتل ! ، وفى أعماقهم إشتهاء غريب للفقر ! ، يربو الفرد منهم أن يغدوا إنسانا يعانى ولو لمره واحدة .. إلا أن الطبيعة سلبتهم منيتهم ، فعمدوا إلى إنشاء القصور العظام والقلاع المهيبة .. ليهلكوا ثرواتهم التى خلعت عنهم الأدميه ، فما هى إلا تزيد وتزيد ، وتفيض وتطفح .. حتى تعبوا الثراء ، فباتوا يتنافسون فيما ليس له قيمه ، لم يعد فى عالمهم ماهو ضرورى ، فإبتدعوا ضرورة لحياتهم .. بالظلم والإذلال ، وبكثرة الحشم والخدم ، هناك لا مكان للحب والغيرة واللهفة .. فلا إختلاج يثيرهم ، بيد أن البغى هو مثيرهم الأوحد ، فإن لم يجد الفرد منهم عبيداً يستذلهم .. يعمد إلى أبناءه وزوجته ، مطاياه ، وربما نفسه ..

فباتو يمارسون الحياة كمن لا أصل له ، الإحتقار سمتهم وسوء الظن دماءاً تسرى فى عروقهم ، سحناتهم دواماً ممتقعه ، مشمئزة ، وحديثهم منفر ، لا قدسية للموت عندهم ،

ورغم أن بينهم شيوخاً وزهاد .. جلبوهم وبنو لهم المساجد والصوامع .. إلا أن الخرافة والدجل دينهم ، يرتدون أفخم الثياب وأجود الأقمشه .. وأجسادهم عفنه مختمره بالموبقات ومخالفة العهود وإرتكاب الفواحش العظام ، أياديهم ملطخة بدماء الأبرياء ، هم الشيطان فى ثياب بشريه ..

أما عن الجيوشى فهو رأس هذا العالم الباغى ، والمكرس الأول لأعرافه وتقاليده وحامى طقوسه ، وحيد السلطه .. أطيان الكفر فى حكم أطيانه ، الملك له والحكم له ، الكل غنى مترف وأمامه فقراء أذلاء ، منصاعين مجبورين .. رقيقاً فى ساحته ، قبالته لا قانون إلا الطاعة العمياء .. وخارج ساحته فجميعهم يتعالى على جميعهم ..

يملك المال والأرض والجاه والأنفس ، هو شخص أسطورى خلعوا عنه سماته الأدميه فما أضحى إلا أن يجعلوه إلاهاً ..

وهو كذلك فى أعماقهم ..

وتلك هى حقيقتهم ..

مكثت لبرهه صامتاً فى بلاهه مفرطه .. أحملق فى وجه الصياد ..

- أنا لا أفطن شيئاً مما تقول ، أتقصد أن أبى ظالماً ؟

فإبتسم الصياد حتى تبدت نواجزه

- يقولون أن الصغار يرثون الظلم مع لبن أمهاتهم .. أما أنت فغير ! ..

- **حديثك يرهق ذهنى ..**
- **دعك من هذا ، ما رأيك فى نزهة قصيرة بالقارب ؟..**
- **ليس قبل أن تخبرنى ، كيف يتعاطى الإنسان مع الظالمين ؟**

فرمقنى الصياد مندهشاً .. ثم أجاب ..

- **منذ قديم الأزل ولنا وصفتنا الفريده للتعامل مع كل جبار ظالم ، التأليه ! ، نجعله إلاها علينا .. فيتعالى على البشر ، ويموت لا هو إنسان ولا هو إله .. إنه السم المقدس .**
- **يبدو أنه من الأفضل ألا نتحدث بهذا الشأن .. فإنك تشعرنى بالبلاهه والغباء ..**
- **فقط كنت أجيب عما تسأل ، هذا الشعور نابع منك وليس من إجاباتى ..**

أطلقت ناظرى إلى القارب مراوغاً .. أحاول تغيير مسار الحديث ، فلكم أحرجنى ، أخذتنى جدرانه الخشبيه شديدة القدم ..

- **قل لى متى بنيت هذا القارب العتيق ؟ ..**
- **حقا .. إنه موغل فى القدم ، يعود عمره إلى ما قبل أن يُبنى كفركم هذا .. وقبل أن يُحفر مجرى الرَيَّاح ذاته ، قيل أنه كان لرجل ضاقت به الأرض وشح رزقها .. فرأى فى الصيد ملاذاً ، بيد أنه مات قبل أن يمس خشبه الماء .. وبالأخير ورثته أنا عن أجدادى ..**

رفعت ناظرى ساهماً .. أرمق الأفق البعيد وهو يطامن سطح الماء

- إذن الرَيَّاح ورِث الكفر عن أسلافه .. وورثه ناس الكفر عن أسلافهم ، وأنت ورثت قاربك عن أجدادك ، أما أنا فبات الظلم ومقت الناس إرثى .. يالها من قسمه غير منصفه !..
- وألست من ناس الكفر ؟..
- بعداً لى إن كنت من أقوام تمتطى رقاب العباد ..

حملق الصياد فى وجهى دهشاً ..

- كيف تنتصب الرزانة والسذاجه فيك على قدم سواء ؟! ، يخال لى أن عقلك أكبر منك سنا ..
- أنا طفل عاقل .. أو قل عاقلاً تمنيت أن أكون طفلاً ، ما لا يناسب غيرى هو دواماً عندى مناسباً ، يليق بى أن أحيل كل شىء لائقاً .. الوقت ، المكان ، الفعل ، أصنع معطياتى ونتائجها دون إرادة أو وعى ، تصنعها سجيتى .. وأساعدها ببعض من الهزل واللهو ، وربما عدم إنضباطى .. أعيش ما أريد وإن رفضنى ، فأكون عاقلاً رغم إباء سنى ..
- تبهرنى بعض ردودك .. مثلما تبهرنى أسماك هذا الرَيَّاح
- ومع ذاك تجازيها .. فتصطادها وتقتلها ، هل كل ما يبهرك تقتله ؟
- ها قد عدت لسذاجتك مره أخرى ، أنا لم أقتل سمكه واحده طوال حياتى ، لم تغتصب شباكى حريه أى منهن .. بعد كل نوبة صيد أعيدها جميعاً إلى الماء ، أنا أعتبرهن أميرات البحر

وربائبه .. زوجات جميلات يحققن رغبات أزواجهن الكادحين .

فإنتصبت بغتة مقتطعاً حديث الصياد .. فقد لاح لى أشباح خفراء القصر هارعين على ركائبهم فى إتجاهنا ، وهو ما إسترعى إنتباه الصياد أيضاً ، قلت

- **يجدر بى العوده الآن ، يبدو أنهم بعثو الخفراء للتحرى عنى ..**

ووثب الصياد إلى قاربه وجلاً ، وطفق يجدف مبتعداً دون أن يودعنى .. إلا أنه حين ناهزت منتصف الجسر الخشبى لوى عنقه نحوى قائلا

- **للتو إكتسبت إبناً وصديقاً .. سأنتظر لقاءك ..**

فلوحت له بيدى مغادراً قبل أن يلتقطنى أحد الخفراء إلى ظهر مطيته .. بينما سار هو يسحب قيادها ، ورمقت الخفير الأخر يتحرى نواحى الجسر .. حتى تصلبت عيناه على القارب المغادر هناك بعيدا إلى عمق الرَيَّاح ..

" ٣ "

كياك

.. كنت طفلاً غريب الأطوار ، إبن موت .. كما كان أهل الكفر يدعوننى ، ولكم ضاق أبى بهذا النعت وأهاج ثائره ، فعند ولادتى إتهمتنى إحدى العرافات بأنى وليد علاقة آثمة .. إقترفتها أمى ، وما إن نبا الخبر إلى مسامع أبى .. حتى أصدر أوامره بأن يلقوننى بالماء حيا لتبيان حقيقة الأمر ، وكان الجفاف قد ضرب الرَيَّاح آنها .. فأمر بجمع الماء من كل دور الكفر ومُلأ بئر يَمَـان عن آخره ، ثم ألقونى فيه عنوة ، رغم إرادة أمى ، فما كان إلا أن طفيت على صفحة المياه حياً ، لم أغرق .. ولم يبتلعنى البئر كما خال لأغلبهم ، فعرف آنها أن أمى بريئه من تلك الوصمة المشينة التى أُلحقت بها .. فأمر والدى رجاله فحملوا العرافه وألقوها بالبئر ، فغاصت حتى ماتت ..

ولم ينتهى الأمر عند هذا الحد ، فبينما برئت أمى من تهمتها .. قرر أهلى التضحية بى نزولاً إلى أعرافهم التى تقضى بأن الأطفال المولوده فى أزمان الجفاف تقدم قرباناً ، شريطة أن يكون الطفل بكراً وألا يكون وحيد أمه ، ولما كنت أنا أول وليد لأمى إقتضى الأمر الإنتظار لمقدم مولود أخر .. حتى يتسنى لهم التضحية بى طبقاً لأعرافهم ، فكانت أمى تنمينى لتهدينى إلى الموت دون وعى .. إذ أنه لا مناص من هذا الطقس اللعين ، حتى وإن كنت إبن كبير الكفر وسيده ، ولما

تأخر وليدها الثانى .. أخبرتها إحدى العرافات السائحات حول ضريح يَمَـان بأنها لن تلد إلا طفلاً وحيداً ، وكنت أنا هذا الطفل فسقط عنى الطقس ! ، إلا أن ما حدث أن أنجبت أمى أخى صبيح بعدها بزهاء العشرة أشهر فقط .. فعاد الموت يحوم حولى وأنا فى سن الرابعه من عمرى ، إذ حل قتلى وتصفية دمى ، وأصبح الأمر حتمياً لا محال .

إلا أن أمى كانت قد إزدادت تعلقاً بى ، فكانو كلما أقبلوا على ذبحى .. بكت وصرخت بشده فتفقد الشَعِيرةٌ جوهرها وتبطل على الفور ، كلما رأت عينيّ الدعجاويين وأَكُفِى المُحَنّاه تجهش بالبكاء وتصرخ .. فيتكرر ذات الفعل وتبطل الشَعِيرةٌ ، حتى أنها حاولت ذات مرة عبثاً أن تقدم أخى صبيح .. فقوبلت رغبتها بالرفض التام ، فشرط الضحية حسب أعرافهم أن يكون طفل بكر ، فاتح رحم ، وهذا لا ينطبق عليه ..

بالنهايه قدمت أمى ، فداء لى ، عشرين ناقة عفية ، وكان شرطها أن تكون كل ناقة قد ولدت خمسة بطون أخرها ذكر .. وأن يشق أذنها ثم يخلى سبيلها نذراً لله فلا تركب ولا تحلب وتصبح مشاعاً سائبه ، ومن يمتطيها أو يستخدمها يحل دمه ! ، حلبت النوق قبل أن يخلى سبيلها ثم روى الرَيَّاح بلبنها المنثور .. علّ الماء يجرى فيه تارة أخرى وكانت الكارثة ، إذ وجد الأهالى صبيحة يوم ما العشرين ناقة مذبوحة ومسلوخة .. وملقاه فى قاع الرَيَّاح الجاف ! ، وكأن القدر فى

سجال معى .. يأبى إلا أن يزهق روحى ..
فلما كان من الأهالى إلا أن حملونى خلسة دون علم أمى إلى مقبرة فارغة وألقونى بها حياً .. وأوصدوا بابها ثم رحلوا ، وما إن علمت أمى بأمر إختفائى حتى أهاجت ثرى الكفر بحثاً عنى .. وملأت أذان السماء بصراخها وعويلها .
أما أنا فقد حدث معى مالم يتوقعه أحد ، فعند إنتصاف ليلتى الأولى بالقبر .. قدم ذئب شائخ وظل ينشب مخالبه فى أحجار الباب ينبشها حتى دهدمها وأزالها عن أخرها ، ولا أنسى أبدا تلك الأعين الفسفوريه المرعبة وهى تنظرنى من خارج القبر ..
ظل الذئب قابعا أمام الباب وكأنه يحرسنى حتى إنقشع الليل وتكشف نور الفجر .. فخلى سبيلى وفارقنى مغادراً ، ليفاجأ بى أهل الكفر فى غداة اليوم التالى أسير فى ساحة السوق .. أجرجر أذيال الكفن ورائى ، فزهدت حيلتهم وشعروا أنها علامة من الله .. فأبقونى حياً بدعوى أن طقوس التضحيه قد تمت ، ونُفْذت بالفعل .
وبعدها بعام واحد هويت من ركائب قطاع الطرق وأنقذنى شمس الصياد ..كان القدر يلاحقنى فى عناد شديد ، ولكن مشيئة الله فى كل مره تحول دون موتى ..
وبذكر شمس الصياد .. لم يغب عن خلدى ما باح لى به ، فقد تأتت أمامى أحداثاً تبرهن على صدق منطقه ، بدأت أقنعه أبى تنحسر تباعاً .. إستبانت غلظته وفجاجته ، فما كان داعياً بسبب إضاعة أحد

الخفراء سلاحه الذى سرق منه خلسة .. أن يعاقبه أبى ذاك العقاب الغشيم ، أمر رجاله بتصفيد الرجل على ظهر فرس مصروع .. ثم قاموا بضرب الفرس بالسياط حتى ثارت وماجت ، ظلت ترفس إلى أن هاجت نافره تجوب نواحى الكفر فى جنون .. تدق الأشجار برأسها وتضرب الجدران بظهرها ، تتخبط فى كل إتجاه لأكثر من عشرة أيام ، وبالنهايه رُشِقت بعيار نارى حتى سقطت ميتة ، أما الخفير فقد مات منذ اليوم الأول ونفق على ظهر الفرس ..

كان لتلك الحادثة شديد الأثر فى نفسى ، أثر مؤلم .. أرقدنى محموما لعدة أيام ، وأحدثت شرخاً وتصدعاً عظيماً حول تصورى لأبى وعلاقتى به ، لم يكذب شمس الصياد حين وصفه بأنه شيطان فى ثياب بشريه .. حقاً إنه الشيطان بعينه ..

ومما أصابنى بإندهاش غريب .. تلك العبارات التى يكررونها كالبغبغاوات ، فحينما سألت الخفير الذى ساق مطيتى من الرَيَّاح إلى الكفر بعد لقاء الصياد .. عن أصل شائعة الظلم والبغى التى وصم بها ناس الكفر .. رد بسماجة

- **وهل كل ما يقال يصدق ..**

وفى أول لقاء بأمى سألتها ..

- **لماذا يرموننا بالظلم والبغى يا أماه ؟ ..**

فأجابتنى بسؤال أخر ..

- **من قال لك هذا الكلام ؟ ..**

- **لا أحد سمعته يموج فى أحاديث الناس ..**
- **فهمت ، وهل حدثت به أحدا ؟ ..**

فأجبت ..

- **سألت أحد الخفراء ..**
- **وبماذا أجابك ؟ ..**
- **قال .. وهل كل ما يقال يصدق ..**
- **حقا أصاب .. وهل كل ما يقال يصدق ؟ ..**

إمتلأت عيناى بالريبة والوجل .. أمى تكذب ! ، وما إن شعرتْ بما دهانى .. إنصرفت ولم تعن برهبتى وحيرتى ..

أما الخفير فلم أتوقع منه أكثر مما أجاب ، وإنما صدمتى الحقيقية كانت فى أمى ، تلك التى حاربت الكفر وأسياده لتنتشلنى من براثن الموت ، هل هذه أمى التى أعرفها ؟ .. أم أن أقنعتها كانت أضعف من أن تصمد ؟ ، كيف ذاب ذاك الرباط المقدس بينى وبينها فى أول مواجهة شعرت بأنها لم تُخلص لى لأنى لم أخلص لها ، لم أكن مخلصاً حقاً إزاء أمى .. إنقطع بيننا دفق الحنان بعد خمسة عشر يوماً من مولدى ، حين نضب معين لبنها ، وما كنت مخلصاً حقاً سوى أنى لفظت أى معين بعده ..

تجشمت سنيناً من الفرقه والإشتياق لها .. وهى القريبة دوماً منى ، وعندما نهشنى العطش ركضت إليها أستجدى دفئها .. فلم أجد إلا عجوزاً عليله ، هى الأحوج إلى من يرعاها ، تغضن وجهها بطلات

لا أعرفها .. طلات مرائية منقادة ، فعاش كلانا ظمئاً .. ليست أمى ولست بفاتح رحمها ..
بغته ، إنقطعت الإستمراريه بيننا .. ولم تضحى مرجعيتى ، لم تضحى الشجرة التى ألوذ إليها لأستريح وأتنفس الصعداء بعد ركض طويل ، بت كطائر بلا عش أجوب السماوات وأحط الأرض بلا هدف ..
أما أبى ، فرعون كفر يَمَـان ، الآمر الناهى ، صاحب الإجابات لكل محير .. فأقنعته كانت حجرية صلدة ، ديكوراً زائفاً إلا أنه كان متيناً لا يثيره مثير ، لم يهتز وهو يجيبنى .. كانت عيناه قويتين ، واثقتين ، هزمت رمقات الإتهام وعباراتى الواصمة ، شمخ أمامى حتى ناطحت هامته عنان السماء .. بينما إنغرست قدماه فى الأرض فى صلابة وعناد ، قائلا

- **وهل كل ما يقال يصدق ..**

أخافتنى عبارته ! ، جاءتنى بروح أخرى .. أصابتنى برهبه وخوف بكل ما هو غائب ، لم يعلق بأكثر من ذلك ثم أشاح بوجهه عنى دون إكتراث .. منادياً أحد خفراءه ، وما إن مثل الخفير أمامه حتى حدجنى بنظرةٍ خلخلت ركبتاى .. علمت منها أن أمراً جلل سيحدث ، سيكلف به أحد زبانيته .
نظرت إليه خلسة من خصائص باب الديوان .. وقد تشنجت أساريره ، شخص لبرهة إلى فراغ الشرفة .. ثم واجه الخفير يأمره بأمر ما ، وما لبث أن هرع الخفير إلى الخارج ، رأيته بأم عينى

يصطحب إثنان من رجال القصر وإنصرفوا بمطاياهم حاملين السلاح ، ترى أية مصيبة سيجلبونها ؟! ، تابعتهم ملياً وأشباحهم تختفى فى أفق الممشى العريض .. ثم أدرت وجهى ، تمعنت قسمات أبى الصارمه حائراً مريجاً .. فأبى معضلتى الأهم والأميز ، ليتنى ألج عقله لأعرف كيف يفكر .. كيف يتعاطى مع الأمور ، لم أشعر يوماً أن فؤاده مثلنا يختلج .. وكأنه مضغه زائده بصدره لا جدوى منها سوى أنها ألة لضخ الدم .

كانت علاقتى بأبى علاقه أليه ، رأيت حبة لى بيد أنى لم أشعره ، لم يصلنى .. أو قل لم ينبع من منبته ، فقد كانت أفعاله تدور حولى بينما مشاعره تدور فى مدار أخر ، كان يضمر شيئاً لا أعرفه ، يطوى سراً ، يُبيت نيه مؤجله التنفيذ ، عشت معه حناناً بلا إحساس وبلا دفء .. بلا جوهر أو عمق ، حنان منطقى صادر من العقل ، محض أفعال مجردة من الإثارة .. من الشغف واللهفه ، ولكن السؤال الذى خايل لبى على الدوام .. أى حب هذا ؟! ، كثيراً ما كنت أتساءل بأى منطقه أسكن فى كينونة أبى ؟ .. أى بقعه فيه هى موطنى ؟ ، كيف يعى لبه معنى الرعايه ؟ .. كيف يترجمها ؟ ، وماذا يتوجب علىّ إبداءه حيال حب كهذا ؟ ، هل هذه هى الأبوه ؟! ، لم أعشها من قبل أو أعهد لها كنه أو حقيقة ، أحبنى أبى بلا قلب .. هكذا كنت أردد دوماً فى نفسى ، كنت راضياً .. إلا أنى لم أكن مقتنعاً برضائى ..

" ٤ "

بئونة

فحيح يخلع القلب ، السماء تذرف قطع من الثلج بغزارة ، يضربني برق خاطف .. حينها كنت أسير وحدي فى بحر من الجليد ، هدير ورعد صاخب .. وريح باردة تعصف في وجهي فتنثر على صفحته قطع الثلج ، أبعدت ناظري ، كأني أسير فوق سحابه بيضاء .. تلتحم بسدل ساقطة من ضباب كثيف وكأنهما شيئ واحد ، وبغتة .. إنحسر الضباب عن خواء ممتد بجانبي فإنقشعت تهويمات السحاب ، حينها تكشف قارب يعتلى بقعه مياه سائبه بالكاد تكفى محطه ، يقف عند رأسه شمس الصياد ، كان وجهه وضاح كزفات الأعراس .. تتقافز الابتسامات الناعمة على طلته ، نشبت ذرات الثلج بقسماته فزادته بياضاً وبشراً ، مذ رأيته نبضت الطمأنينة فى قلبى .. زال عنه فزع هذه الأجواء المقبضة ، فإستقر رويداً رويداً بعد إختلاج مكروب لبضع دقائق .

أفرد الصياد ذراعيه يدعوني للركوب إلى جواره ، نظرت حولي فإذا بالجليد يذوب شيئاً فشيئاً حتى أصبح جزائر ثلج صغيرة عائمة على صفحة المياه .. فوثبت إلى القارب خلسة قبل أن تذوب رقعة الجليد تحتي ، وقتئذٍ كان الصياد يقبض على مجدافين ويحركهما في إنسيابية ونعـومة .. لتنحسر الأمـواج إلى طبقـات ورقائق خلفـه ، بينما يندفع

القارب بتؤدة كرمح سمهري ، فقلت ..

- **مالي أراك مستبشراً ؟! ..**

فرمقنى ، وهالة الإبتسامات تشوب وجهه ..

- **حسبى سعادة أنى أراك ..**
- **أين نحن ؟ وإلى أين نمضى ؟ ..**
- **هذه رحلتك .. وستقطع الشوط الأكبر منها ..**
- **رحلتى ؟! ، ماذا تقصد برحلتى ؟! ..**
- **يكفى أن تعرف أنها رحلتك .. لست بحاجه لأن تسأل ، ستمضيها وتخوض غمارها بنفسك .. فلتتحرى عن أقصوصتك وما جُبِلَت عليه ..**
- **أريد أن أسمعها منك ، على ماذا جُبِلَت أقصوصتى ؟ ..**
- **إصطبر وستعرف ..**
- **نفذ صبرى وطريقى مظلم ..**
- **بصيرتك ستهديك ..**
- **أريد علائم طريق .. على ماذا جُبِلَت أقصوصتى ؟..**
- **جبلت على خير وشر .. وبين ذاك وذاك ..**
- **ولكن ....**

وقبل أن أتم قيلتى .. خبت إبتسامته وانطفأ بشره ، تغضنت أساريره فقام فزعاً وقد غشى وجهه ذعر عجيب ، نظرت إلى يسارى حيث شخصت عيناه .. فإنتفض جسدى وأصابته رعشه عنيفه ، ثمة خمسة

ذئاب سوداء عفيّه تقف على رقعة ثلج بالقرب .. الواحد منهم فى حجم حصان بالغ ، كانت تنظرنا شرذاً بيد أنها لم تسطتع الإقتراب منا .. لم تملك الجسارة للقفز إلى القارب الطافى بعيداً ، حالت الأمواج دون تقدمها ، إلا أن الماء سريعاً بدأ يتجمد ورقعة الثلج تزداد مساحتها .. تقترب منا لتدنوا معها الذئاب متحفزه ، أمسكت بذراع الصياد مرتجفاً إلا أن أكثر ما راعنى أنه إنتزع ذراعه ووثب إلى رقعه الذئاب ، وبغتة تكاثفت الثلوج وتساقطت بغزاره .. وإنثالت الستائر الضبابيه حتى إختفى الرجل عن مرآى تماماً ، حينها هويت إلى قاع القارب أرتجف أستند براحتىّ إلى حافته .. وأُحد النظر إلى الضباب علىّ أراه ، بيد أنه ذاب والذئاب فى غيامة واحدة ، تاه وراءها .. وجائتنى أصوات الوحوش تزوم وتزأر بضراوة ، ثم ضجت أصواتها مصروعه .. فتيقنت أن ثمة صراع غشيم يعتمل هناك ، حتماً إنقضت عليه ، إخترق مسامعى صراخه المدوى وتأوهاته المصعوقه ، ينادينى ..

- **لا تنسى عهدى معك ..**

أمسكت بالمجدافين متشنجاً أحاول الوصول إليه علىّ أنقذه .. لكن المجدافين متحجرين لا يتحركا ولا يهتزا ، أنعمت النظر بعيداً .. لقد تجمدت كل المياه حتى أصبحت راسياً في بحر من الجليد ، وما من حائل بيني وبين الذئاب ، إنتصبت مذعوراً أدور وأتخبط .. أنظر إلى كل اتجاه ، حينها تقافزت الأفكار إلى رأسي مصروعه ، عراك محموم

.. لازلت أسمع شجار الذئاب وعويها ، هم بالقرب ولا ريب أنهم سينهالوا إلىّ .. سينقضوا على جسدي الهزيل ، وبينما كنت أرسل ناظري إلى مصدر جلبتهم .. لاحت لي خيالات وظلال ضخمة على صفحة الضباب الساقط ، هم يقتربون .. تتضاخم أشباحهم ويتردد صراخهم ، وها هو أحدهم قد أوطأ هامته يستعد للقفز والهجوم ، وفى طرفة عين وثب فرأيته يحلق فوقى .. مخالبه بحجم راحة يد ، فأغمضت عينى مرتعشاً ، وعواءه فى أذنى يكاد يخترقها ، لم أحتمل فأفرجت جفناى .. رأيت أنيابه ملئ عينى ..

قمت مفزوعاً من نومى .. أشهق وأزفر فى سرعة مكروبه ، تلفت حولى .. لازالت أشباحهم فى عينى الزائعة ، ورويداً زالت الخيالات وذابت الأشباح وإنحسر الضباب ، لأجد نفسى بالأخير مستلقياً فى خُصٍ صغير على رأس الأرض .. يأتينى صوت إعتمال وحركة بالقرب ، مِلت بجسدى أطل برأسى من الباب .. فلمحت العمال هناك على رأس الأرض يرصرصون أجولة القمح فوق المطايا ..

حينها إعتدلت ، وطفقت أفرك مقلتىّ مجهداً .. لازال فؤادى منقبضاً وكأن يداً عفيه تمسكه وتناهض إختلاجه ، ضربنى ذاك الكابوس المريع لعدة ليال سابقة بذات التفاصيل .. ولازال يأتينى ويصارعنى ، يزورنى الصياد طيفاً أو حلماً ، كابوساً ، هاتفاً .. يأتينى بكل الصور والهيئات ، ولازالت عباراته تتردد فى أذنى ..

- **هذه رحلتك .. لا تنسى عهدى معك ..**

وقتئذ لم أكن أعى شيئاً مما أرى أو أسمع ، بيد أنى كنت موقنا بأن ما أراه فى نومى وما أشعر به داخلى .. ليس بمحض أوهام ، كنت أشعر أنها علائم من الله تعتليها بعض ضباب أو أتربه تحتاج لإجلائها .. وقتها سينكشف كل شىء ، ستتضح الرساله ، وطاف حدسى أن ما باح به الصياد لى عند المرسى ، فضلاً عن تعلقى وإنبهارى به .. هما علة تلك الكوابيس والهواتف والأطياف ، فى الحقيقة لم أكن أعرف ! ، كنت فى حاجه ماسه لزيارته .. علّه يسفر لى طلاسم مايحيق بى ويغتمرنى ..

إنتصبت بحرص .. ثم ترجلت خلسه إلى خارج الخُص ، إندسست بين أعواد الذره حتى لا يرانى أبى الراكب على مطيته هناك على الجهة الأخرى خلف العمال .. تحوطه زمرة من الخفراء المسلحين ..

قطعت غيط الذرة فى أقل من دقيقة .. وركضت بكل ما أوتيت من عزم بمجاذاة المروى وبيوت العمال والعبيد إلى أن شارفت تخوم القصر ، فتسللت إلى الجوار من السور الخلفى ومنه إلى الممشى العريض قبالة بوابات الكفر الأربع .. ثم إجتزت بوابة جانبيه ، وفى غضون دقائق زهيدة كنت أعلى الجسر الخشبى أتحرى عن شمس الصياد ..

لم يكن عند المرسى الغربى فعبرت الجسر إلى الضفة الأخرى .. فصعقنى ما رأيت ، القارب بالأسفل راسياً فى رزانه وثبوت .. والصياد منكفئ على وجهه فى صموت مريب ! ، وثلة من رجال

ونساء عزبة الكياليين منتصبين قبالته يتأسفون ويتهامسون فى حزن ، حينها عبرت الجسر فى أقل من خفقة عين ثم هرعت إلى الأسفل .. فتدحرجت إلى الجرف الرملى حتى تكومت فى محطى ، فتساندت فى وجل .. يدق قلبى كرقع طبول تأبينيه ، كان بعضاً من الرجال ينتشلون جثمانه من القارب ، لقد مات الصياد ! ، هويت على ركبتىّ مقهوراً إذ سمعت من أحدهم أنه تلقى عياراً نارياً وطن فى صدره .. وثمة سحجات وجروح بجسده ووجهه ، لقد تعرض لتعذيب شديد .

ما كان صعباً على قريحتى أن أفطن إلى أن القاتل .. هو أبى ! ، أرسل رجاله فقتلوه ، كل أصابع الإتهام كانت تشير إليه ، فلقد رأى خفراؤه الصياد بعدما غادرته .. ولابد وأنهم قد أخبروه بما رأوا ، وبربط ذلك بما جرى لشمس الصياد قديماً على يد أبى ورجاله فأعرجه ، علاوة على سؤالى اللحوح عن علة نعت العشيرة بالظلم والبغى .. كل هذا يجعل الدوافع قويه ، دوافع ثأر ، إلا أنها ما كانت تستأهل القتل .. ماكان ينبغى هذا أبداً ، بيد أن أبى يمقت المناهضين له والخائضين فى سيرة عشيرته المبجله ، لذا أصدر أوامره للتو بإزهاق روح الرجل دون تردد ..

إنتفضت من عينى عبرة .. أحرقت قلبى ، لم يكن لى أصدقاء .. وها هو أبى قد أفنى أول صديق لى ، قضى عليه دونما ذنب إقترفه ، ياله

من صلف وغلظه ! ، هؤلاء القوم قساة القلوب .. هم بحق أعدائى ، باتو من اليوم ألد أعدائى ..

حملوا الصياد إلى مسجد فى الجوار عند تخوم عزبة الكيالين ، لم يكن له بيت ولا آل .. كان القارب موطنه وموضع راحته ، سرت معهم منكسراً مقهوراً .. الكمد يمزع قلبى ويمزقه ، سأوارى صديقى إلى التراب .. ما أقساه شعوراً وأقبحه ، وداع بعد أول لقاء ، وداع أبدى ، قرروا تغسيله ودفنه فى ذات الليله .. كشريد وحيد

ماهى إلا ساعه زمن .. وانتهت مراسم الفراق ، رقد شمس الصياد فى محطهِ الأخير .. ولازالت عروقه نابضه بمظلمته ، ينتظر يوم اللقاء والحساب ، وقفت مريجاً .. تضرب قلبى الحسرات والآهات .. كابوس أخر بطله شمس الصياد .. والنهاية واحدة ، الموت غدراً وغيلة .. يالها من قسمة بحق ظالمة ! ، وطالع وضيع قاسى ..

إنصرف المشيعون .. وبقيت وحيداً قبالة باب القبر ، هو ذاته القبر الذى رمونى فيه حياً وأنا صغير .. ياالا صدف القدر ومفارقاته السوداء ! ، لم أجرؤ على رفع هامتى .. أحنيتها خجلاً وحرجاً ، لقد كنت وبالاً على الرجل ، جئته أحمل راية موت قاتمة .. لا راية حب وصداقة ، سحقاً لضروب كتل من العلاقات ، لم أكن منزهاً عن ذنبه .. شاركت فى قتله ، ذاك كان شعورى ، وما زاد أوجاعى ترحاً أن الرجل مات وحيداً ودفن فى أرض غريبه .. دونما أهل ومودعين ، حتى أنا لم أودعه ، كنت سوطاً قضى على البقية الباقية من

كرامتهوكبرياءه .. فمات تلك الميتة المهينة ، لميتة العراء أهون وأكثر شرفاً ..

رمقت شواهد القبور حولى ، أحدث نفسى " وما جدوى جلد ذاتى وقد إنتهى الأمر ؟ .. إنتهى ! .

لملمت أذيال نذالتى وحسرتى فى آن .. متقهراً بكمدٍ عائداً إلى ذاك الرجل ، المدعو أبى ، بانى نطفتى وهادم مهجتى ، صدمتى القاسية القاصمة فى تلك الحياة ، وقتئذٍ كانت رأسى قد إزدحمت بالكثير من الريبات والهواجس والصور .. إلا أن صورتين ظلا ناشبتان فى خلدى ، يخايلانى ولا يبرحانى ، يتنازعان فى عمقى ، صورة أبى وشمس الصياد .

" ٥ "

بئونة الحجر

مكثت فى دائرتى المغلقة حتى أسفر لى أبى عن أخر أقنعته .. الأشد قبحاً وغلظة ..

كنا على رأس الأرض ، فى ذات الليله التى ودعت فيه صديقى العجوز .. نراقب العمال وهم يعبئون أجولة القمح لتحملها المطايا إلى مخازن الغلال ، كان أبى يشرف بنفسه على تلك العمليه .. ففى معتقده الخاص أنه لا أمان لعامل أو خادم تستأجره بالقمع والظلم ، وإلى حد ما كنت أعتقد ذلك .. فالقمع لا ينتج إلا أنواع ثلاثة من الناس .. إما المجرمين أو الوصوليين الطامعين فى المال والسلطة ، وآخرهم الثائرين المتمردين على الأسياد ، ومع الثلاثة أنماط لا يتعامل أبى إلا بلغة السياط .. مجابهة القمع بقمع أشد ، وهذه مالم أؤمن به يوماً ، فحتى الكلاب إذا ما تم قمعها بعنف قابلتك بالصرع ونزعات الإفتراس .. فما بالك بانسان يملك عقلاً يفكر ويتدبر ؟ .

وقفت إلى الجوار من إحدى المطايا .. أرمق أبي شرذاً ، ربما متأملاً ، هذا الفرعون بلا موسى يناهضه ، كيف يقترف تلك الأوزار دون أن يهتز أو يتحرك جأشه .. ما هذه القدرة على الثبات ، قد يسفك دم جيش من الأبرياء نساء وأطفال وشيوخ .. بدم بارد وأعصاب

فولاذية ، تتوارد إلى ذهنى كلمات الصياد وعباراته .. وتنفجر ذاكرتى بمشاهده وأفعاله ، صراع أجاج يعتصر نفسى عصراً .. وهموماً كالجبال رست فى عناد على فؤادى ، إنها ألية التذكر والنسيان .. تطحن تروسها كل جميل وعزيز ، سحقت أبى بداخلى ، ونسفت معتقدى عن الأمومة ، وبات ناس الكفر كزبانية جهنم .. الشيطان وسراياه ، ولا أثقل على النفس من تلك المشاعر المهانة فى عمقها ..
ترجلت إلى أقرب بقعة من أبى ، وقفت إلى جوار من مطيه لم تكتمل حمولتها ، كان أحد الخدام يدك جوالاً على ظهرها ليضع عليه واحداً أخر ، طفقت أحاكى فعله دون إرادة .. أو هكذا كانت تفعل يدى دونما هدف ، ربما كنت أشاطرهم العمل ، تعلقت عيناى بقسمات أبى الصارمة .. فحدجنى بنظرة ثابته نافذه أسقطت جرأتى وجسارتى فطأطأت رأسى ، لازال الجبن يحركنى ويتحرك داخلى ، يدفعنى ، رفعتها قليلاً إلى وجه المطية فى جوارى .. كانت بغلاً متوسط الجرم ، نظرت فى عينيه وقد ترقرقت وفاضت بعض دموعها ، قلت فى نفسى " أشعر بما تشعر به " .. لوكانت الأمور بسهولة لإنتزعت قيادك ومزقت باطن هذا العتىّ الرابض على الفرس هناك ، ربما سحقت رأسه بحوافرك .. وكذا أريد أنا ، إفعلها وسأساعدك .. ستجدنى إلى جوارك أعضدك ، فقط إفعلها ، لكنك أجبن منى ياصديقى .. عيناك تقول ذلك ، طأطىء رأسك مثلى ولا تنبس ، ولكن بقدر ، إن غداً لناظره لقريب ، غداً نسترد حق الأبرياء وننظف

الكفر من حفنة الظلمة الفاسدين ..
ودون أن أدرى تشنجت عظام أناملى فإنغرست فى باطن الجوال .. فتمزق نسيجه وإنفرطت الحنطة على الأرض كسيل عرم ، إنكب الرجال عليها يحاولون لململة شتاتها .. فتعثرت وأصابنى تخبط شديد ، فجفلت حينها .. وغمرتنى رعشه قاسية ، ومما زاد الطين بلة أن نظر أبى صوب تلك الجلبة الدائرة هناك حول البغل .. فهوى بسوطه على مؤخرة فرسه ..
غصت الكلمات فى حلقى ، أردت الإعلان أنه كان خطائى دون إرادة فأنا شديد العلم بحرص أبى على ماله ومقدراته .. فحبة حنطة واحدة قد تقابلها رأس رجل ، فإنطلقت من جوفى صرخة متحشرجة وكأنها غنج حزين .. كانت خافتة مبهوته واهنه ، لا صوت لها ، فبادرنى أبى صارخاً ..
- **يا بهيم ..**
سمعتها عشرات المرات ينعت بها رجاله وخفراءه .. إلا أنها تلك المرة كسرتنى وقصمت شيئاً غالياً فى قلبى ، كرامتى وكبريائى ، كيف أُنعت بما يوصم به شغاليه وأهون رجاله ، لوهلة .. تطاولت رأسى إلى حد التكبر ، تركت صفوف المقهورين فلست منهم وإنتصبت فى مصاف المتعالين المتعجرفين ، برهة يبرز فيها جوهر الإنسان ، لم أدر بحالى والكلمات تنبعث من فمى دون تردد .. يضربنى الغيظ ..
- **هم البهائم ولست أنا ..**

فحدجنى بنظرة ساخطة ..

- **أنا لا أشغل عندى بهائم .. يا بهيم ..**

فعاودت الصرخة تستأنف إقلاعها من حلقى إلى وجه أبى ، سافرة .. بيد أنها هذه المرة لم تكن واهنة متحشرجه ، لم تنطلق غنجاً حزيناً .. بل إنطلقت مدفوعة بلظى النار فى الحشا ، نار الظلم والكمد .. نار صديقى المقتول ، وكأنى رجل الغاب يُكوى بالنار ، أو مارد للتو خرج من قمقم .. دوت وترددت ، طنت فى الأرجاء محدثة رجيع مخيف .. وصدى مضغم ..

إلتوت أعناق الخدام وتوقفت أياديهم عن العمل ، ومالم أحسب له حساباً أن تنتفض المطايا بدورها فتثب بحمولاتها وتهجع فارة مصعوقة صوب الجسر الخشبى ، ظنت بدورها أنى أحدوها للسير ، إلا أن الحداء تلك المرة كان صراخاً .. وكانت هى على قدر المسئولية ، ركضت مذعورة بدلاً من السير ..

ثار هرج ومرج ، تخبط عنيف ، هرع العمال وراء المطايا .. بينما هبط والدى من على فرسه وصفعنى على وجهى حتى سال دمى ، نزع عنى إزارى فهو يعلم كم هو غال على قلبى وسيؤلمنى أى مصاب يصيبه ، فهو هديه عمى صبيح قبل أن تحز رقبته على أيديهم ظلماً وعدواناً ، عمى .. عدو أبى الأول منذ أن نشأت تلك الأرض ، كنت أشبهه على نحو صارخ وكأنى هو .. الأن يذهب أبى ريحه للمرة الثانية ، ينتقم منه ومنى جملةً واحدة .. عمد إلى إيلامى فطوح

الإزار ليطن تحت أقدام رجاله النافرة .. يطئونه بأوحالهم وأوساخهم ، إنتزعنى .. وطفق يركلنى بقدمه الغليظة ويسقط سوطه الحامى فوق جسدى الهزيل ، ثار ثائرة على نحو بشع مما أثار الركائب وفاقم هيجانها بما حُملت .. فظلت المطايا تركض حتى ناهزت تخوم الجسر الخشبى ، والخدم هارعين فى إثرها ، وهناك وقع ما كان يخشاه الجميع .. لقد سقطت كل الركائب من الرقعة الهالكة من الجسر إلى عمق المياه ..

ذاك الجسر الخشبى .. الذى بات مفارقة سوداء ومدهشة فى آن ، ففى يوم ما .. كان سيضحى سبباً فى موتى هاوياً من هذى الركائب ، وها هو اليوم يُسقطها جميعاً من ذات المكان فى إنتقام لا إرادى ، إنتقام قدرى .

لم يستطع الرجال إنقاذ أى منها .. ماتت المطايا وغرقت أجولة القمح فى مياه الرَيَّاح، دموع الملائكة المذروفة على كل ضحايا الكفر ، فخافوا من العودة بخيبتهم فهم يعرفون أن الجيوشى لن يفوتها .. حتماً سينتقم ، وانتقامه سيكون مريراً ، فإما القتل بالرصاص أو التعذيب بالسياط حتى الموت ، بالنهاية سيهلكون .. ففرو هاربين .

علم الجيوشى بأمر مطاياه وهروب العمال .. فشطح كثور هائج ينعر بصوت جهورى قبيح ، أمر خدمه وعبيده فنزعوا عنى ملابسى بالكامل حتى بت عارياً من شعرى لأخمص قدمى .. ووثقونى بالحبال عند أحد أعمدة القصر الضخام بحديقته .. وصرخ فيهم ..

- **هاهو من دعاكم بالبهائم .. مزقوا جسده ..**

فطاح الخدام بسياطهم فوق جسدى .. كنت أسمع فحيحها المرعب يدوى فى أذنى وضرباتها الموجعة تلفحنى من كل إتجاه ، ها هو أقذر الأقنعة قد سقط عنه .. ربما ليس بأخرها ، فظنى أنه يطوى ما هو أقسى من ذلك ، فى كل الحالات كان ما حدث أخر مطافى مع أبى ! .

بغتة فقد أبى حنانه وحبه .. غاب عنه كل شيئ ، فلا قلب ولا عقل ، تلك الحقيقة بمعناها القاسى .. والقدر حينما يعبث بضعاف النفوس ، هنا فقط أحسست أنه كان غائباً عن رحلتى .. عن أقصوصتى ، عن البداية ، تيقنت أنه لم يهتز لبكائى وأنا رضيع .. لم توخذ قلبه لحظة فرح وأنا أنطق حروفى الأولى ، لا أتصور له هيئة وأنا قبالته أخطو بكر خطواتى .. لقد تمزقت فى ذهنى كل مشاهده ..

إنفجرت ذاكرتى بحكايا رحلتى معه .. فتبخرت وتبعثرت ، طارت كبقايا مزع بالية .. ذهبت أدراج الرياح ..

والآن أسأل .. أين أمى ؟ ، أين عطامينو ؟! ، فمهما كان فلن تكون بهذه القسوة والجفاء ، لطالما كانت رحيمة حنونه إزاء جل أطفال الكفر .. فأين هى إذن من محفل تمزيق فاتح رحمها ، بكرها ؟ ، أين هى ؟! ..

فجاءنى صوتها من بعيد .. صارخاً مخنوقاً ، مذبوحا ، مبحوحاً على غير عادته ..

- **كفو أياديكم عنه ، أغربوا .. تبت أياديكم ..**

حاولت إنتزاع السوط من يد أحدهم إلا أن يده كانت غليظة جاسية .. أسقطها الرجل فى دفعة واحدة ، كنت أسمعها .. أسمع أنين قلبها ، الصارخ بحرقة ، إنتصب تدور حولى تارة .. وتلفحنى بصدرها المحموم تارة أخرى ، ثم إلتصقت بوجهى المتعرق بغزارة .. فإمتزجت دموعها بعرقى ..

كوليد لأول مره يرى وجه أمه .. كنت أراها ، هذه أمى ، لم أصدق يوماً عقلى وهو يمزعها فى عمقى .. أَبَى قلبى هذا ، رفضه ومقت فكرته .. وها هو يصدق ما يجوس بفؤادى ، تلك التى أسقتنى رحمة وقت أن إستهلت أقصوصتى سطورها الأولى فى رحمها .. روتنى ظمئاً وأحيتنى ميتاً ..

إستفاقت أمى من سكرتها على طرف السوط يلفح وجهها .. فصرخت ، وأمسكت بالسوط الثانى قبل أن يسقط فوق ظهرى ، فتوقف الخادمان لبرهة ..كيف سيضربان سيدة القصر ؟! ، لضحالة عقولهم ظنوا أنها ستصمد وهى ترى قرة عينها يُمزق بين أياديهم ، تهزهزت قلوبهم لدموعها .. ونضالها وهى تنفطر ألما لتحمى صغيرها ، وكأنها فرخ أفرد جناحيه يتلقى براثن عقاب شرس عن صغيره ، نظروا صوب كبيرهم يستجدون رحمته .. إلا أن ذاك الغليظ لا يختلج له قلب ، أشار الجيوشى لهم بألا يتوقفوا .. فإنهالوا بسياطهم فوقى ونال أمى مانالته ، فسقطت تحثو الثرى ..

هـرعت لتوها تحـبوا .. تُقبل يدى أبى ، تستجديه أن يكف .. وتقسم

عليه بأقدس الأقسام ، ولكن دون جدوى لم يحرك فيه ساكنا ، فهبطت تقبل قدميه فلما لان رأسه الحجرى العنيد ، فسقطت لتوها مغشياً عليها وإلتوى فمها ، فأمر أبى الخدم فحملوها إلى القصر ، أما أنا فمكثت تحت رحمة الخدم ليلةً كامله .. لا تكل أيديهم ولا تتعب ، كلما خشوا أن يهترأ جلدى أسقطوا سياطهم .. فيلاحقهم سوط أبى الرابض خلفهم .

أذكر أنها كانت ليلةً قاسية .. بكتنى البلدة بتمامها ، الأرض وسماءها ، أما عن هذا كله فلم يهزنى .. قهرنى فقط ما علمته تباعاً عن حالة أمى التى إزدادت سوءاً طوال الليل .. حتى سقطت شليلة فى إحدى نوبات إصطراعها من مرقدها لإنقاذى ، فقدت النطق والحركة ! ، لم يكن بيدى ما أفعله وأنا المأسور ، ما ملكت الا صمتاً مريراً وتأوها خبا شئياً فشيئاً حتى ظن جلادىّ أن روحى قد فاضت .. فرفعوا سياطهم عنى مجبورين .

لم يجد أبى بدا فأمرهم بفك أصفادى .. فهويت فى محطى غامياً .. لا أنطق ولا أتحرك ، تنثال الدماء من جسدى وقد تخثر بعضها فى أنحائى ، ظل الخدم حولى إلا أن أحدهم لا يجرؤ أن يلمسنى بناءً على ما أمر به أبى ، أما هو فقد ترك الساحة إلى قصره ثم إلى مخدعه بعدما قضى ليلةً مضينةً تحتاج الى قسط من الراحة ، إنغلقت عيناه غاطاً فى نوم عميق وكأن شيئا لم يكن .

" ٦ "

بشنس

أفرجت عيناى .. جفنيهما ثقيلين ، لازال الليل يطمس الرؤية .. رأيت أشباح الخدم جالسين زمرة على مقربة ، حاولت القعود بيد أن تباريحاً مؤلمةً إستشرت بجسدى .. لفحات السياط وكأنها خطوطاً من نار مستعرة تحفر جلدى فى طبقات ، كلما تحركت فى جهة .. شعرت وكأن الجروح تمزق بعضها بعضاً ، سمعت أحدهم يقول ..

- **لقد أفاق ، ترى ماذا نصنع معه ؟ .. أما كان يجب إستدعاء طبيباً لمداواته ..**

فحدجه رفيقه هامساً ..

- **أوطىء صوتك ستُهلكنا ، لا تنطق بهذا ثانيا .. وإلا نالك أسوأ مما ناله ..**

تذكرت كل ماحدث فى تلك الليلة جملةً واحدةً ، مختزلة فى لحظة .. فإشتعلت نار الكمد والحسرة فى صدرى ، وسرت حرارة فى عروقى أقلقت أطرافى وأرجائى .. فإنتصبت راكضاً فى قوة ، مدفوعاً بثورة للتو هاجت .. وسيل من الأفكار السيئة إنفجرت فى رأسى ، وما إن وثبت عدة خطوات حتى إنطرحت فتكوم جسدى دون ألم ، كانت فورتى أكثر إيلاماً من جروحاتى ..

قمت ثانيا .. لأجد الخفراء متحفزين للإحاطة بى ، بيد أنى راوغتهم ، إنطلقت كرمح سمهرى .. أخترق الريح والزروع ، أستنشق الهواء البارد فى شراهة تكاد رئتاى أن تنفجرا ، لازلت أشعر بحاجة لمزيد من الهواء النقى .. ليجلى ما علق بصدرى من أتراح ، إجتزت الممشى العريض الفاصل بين قصرى أبى وعمى قاسم .. ثم إندسست فى الزراعات حتى غبت تماماً عن أنظار رجال أبى وخفراءه ، فراحوا كالبلهاء يبحثون عنى فى جهة أخرى .. رغم أنهم رأوا وجهتى ، ولربما كانت محاولة منهم لإعتاقى .. فأدهشنى أنهم تجاهلوا تماماً ما سيحيق بهم على يد هذا الظالم العتىّ ، بيد أن الأمر قد أصبح واقعاً .. لقد أضاعنى الطريق عنهم ، كانوا على مرآى منى .. وكأن سداً إنتصب بينى وبينهم ، غشيت أعينهم غمامة فلم يرونى ، لم أكن أعى إلى أين أركض .. جسدى يدفعنى دونما إرادة ، مدفوعا بنار فؤاد مضطرب وعقل متعثر .. تتضارب فيه أفكار لاهثة متخبطة ..

برزت من حقل ذرة بالقرب من السور الشرقى وإجتزت البوابة الرئيسية خلسة .. فلم يرنى حراسها ، ثم هرعت إلى الجسر الخشبى ، كانت قدماى تحلقا دون رقع مسموع حتى ناهزت الضفة الأخرى .

وكأنى عداء محترف ، هبط إلى الجرف الرملى .. وفى وثبة واحدة سقط جسدى إلى عمق القارب الراسى حزيناً بعدما فقد صاحبه ، حررت وثاقه وأمسكت بالمجدافين بقوة .. وطفقت أجدف وأجدف ، المجدافان يضربان الماء بعنف ويزيحان كتلته إلى الخلف فى غلظة ..

كأن بينهما وبين الأمواج ثأر بائت ، كنت أشعر أنى أزيح جبلين جاثمين فى عمق المياه ، أطرد زفيراً ثقيلا لأفرغ رئتاى من ملئها .. لأشحنهما بكتلة شهيق بارد يضاهى كتلة الماء المنزاحة ، الطريق طويل .. أقطعه فى وثبات يقفزها القارب ليحط مرتطماً بالماء فى غلظة وعنف ، كلما رفعت المجداف وضربت سطح المياه بكفته .. إنطلقت من صدرى صرخة كانت تملؤه ، لتُفرغ مكاناً لصرخة أخرى .

إندفع القارب محموماً إلى عرض الرَيَّاح.. دون تخبط أو إهتزاز ، أصاب وجهته رغم التيار الهادر .. لم يندفع يميناً أو يسار ، وعند منتصف شوط الرَيَّاح.. أطلقت المجدافين ، حررتهما من يدى بعدما فرغت شحنتى ، أو قل سكنت ، تثاقلت إلى قاع القارب مسترخياً .. أسندت رأسى إلى مؤخرته فارداً ذراعىّ ، راقداً فى سلام بين دفتيه .. حينها إنطلقت نافورة خدر إلى عمق رأسى .. بينما إخترق القارب الموج بمحاذات مصراعى الرَيَّاح ، دفعه التيار الجارى يزجه إلى حيث يركض ، وكأن سرب أسماك ضخمة يحمله ، فاسترخا جفناى وأوصدا أبوابهما فى نعومة .. وتدفق مزيد من الخدر إلى شراييني .. فإنسحب الوعى المكدود تحت إلحاح النوم ، إندك تحت أثقال النعاس المنعش ، هبت نسائم باردة فهوى جسدى لائذاً تحت أغطيه ثقيلة .. هارباً من الوعى والإنتباه ، ولازال العقل ينهض من تارة لأخرى مرغماً ينفض عن أديمة الغيوم .. بيد أن رغبه الإنفكاك من الوعى والإنعتاق من الادراك تهوى به إلى بئر من السكر والنشوة ،

لأعود فأدخل إلى نوبة نوم عميق يدفعنى دفعاً إلى الإغماء .. أسرع مما يندفع القارب إلى لا شيئ ..

لا أعرف كم من الوقت مضى .. حين أفقت من رقدتى فوجدت نفسى مسترخياً فى رحم الماء والليل ! ..

لازال الليل ثقيلاً يغطى السماء بوشاح أسود فاحم ..

أمعنت النظر .. ثمة شىء غريب ، أبخرة هلامية وخطوطاً سحابية تتصاعد من الماء حول محيط القارب .. تنبرم لتتجمع فى بؤرة بالسماء ، ربما أدخنة ، أمعنت فيها .. لازالت عيناى ذاهلتان تخوض فى رؤية ضبابية ، زادت كثافتها على نحو لافت .. فجلست مذعوراً أحملق فيها ، تجمعت الأدخنة فى حزمة مفتولة ثم هبطت إلى الأسفل حيث محيط القارب والماء .. وسريعاً تفرقت جدائلها وظلت تتراقص وتدور حول القارب إلى أن تشتت بؤرتها فى السماء ، تدفقت إلى كل حدب فى الأفق ، تذهب بعيداً ثم تكر راجعه بشكل دائرى تتناوب مع بعضها البعض .

طفقت أفرك مقلتاى فى توتر وذعر وأدور برأسى فأراها تدور حولى ، فى بادىء الأمر ظننت أنها أطيافاً وهميه أصابتنى من فرط التعب وقلة النوم .. إلا أنها لم تكن كذلك ، لم تكن وهماً ، فسريعاً ما تجمعت تارة أخرى وطوقت القارب الراسى فى منتصف الرَيَّاح ، حزّمته بضفائر دخانيه تتلون وتتبدل ما بين الأبيض الناصع والأسود الحالك وما بينهما ، ظلت تتسارع فى حركه دائريه حول القارب .. وما لبثت أن

جعلته يدور ويتأرجح ، وكأن يداً خفيه تتلاعب بدفته ، ثقلت رأسى تارة أخرى وضربها دوار شديد فترنحت قسراً إلى اليمين واليسار ، دار فى عينى كل شيئ .. المياه والاشجار ، الطريق ، السماء ، الجسر الرابض هناك .. أراه تارة ويختفى تارةً ، القارب يدور بسرعه جاراً رأسى معه ، أصابتنى دوخة ورغبة فى القىء ، بيد أن القارب ظل يتباطئ رويداً رويداً .. والدوار فى رأسى يزول شيئاً فشيئاً ، بدأت أترنح ، أتمايل ، أتراقص إلى جانبىّ حتى مالت رأسى إلى صدرى لبرهة ثقيلة ، لازال القارب يتمايل ببطئ ، ظل يترنح إلى أن رسى هادئاً على صفحة المياه باتجاه الجسر ، ظلت رأسى ساقطة تثقل صدرى قبل أن أقيمها جاهداً .. كأن كرة تدور فى عمقها ، تضرب عظام رأسى فتُميله إلى الجانبين قسراً ..

أفرجت جفنىّ بهدوء .. لازالت عيناى واهنتين يضربهما نعاس لحوح ، وثمة حرارة وإحتراق يعتملان فى عمقهما ، وبغتة إنفرج مصراعيهما رغماً عنى على مشهد مخيف .. إنكمشت له عظامى فتراجعت رهبة إلى مؤخرة القارب ، ثمة رأس مُشرئبة راسية عند حرف القارب .. تتكئ إلى راحتين على جانبيها ، رأس بدائية تحمل قسمات إنسان .. إلا أنها مغزوة بشعر كثيف من ذؤابتها إلى العنق ، ويدان أشبه بأيدى القرود ..

ظلت عيناى شاخصة لا أعرف كنه ما أرى .. بدا أى شىء إلا أن يكون انساناً ، ربما جِنىّ ! ، ساد صمت مريب لبرهة .. أحملق فيه

ويرمقنى بأعين فسفورية صفراء ، كاد قلبى يسقط منى .. يمزق بعضه بعضاً من الإختلاج والرهبه ، للتو توقف عقلى وإنعقد لسانى ، وعلى حين غرة غاص إلى الماء دائراً بجسده عمودياً إلى الإسفل ثم برز بنصفه العلوى .. بدا كرجل الغاب يغمره شعر همجى ، أمسك بدفه القارب من الأمام ثم مال إلى الخلف ليطفو بظهره على سطح الماء ، ظل يسحبه ويسحبه .. بإتجاه الضفة القريبة حيث دغل كثيف من النخيل ، وما أن رسى القارب عند حافة الشاطىء .. وثب من الماء إلى الجرف الرملى جالساً على صخرة واطئة ..

راعنى مشهده القبيح فتخلخلت ركبتاى .. كدت أبول رغماً عنى ، رباه ! .. ما هذا ؟ ، كان أمامى عارياً كما ولدته أمه .. إن كانت له فى الأصل أم ؟! ، طويلاً يافعاً ، بارح القوة بائن العضلات .. كرجل فى ريعان شبابه ، جسده مفرود محدد التفاصيل ذو لوح عريض وخصر رشيق ، وإستبان جلده رقيقاً ناصع البياض .. إلا أنه إستحال إلى هيئة مزريه بشعة ، منفرة .. بفعل غطاء الشعر الكثيف ..

وما أدهشنى أنه كان مكبل القدمين بأغلال حديديه ، تمتد أصفاده إلى الماء .. غائصة وكأنها موثقة بشىء ما فى العمق ، دققت فيه للحظة .. إنه محض انسان ! ، بيد أن ما تبدى عليه أخافنى وأفزعنى .. لم أر أحداً بهذه الهيئة من قبل! ، علاوة على تلك العينين الصفراء كعيون الذئب تخلع القلب من محطة ، وبعد صمت طويل .. نطق أخيراً أولى حروفه ، نظرنى سائلاً

- **لِمَ يغتمرك الفزع ؟ ، أخائف منى ؟! ..**

غص حلقى .. وتحشرجت الكلمات تخرج بصعوبة ..

- **ألا ترى هيئتك ؟.. تخيف أشجع الرجال ! ..**
- **هكذا كانت تفعل زوجتى ، تقول ذات الكلمات عندما تأتى لزيارتى كل عام ..**
- **تأتى لزيارتك ! .. أين ؟ ..**
- **هنا .. تأتينى هنا ، فأنا أسكن الماء ..**
- **حديثك هذا يريبنى ..**
- **لا تخف .. فأنا صديق إشتقت لرؤية صديقه ..**
- **ولكن ...**

فإقتطع حديثى ..

- **لِمَ الضجر ؟ .. ألم تكن هذه بغيتك ؟ ، ها أنت ذا مع من أحببت ، يحتضنك عالمك الأثير وتداعب أذنيك وشوشة الأمواج الهادئة .. ألم تحدث شمس الصياد وتبوح له برغبة كتلك ؟ ، سمعناكم .. كلنا سمعنا حديثكم ، ولكم نحن ممتنون لتلك الوجبة الدسمة التي أرسلها لنا القدر بصنيعة يدك ، عالم الماء كله يشكرك ..**
- **من أنتم ؟! .. وأي وجبة تلك ؟! ..**
- **أجولة القمح .. الليلة إمتلأت البطون كما لم تمتلئ من قبل ، كلنا يشكرك ..**

- إنك تزيد من روعي .. من أنتم ؟ ..
- نحن عالم الماء المنسي .. وأنا من تدعونه أنتم " المسحور " ..
- المسحور ؟! ، أتريد أن تقنعني أنك حقيقة ؟! ..
- وهل من شائعة إلا وكان لها في الأصل حقيقة ؟ ..
- ولكن ! ..
- دعك من هذا .. مرحبا بك فى عالمنا بعدما لفظك عالمك الأخر ..
- وهل أضحى عالماً أخر ؟!..
- هذه أيضا حقيقة ..
- تتشدق بلفظة حقيقة .. وكأن ما سواها زيف ، رغم أنى لم أتيقن قطعاً أنك فى الأصل موجود ، قد يكون شدة إرهاقى وتباريح جسدى ، وذهاب عقلى بقدر هم من هيئوك لى .. محض صورة رسمها خلدى تحت تأثير الجروح والإصابات .
- أى جروح تلك ؟ .. لم يعد بجسدك شىء ، ولا أقل من وخذة خياط ..
- ماذا ؟! ..

وتحسست جسدى ، تلمست جروح ظهرى .. لقد زال كل شىء ! ، ضربت براحتىّ فى أرجائى .. لا أشعر بألم ، كيف حدث هذا ؟! ، وكأنه حلماً أخر يضربنى بيد أنه ليس بكابوس ، رمقنى مبتسماً ..

- وها أنا ذا .. تأكد منى كيف شئت ، أنت فى واقعنا ولست فى

حلمك ..

- **إن كنت لا أحلم ، وإن كنت حقيقة .. أين أخى الذى غرق ولم نعثر على أثر له ؟ ، أين كل من غابوا فى المياه ولم يعودوا ؟ ، أين كل من سحبتهم إلى عمق الرَيَّاح .. وإبتلعتهم ؟ ..**
- **هه .. أنا أبتلع ؟! ، أبتلعكم ؟! ..**
- **نعم إن كنت حقيقة .. فأنت من إبتلعتهم ، هكذا قالت الجدات لنا ..**
- **الحقيقة أن معدتى لا تهضم لحومكم .. المُرة الظالمة ، جنسكم وجبة لا تروق لى .. أنا لا أقوى على قضم قطعة لحم واحدة منه ، فأنا مثلك أدمى ..**
- **أذهبت بصيرتى ! .. كيف تكون أدمياً وفى ذات الآن مسحوراً ؟! ..**
- **ذاك فى ذاك .. الأمر بسيط ..**

وعلى حين غرة .. إنسحب الرجل إلى الماء فى غلظة وعنف ، سحبته أصفاده الموثقة بساقية .. حتى أنه تعلق لبرهة قابضاً بيديه حزمة من البوص المزروع على الشاطئ ، نظرنى مرتاعاً يردد

- **سأعود إليك عما قليل ، لا تخف .. فقط إنتظرنى ..**

وغاص بعنف إلى عمق المياه ، أتسمع قعقعة أصفاده تصطفق بضراوة .. إلى أن خبا صوتها تماماً ، فطفقت أرج فى رأسى وكانى أنفض ما علق بها مما رأيته ، ثم خيم الصمت مرة أخرى .. ليس إلا فحيح

ونقيق وهفهفة وما شابه ، كل ماهو معتاد فى هذه الأجواء الليلية على شاطئ الرَيَّاح ، كأن ما رأيته كان محض حلم .. قلت فى نفسى " لا مناص أنى أخرف .. حقا أخرف " ..

تحسست ظهرى فينة أخرى فلم أتألم .. فعاودتنى الحيرة والدهشة ، إلا أنى لم أكد أرفع راحتى عن ظهرى .. حتى صعدت رأس الرجل شيئاً فشيئاً من الماء ، وتبدى طوله أمامى .. خرج من الماء وكأنه يرتقى درج سلم ، سار من العمق إلى الماء الضحل إلى الشاطىء .. ثم جلس على صخرته الواطنة بالجرف جاراً وراءه أذيال من أصفاد حديدية ..

أطرق للحظة ناظراً إلى الماء بالأسفل .. ثم رفع هامته ناظراً لى ..

- **عندى لك خبر أليم .. حدث بالكفر ..**
- **أكثر ماكان يؤلمنى هو مكوثى بين هؤلاء الزمرة الفاسدين ، لا يخصنى بينهم سوى أمى ؟ ..**
- **الأمر يخص أمك ؟ ..**

فإنتصبت واقفاً يضربنى فزع كالمصعوق

- **ماذا تقصد ؟ ..**

فلما رأى ما بدا منى .. إنتصب الرجل بدوره أمامى مذعوراً ، فناهضنى قائلاً ..

- **لاشىء لا شىء ، هى بخير .. هذا ماكنت سأخبرك به ..**
- **قلت خبر أليم ..**

- **لاتكترث فقط كنت أداعبك ..**

فتثاقلت فى محطى أتنفس الصعداء .. وتباطىء إختلاجى كقطار يشرف إلى محطة وصول ..

- **ولكن كيف تعرف ما يحدث بالكفر ؟ ..**
- **تنبو إلينا كل أموركم .. وكذا أنباء كل الكفور والنجوع المطلة على الرَيَّاح ، سرايانا بينكم تخبرنا .. نحادثهم كما أحدثك أنا الآن ..**
- **حسناً .. فهمت ، ولكن أرح عقلى فأنا فى شتات من أمرى .. كيف تكون أدمياً وتعيش فى الماء دون أن تختنق أو تغرق ؟! ، تقول لى أنك المسحور .. كيف هذا ؟! ، وهل ما حكته لنا الجدات عنك حقيقى ، أم أنه محض خرافه ؟ .**
- **إهدأ وستعرف كل شىء ، ولكن إعلم أنها أسرار الماء .. ومتى علمتها لا ينبغى البوح بها ، وإلا فإنتظر سخطاً أو إنتقاماً حتمى ..**

ترددت للحظة .. ثم قلت ..

- **لا .. لا تخف ، أنا كالبئر المصون أحفظ الأسرار ولا أبوح بها**

" ٧ "

بشنس

حسناً .. أنصت جيداً ، فستسمع أذنك للتو مالم تسمعه من قبل ، إنها حكاية العجب بعينه ! ، قديماً كنت آدمياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، رجلاً فقيراً معدماً ، عازباً .. لا أملك إلا ذراعى أعمل به وأكد لأتقوت ، كنت أعمل صياداً بهذا الرَيَّاح .. إلا أن شباكى كانت ضنينة ما زادتنى إلا فقراً على فقرى ، إلى أن أتتنى فى يوم إمرأة فى طور الأربعين بالقرب من المرسى .. أرملة ساحرة تتقوت من السحر المعقود ، ولما رأت حالى الرثة وحياتى الجدباء .. دعتنى إلى عمل أتكسب منه المال الوفير ، شريطة ألا أهجر عملى بالصيد ، وكان هذا العمل حفاراً للقبور .. لأجلب لها تلابيس الأسنان الذهبية لبعض من النساء والرجال المتوفين حديثاً ، كانت تحددهم لى سالفاً ..

ولسوء حالى وإختناقى بالفاقة والعوذ .. قَبِلتْ ، فكنت أهجع كل ليلة إلى القبور أجلب لها القطع الذهبية والفضية .. ظللت على ذلك عدة سنوات ، وما إن تحسنت حالتى ضقت ذرعاً بهذا العمل الملعون ، وذات ليلة كلفتنى أن أنبش قبراً ..

فقابلتها بالرفض والإباء ، فى آنها كنت قد تعرفت على فتاة بهية .. عشقتها عشقاً جنونياً وتزوجتها ، ولم يبد لى وقتئذٍ أن الساحرة بدورها قد عشقتنى .. وترنوا إلى الزواج منى ، وما إن تكشفت لى الحقيقة هجرتها وهجرت طرائقها .

وفى غداة يوم وأثناء وجودى بالقارب فى نوبة الصيد .. رميت بشبكتى إلى المياه ثم رفعتها بعد برهة فلم تجنى شيئا ، فرميتها الثانيه وصبرت .. فجاءتنى الشباك أيضا فارغه ، وفى الثالثة كانت الشبكة ثقيلة للغاية ، رفعتها بصعوبة .. فأسفرت لى عن سمكة ضخمه بيد أنها كانت ساكنة لا تتحرك ، وعندما ألقيتها بالقارب أحدثت صوتا مصمتاً ! ، فتحريتها .. فإذا هى حجر ثقيل مصقول على هيئة سمكة ، فحملتها إلى بيتى مستاءاً حزيناً ، وما إن ألقيتها فى صحن الدار حتى نهضت أمامى وتشكلت .. تهيأت لى فى شكل فتاة ريانة شهية فائقة الجمال ، وبدأت تتكلم ، ساومتنى على مضاجعتها لما بدى من إشتهائى لها .. على أن تمارس ذلك معى فى القارب ، كنت مُغيباً لا أدرى ماذا أقرر .. فقَبِلت عرضها ..

وبعد أن ضاجعتها لأكثر من ساعه زمن .. نظرتها ، فإذا بهيئتها تتبدل إلى جنيه قبيحة كثيفة الشعر .. محنية الظهر ، أخبرتنى بأن نعتها " العيوف أم الشعور " .. سخرتها لى الأرملة الساحرة بعد أن رفضت الزواج منها ، وتزوجت

بغيرها ، وأنها منوطة بإيذائى وأسرى مدى الحياة ، إنقضت على جسدى العارى فإنتزعتنى إلى عمق المياه .. مسحوراً مغيباً أسيراً ..
ومضت الأعوام تلو الأعوام .. وأنا على حالتى تلك ، تمسخ شكلى وملأ الشعر جسدى وتمددت لحيتى بشكل مخيف .. وطالت أظافرى حتى بت أشبه بقرد قبيح ! ..
وفى كل عام تأتينى زوجتى فى ذات اليوم الذى سحرت فيه .. تجلس على الشاطىء حاملة وعائين ، بأحدهما دجاجة نيئة وبالأخر دجاجة مستوية ، فإن أنا تناولت المستوية علمت أنى قد برئت من السحر وسأغادر معها إلى المنزل .. وإن أكلت النيئة تعلم أنى لازلت أسيراً للجنية " العيوف " .
كنت أقفز من المياه وأجلس أمام الوعائين ، بيد أنه وفى كل مرة ، ولأعوام مديدة ، لا أتناول إلا الدجاجة النيئة .. فتخلى زوجتى سبيلى مقهورة حزينة ، بينما أثب أنا إلى المياه حيث كنت ، ومن آن لأخر أتلصص فى الليل الدامس هارباً .. لائذاً بالشطوط المهجورة التى لا يرتادها بشر ، إذ أنه لا يتسنى أو ينبغى لى الظهور أمام أحدهم فيتكشف أمرى ، أو نهاراً فتحرقنى الشمس بنارها ونورها .. فلقد صرت من أبناء الليل ، وعندما كان أحدهم يرانى كنت أثب متخفياً إلى العمق .. فيظن أن مارأى لا يعدو كونه محض وهم أو طيف .

وهذا هو سرى .. لا يعلمه أحد سوى زوجتى ، وأنت بالأخير ..

مكثت أحملق فيه ، مشدوهاً فاغر الفاه ..

- **لم أكن أتخيل يوماً أن يطرق آذانى شيئاً مما سمعت .. أو يملأ عينى هذا الذى أرى ! ، لم يرقى لتصورى يوماً أن بدنيانا شىء كذاك ! ..**
- **صديقى ، ينبغى أن أنبهك للمرة الثانية .. لا تبوح بأيٍ من الأسرار التى سمعت بها الأن ، أو ستسمع لاحقاً ..**
- **ألازال شيئ باقٍ لم أسمعه ؟! ، هل ثمة ما هو أغرب من ذلك ليقال ؟! ..**
- **طالما ولجت عالم الماء .. فستسمع وترى الكثير مما سيأتى نبأه تباعاً ..**
- **أرى ؟! ..**
- **نعم سترى مالم يخطر لك يوماً على بال .. فقط الكتمان ، كن صديقاً أميناً كتوماً ..**

حينها غشيتنى لحظة صمت غريبة ، فشخصت عيناى إلى أديم المياه والأفق المظلم هناك بعيداً قبل أن تقطع سرحتى القصيرة قعقعه أصفاد الرجل وأغلاله ، كانت تهتز بعنف ، وكأن شيئاً ما يجذبها من الأسفل ، من العمق ، فشعرت بإرتياع شديد ، ترى إلى أين تنتهى تلك السلاسل الحديدية ؟! .. وماذا يحركها ويشدها على هذا النحو

حتى تتبدى صلصلتها ضاجة هكذا ؟! ، كان ذلك من جملة أسئلة إهتاجت بغتة فى رأسى ..

ظلت الأصفاد تهتز بعنف وتنجذب إلى الأسفل .. حتى أن الرجل إستقام لاهثاً يقبض عليها بيديه يشدها لأعلى ، قائلاً ..

- **أنصت لى .. فحان وقت ذهابى ..**
- **إلى أين ؟! ، مالذى يشد الأصفاء بهذا الشكل ؟! ..**
- **لا مجال لأخبرك .. إنتهت نوبة مكوثى ، لاحقاً سأوفيك بكل شىء ..**
- **أنصت لى جيداً ، يؤسفنى بأن أعلمك بأن هناك خبر جد أليم .. لم أكن أمازحك كما قلت ..**

فتشنجت عضلات قدمى ..

- **ماذا جرى ؟ لأمى؟ ..**
- **لقد ماتت ..**

فإنتفضت من محطى مذعوراً ، بينما إنسحبت السلاسل من القاع بعنف .. فأسقطت الرجل على ظهره متأوها ، مسحولاً إلى الماء ، غاص فى لحظه .. إختفى وكأنه لم يكن موجوداً ، أما أنا فلقد ذهبت فى روع مهول ، إنقبض جأشى وثارت فورة فى جسدى .. فتهدلت أوصالى وهويت متثاقلاً إلى قاع القارب ..

- **ماتت أمى ؟! ..**

ظل الخبر مطيوراً يلتج فى رأسى ويضطرب فى صدرى .. يوقفنى

تارة ويجلسنى تارة ، لأنطرح بنهاية الأمر ، كلما أثقلنى الهم .. قلقلنى الفزع ومكثت أحملق فى أرجاء الماء ونواحيه ، لازالت الصدمة تضربنى .. وعقلى يمجها مجاً عنيفاً ..

- **كيف ماتت ؟! ..**

لازلت أرفض والواقع يؤكد ، والذاكرة تنفجر بمشاهدها وأحداثها لازالت دموعها على وجنتى لم تجف ، وصراخها يملأ أذنى ، قسماتها المصروعة فزعا لازالت فى عينى ، ماتت لأجلى ! .. عبرت لى عن حبها بأقسى الطرق ، ماتت ! ، تلك هى أمى التى طالما بحثت عنها .. وجدتها فماتت ! ، أى بشر يتحمل هذا ؟ ، وأى جوهر هذا الذى لا ينجلى إلا بعد شقاء وعذاب ؟! ، أمى كانت كاللؤلؤة التى تكونت فى أحشاء القواقع .. عندما إنسحقت وتقطعت ، وتُركت ليجمدها اللهيب .. بان معدنها ، لؤلؤة براقة ! .

إندك قلبى دكاً تحت هزات الخبر .. لازال صوتها يدوى فى عمقى دوياً مجلجلاً ، يعلو ، يتردد .. يتضاخم فيتضاخم صداه ، لاح ظلها فى كل شىء .. فى الماء ، فى الأفق ، الأشجار ، الجسر ، الطريق ، شواهد الكفر ، البوابات الرابضه هناك بعيداً .. وكانت صورتها أخر ما رأت عينى ، ثم أظلمت الرؤية بغتة ..

ربما إنغلقا جفناى ، تحسستهما .. لازالا منفرجين ، حملقت ، حددت النظر .. لا زلت لا أرى شىء ..

حينها ذرفت عيناى عبرتين هزيلتين ، ضريرتـين ، وكان هذا ما تبقى

من بصرى ..

- **ماتت عطامينو ..**

وإنفجرت عيناى بدموع حارقة ، شعرت بها وكأنها أمواج تنفر من بئر مظلمة ، للتو فقدت حبيبتاى .. أمى ونور عينى ، هذا فى ذاك وذاك فى هذا ، ماتت واهبة نورى .. فانطفأ كل شىء ، لأعيش مكلوماً ضريراً مدى الحياة ..

لا أعرف من أبكى ؟! ، ليتنى كنت مخلصاً قدر إخلاص عينى .. ذهب نورها وقتما نضب معينها ، حزنت أكثر منى ، تأثرت أكثر منى ، تجاوبت أكثر منى ، هى لم تبك .. بل تقهرت فأظلمت ..

لم تنتظر ، لم تندم ، لم تعى ، أفنى الحبيب ذاته بذاته .. وقتما مات حبيبه ولازال فى روحى الرخيصة .. رمق من الحياة ! ..

" ٨ "

كياك

أفردت الشباك على أديم المياه لا أرى أخر مطافها .. ولكنى أشعرها ، يخايلنى مرساها وقدر إغتمارها .. تأتينى بمخبرها ، أُذنى كردار ترصد مداها ..

آنها ضربنى دوىّ وإندفعت رقعة مياه لأعلى فإنتدى وجهى برذاذها ، لقد إخترق أحدهم سطح الماء صاعداً من العمق .. كان صديقى " المسحور "..

إلتفت بأُذنى إلى جهة رسوه على الشاطىء .. ثم لويت عُنقى سريعاً صوب المياه حيث مرمى شبكتى ، فأتانى صوته ..

- **أراك قد تجاوزت أزمتك .. لم يُمِتْك الترح والحزن .**

فقلت دون أن ألتفت ..

- **هكذا أوصتنى أمى .. ألا أنسحق تحت دكات الهموم ، أن أخفض رأسى للموجة العالية دون أن أستسلم ، أوصتنى ألا أناطح الزمن ..**
- **كلنا أحببنا عطامينو .. وبكينا فراقها ، بكيناها لأجلك .**
- **وبماذا يفيد كل ذاك ؟ ، على كل حال أشكرك .. أشكركم جميعاً ..**

وتسمعت بغته إنبثاق رقعة أخرى من المياه .. أتانى رذاذها ، ربما إنسحق المخلوق لأسفل ، فإلتفت صوب الصوت ..

- **لا تغادر الآن .. فمنذ أيام وأنا أتوق لمحادثة أحدهم ، الوحدة والإهتمام قتلانى ..**

حينها جاءنى صوت عراك على الشاطىء .. وعلت صلصلة الأصفاد ، ثمة صوت أخر يتحدث ، صوت رخيم أجش ، شائخاً .. فيه بُحة متهدجة ..

- **لا تراوغنى ثانياً وإلا أزهقت روحك .. فلم تعد ترى الشاطىء مرةً أخرى ..**

وسمعت المسحور يتمتم بصوت مغتاظ ..

- **لعن الله اليوم الأحلك الذى ضاجعتكى فيه .. لن أنساه ما عشت ، لا أتخيل أنى إحتضنت هذا القبح وإلتصقت به يوماً ما .. لعن الله ذائقى المشوهه التى إستساغتكى .**

حينئذٍ قلت ..

- **العيوف ؟ ..**

فأجابنى ..

- **هى بعينها .. جنية عجوز شمطاء ، حولاء .. تفوقنى قبحاً ومسوخاً**

فشعرت برعدة فرقٍ ..

- **سلام قول من رب رحيم .. صف لى هيئتها ..**

- **لا تعرضنى للحرج .. فهذا مالا أتحمله ، كفانى قبحها يملأ عينى ليل نهار ..**

فصاحت العجوز بصوتها الرخيم .. أشبه بنبرة محتضر ..

- **أنا هنا من يتكلم .. ولا صوت يعلو فوق صوتى ..**

فوجهت حديثى لها ..

- **لا ضيم .. صفى لى أنتى هيئتك ، أريد أن أراكى ، أقصد أتخيلك ..**

وهنا علا صوت المسحور ..

- **أرجوك ، إنها ثرثارة للغاية .. إن بدأت حديثاً لا تكف أبداً عن الكلام ..**

ويبدو أنها جذبت أصفاده .. فقد إخترقت قعقعتها أذنى ..

- **قلت أنا من أتكلم .. إحذروا غضبى ..**

فجاوبها هازئاً ..

- **أبدعى أيتها الشمطاء ..**

فسحبته من أغلاله حتى هوى على ظهره متألماً خرساً ، بينما تحدثت هى بنبرة حادة .. وكأنها فى طور العشرين ..

- **فتاة غضة بضة ، ممشوقة القوام ، فائقة الجمال .. لى شعر أسود طويل كالليل ، تضاهيها حبة عينى ، ووجه وضاح كالبدر .. ولك أن تتخيل ما بقى من مفاتنى ..**

وهنا إنفجر المسحور ضاحكاً فى نوبة هستيرية ، إذ لم تكن إلا عجوز

قبيحة .. جسدها نحيف ممصوص ، عار ، تتبدى عنه مفاصل وعظام دقيقة ، محنية الظهر مطأطأة الرأس ، شعرها أسود فاحم .. غزير مرسل إلى الأرض من ذؤابتها حتى قدميها ، تنظر بأعين ممسوحة مخيفة ، يعلوها شعر كثيف كغيلان الحكايات ، ولها قتب قبيح بين منكبيها ..

لم يكن من الصعوبة بمكان أن أتخيل مسخ كهذا .. خال لى ما يشابهه ، أثارت ضحكات المسحور الساخرة غضب العيوف .. فسحلته على ظهره للمرة الثانية ثم وثبت إلى دفة القارب ، حاولت إرهابى .. على إثر إنفراج شفتاى بإبتسامة خفيفة جراء هزئه بها ، غير أنى يممت وجهى صوبها ..

- **ليس بسبيل لإخافة ضرير ، فمهما تضاحمتى أو تقزمتى فلن أراكى .. لن تُثيرينى ..**
- **ليست العين وحدها مولج الرُّهاب .. لك أُذن تسمع وجلد يشعر ، وخلد يتخيل وقلب ينقبض ، لن تزهد حيلتى فيك ..**
- **تخيلت فيكى كل شىء .. بيد أنى لم أتخيل ضعفاً تثيره محض إبتسامه ، يؤسفنى أن أسيرك هذا أكثر جلداً منكى ..**

فنطق المسحور متذمراً .. يضطجع على ظهره مستنداً إلى ساعديه ..

- **لا تقحمنى فى جدالكما هذا .. فأنت بحق لا تعرفها ، إنها تفوق كل ما تخيلت .. وأسيرها زهدت حيلته فى مراوغتها ومحاورتها ..**

فوثبت العيوف من الدفة راسية على صدر الرجل حتى تحشرج وبات يتنفس بصعوبة ، نعرت كعجوز ماجنة ..

- **" ليلى " هذا إسمى .. ونعتى ليليت ، جنيه أنثى ، فى غابر الزمن كنت وأختى " نعمه " نخطف الأطفال المولودة من مهادها .. فنخنقهم ، فعاقبنا الله بقتل مائة من أطفالنا كل يوم .. فجوبنا الأراضين فى سعر نخنق الأطفال بشراهة ، ونغوى الرجال النائمين فرادى .. نضاجعهم ثم نقتلهم بمص دماءهم ونهش أجسادهم ..**

ثم وثبت إلى الجرف وطفقت تذرعه جيئة وإياباً ..

- **لطالما طوفنا نهتف فى الليالى الظلماء ، وفى العتمات وغيبة الإدراك ..نتحسس الجدران والدور المأهولة بناسها ، نطرق الأبواب .. وما إن يفتح أحدهم حتى نخطفه ونطير به إلى الخرابات ، نطوف به البحار النائية والفيافى القفراء ، لم نجذع أبداً أن نلقى الرجال الأشداء والنساء الفاتنات إلى ظلمات القبور المفتوحة .. لنغلق عليهم الأبواب مخلفين الصراخ والفزع ..**

وبينما كانت تهتف إنسحبت من يدى الشبكة .. فإستدرت لأخرجها من الماء ، فضجرت أنى لم آبة بحديثها .. فجذبت الأصفاد بعنف حتى إرتطم المسحور بجذع نخلة عتىّ ، فصرخ متأوهاً ، بينما إستأنفت هى حديثها ..

- **أنا السعلاة ، النداهة ، قرينة الريح ، العيوف أم الشعور .. ولى ألف إسم أخر ، لا يقوى على رهبتى رقىٌ ولا أحجبة ولا معوذات وتمائم ، آتى الخوارق والملغزات .. وتستوى عروشى على الماء ، خلق آدم من أديم الأرض وخلقت من نارها ، أنا ربيبة إبليس وحليفة الحية والمرأة ، يعادينى الرجل .. وبالنهاية بعضنا لبعض عدو ، عوقبت حواء وبناتها بحيض شهرى .. لتوحدها مع بنى جنسى وغوايتها لآدم ، فطردنا جميعاً من الجنة ! ..**

ثم إقتربت من القارب ، جاءنى فحيح وثبتها على دفتة .. ونقر أرجلها النحيفة على خشبة ، ثم عادت إلى المرسى راكزة على أمشاط قدمها ..

- **فوق كل منفوس ومنحوس وموسوس ومسحور ، وسائلى هى الدم واللبن والخمر والنار والعقد ، ومضجعى الأركان والخرابات والمواطىء المهجورة ، والليل وموارد المياه ..**

وهنا ساد الصمت لبرهة .. فعلمت أنها قد أنهت حديثها ، فلويت عنقى نحوها ..

- **أما بقى من شىء لتتحفى مسامعى به ، وما الجديد ؟ ، منذ مهدى وأنا أعلم عنكى كل هذا .. كما يعلم أكثر بنى آدم ..**

فندت تنهيدة حارقة كاللهب ..

- **لولا سلامك سبق كلامك .. لأكلت لحمك قبل عظامك ،**

تحيرنى بديهة طفل فى سنك .. تؤثرنى جسارة كتلك ..

- ليست بجسارة .. إنها محض قناعة ورضى ، وقليل من المعرفة
- وما رأيك فى مزيد من المال ؟ ، أما لك غاية فى أن تتزوجنى .. وسأهبك كنوز قارون وملك سليمان وجمال يوسف وبصيرة ابراهيم النبى ..

فإنفجر المسحور ضاحكاً للمرة الثانية .. حتى أن بطنه ظلت تعلو وتهبط فى تسارع ، فمال إلى جانبه يند عن صدره شرقة مكروبة .. أقامته جالساً عنوة ، فنظرت إليه شذراً .. بينما قلت أنا

- أتعرفيننى حتى تقدمى لى عرضاً كذاك ؟ ..
- أعرفك منذ أن إنطلق فمك بعواء كعواء جراء القطط ، منذ مهدك ، وهل يفيدك ذلك فى شىء ؟ ..
- إن كنتى تعرفيينى .. حتماً كنتى ستعين أنى ربيب ترف وعز ، لا يثيرنى شىء من ملذات الدنيا ، ولكن مالى أراكى قد زهدتى فى بنى جنسك ؟ .. أليس منهم ملاح حِسان ؟ ..
- أنا لا أنتخب الملاح الحسان .. لا تروقنى أصنافهم ، فقط هى الجسارة والبصيرة النافذة تأثرنى ، ولكن لازال أمرك يحيرنى ، بت لا أعرف إن كنت جد حاذق أم تتحزلق ؟!
- دعكى من هذا .. عندى لكى عرضاً أخر ، مابالك حيال صديق ضرير .. يبحث عن أصدقاء ؟ ..
- صداقة ! ، هى بالنهاية خطوة ..

ثم أطرقت للحظة مبتسماً .. أتحسس حافة القارب ..

- **أترون سخرية القدر ! ، بالنهاية رفقتى مسحور وجنية !**
- **أترى فى رفقتنا مثاراً للسخرية ؟ ..**
- **لم أقصد ما فهمتى .. هى محض مزحة ..**
- **وهل تضاهى رأسى برأس هذا الفسل ؟! ..**

فنطق المسحور ساخراً ..

- **عجباً ، تقولين رفقتنا وتسخرين منى .. ألم تنظرى يوماً فى مرآة ؟ ..**
- **وهل كانت صورتى تلك خافية عنك فى أول لقاء بيننا .. حين سال لعابك على خصرى المنحول وردفاى المكتنزان ..**

ثم جذبت الأصفاد بعنف .. بيد أن المسحور إنتصب أمامها قابضاً عليها براحتيه قبل أن ينسحل مقلوباً على ظهره ..

فنافحتهما قبل أن يطول عبثهما ..

- **دعكما من هذا السجال السخيف .. ولنتفق أن نتعاطى معاً كأصدقاء ..**

فأمسك المسحور ببعض أغلاله هازئاً ..

- **وما بال تلك الأصفاد المقتية ؟ .. أهى إحدى مبادىء صداقتنا ؟! ، أم يخال لى ذلك ؟..**

فنظرته ملياً

- **وهذا ما ليس لى طاقة به ، سأعتبركما أصدقائى سواء أكنتما**

صديقين أم عدوين .. ولنتفق على هذا ..

فتذمر المسحور وطفق يتمتم فى سخط بعبارات ملغزة .. فلم آبه بتهتهته ، قلت ..

- **أريدكما أن تعضدانى فى النيل من هؤلاء القوم الطغاة ، كفر يَمَـان ، ثأرى معهم شديد ..**

فقالت الجنية

- **أهى صداقة .. أم علاقة تجر ورائها أرب ؟ ..**
- **ولم تتلقيان الأمر على هذه الشاكلة ؟ ، هو فقط معروف بحق الصداقة ستسديانه لى**
- **وهل تعتبر النيل من قوم جبارين كهؤلاء محض معروف ؟! .**

وهنا قال المسحور ..

- **إنهم آلك وعشيرتك .. ألا تتذكر لهم صنيع جميل ؟ ..**
- **حديثك يوجع قلبى .. يثير جراحاً لازالت نابضة ، فلا تنطق به ثانياً ..**

فقفزت الجنية أعلى الجرف الرملى .. يأتينى صوتها مدوياً ..

- **أما أنا فسأثير عليهم الأرض بهوامها ، والرَيَّاح بمروعاته وغرائبه ، سأقلب ناسهم بعضهم على بعض ، أسير بينهم بالفتنة .. وأنشر رصد لا حيلة لهم لمجابته ، ولا قوة لصده**

فوثب المسحور بدوره إلى مقدمة الدفة .. فتدحرجت الجنية وتكومت على المرسى ، فنهضت لتوها تجذب الأصفاد .. فأنكفأ

المسحور على وجهه مرتطماً بخشب القارب ، كانا كدمتين يشد بعضهما البعض فى سذاجة مبرحة ! ، غير أن المسحور إستقام بالأخير مُقيماً راحتيه أمام صدره ، معتذراً ..

- **لم أقصد ..**

ثم لوى جسده نحوى هاتفاً ..

- **وأنا سأنقل لك أنباء قضهم وقضيضهم ، لن يمر نهار إلا وتأتيك أخبارهم تباعاً .. قبل دلوك شمسه ..**

" ٩ "

برمودة

كرت الأحوال ما يعدو نيف وعشرون عاماً .. ولازال حال الكفر كما هو ، بغى وصلف وقسوة وغناء فاحش ، لقد حذا أبى حذو أسلافه العصاة ، كان أمامه فرصة أن يعيش سيداً كريماً .. ورأساً على قومه يحكم بالعدل والبصيرة ، وكفاه فى ذلك أن تسيد الأرض والمال والعباد ، كانت قسمته أمامه .. بيد أنه تخير قسمةً أخرى ، قسمة مكرورة .. يؤمر فيها المترفين أن يفسدوا فى الارض ، كان مشدوهاً بسلطان القدامى ، القسمة ذاتها ، والحظ ذاته ، وعقل لم يكتسب مناعة الأيام .. أصابته ذات الأمراض دون أن يعى الدرس ، أو يفطن إلى منحى الطريق ، جاءته الكثير من العلامات تحذره وتنبهه ، بوار الأرض ، جفاف الرَيَّاح ، نضوب البئر ، طقوس الدم والقرابين البشرية ، إندثار العلم والحكمة .. ذات اللعنات والكوارث ، ولازال يمارس ذات النهج فى عناد وعنجهية ، وفى ذلك فلا أقبح من الحمق فى أزمان الكوارث .

فى تلك السنوات توشح الكفر بوشاح قاتم من الظلم والإفتراء .. وتغصن بطبقات سِماك من اللامبالاة وعدم الاكتراث ، سحق سادته هموم التعساء .. إستهانوا بدماءهم وإنتشوا بدموعهم ، حتى باتت سنوات بعينها شاهد عيان على قمع الانسان للانسان ..

خلال عشرون عاماً .. جاءنى ما هو كفيل ليوصد الطريق بينى وبين أبى ، وصداً أزلياً ، فلقد زادنى مقتاً على مقتى .. وأفرج جراح لا تندمل ولا تشفى ، كان أولها عندما علم بأمر مكوثى فى قارب بالرَيَّاح .. كشريد فقد آله جملة واحدة ، فلم يأبه ولم يبال ، غير أن أكثر ما أدهشنى فى ذلك أنه برغم بغضه لوجودى الذى يحيى داخله ذكرى جريمته العظمى تجاه عمى صبيح ، وشبهى الصارخ به .. لم يبعث من يقتلنى ، ظننته فى بادىء الأمر سيفعلها .. إلا أنه لم يفعل ! ، ولم أجد تأويلاً لذلك إلا أن القدر إنتصب حائلاً بينى وبينه تارة أخرى ، أوقف قراره فى غيبة من الإدراك ، تاه فى إثر لهاثه وراء الجاه والسلطان .. لأنتصب أنا له منغضاً ومكدراً ، أذكِره بما إقترف من موبقات ..

علمت أنه لم يهتز لموت أمى .. لم يحزن أو ينصدم ، ذهبت هى وأيامها فى طى النسيان .. وملهاة الأشغال والأمور ، ولم يذرف دمعه لكونى أصبحت كفيفاً .. وحيداً فى قارب تائه على ضفاف الرَيَّاح ، لم يسأل يوماً كيف لطفل ضعيف بهذه الظروف أن يتقوت؟! ، كيف يقيم ذاته ؟! ، لم يسأل عن شيئ من هذا وغيره الكثير ، مارس حياته دون إكتراث .. الإشراف على نتاج الأطيان ، إذلال العبيد والخدم ، قمع كل من تسول له نفسه أن يقف أمامه مناهضاً ، لقد إستعاض بكل هذا عنى وعن أُمى ... وقسمته فى هذا بدت أوفر حظاً ! .

أما أنا ، ورغم ذلك لم أنسحق فى طيات هذه الأقدار .. فلقد بذلت لى

أجمل صنائعها وأبدع معروفاتها ، نظرنى الله برحمة لم أعهد لها مثيل .. يأتينى رزقى وقسمتى كل يوم فى حينه ، أنام وأصحو لأجد بقاربى ثمرة من أجمل زروع الأرض ، ولا أذكر يوماً أنى تقوت بأى من كائنات الماء .. السمك وما يضارعه ، وهذا عهدى معهم ، لم أتعجب يوماً للطف هذه الأقدار معى .. فلقد كنت عابداً شاكراً ، أدرك أن أكف الرحمن تحتى وفوقى ترعانى وتعنى بحوائجى .

ولقد صدق المسحور يوم أن قال " طالما ولجت عالم الماء سترى وتسمع مالم يخطر لك يوماً على بال " ، وقد حدث ، فبين دفتى الرَيَّاح إطلعت على الكثير من أسرار المياه ، وكل يوم كان يأتينى بخبر ، وفى ذلك رد لى الله بصرى مرات ومرات .. كلما أوجعنى الأمر ، وبه رأيت أطياف الغرقى .. والقرابين البشرية التى نحرها ناس الكفر على ضفاف الرَيَّاح لصد الرصد اللعين ، شاهدتهم بأم عينى يقيمون المحاكم لزاهقى أرواحهم ظلماً وعدواناً ، باشرت أسراب الدواب وهى تسير أعلى الجرف .. وما إن تتكشف تثب فارة إلى المياه ، ومنها ما كانت تصعد خلسة فى الليالى الجاهمة إلى الشاطئ المهجور ، وبعضها جاورنى دفة القارب .. وحدثنى ، ولكم راعتنى الأصوات الناعرة أتية من عمق الرَيَّاح .. وكأنها أبواق إسرافيل ! .

وأذكر أنه فى يوم قيظ شديد اللفح .. إرتقى من الماء جرماً عظيماً فى هيئة إنسان خرافى .. أخبرنى المسحور بعدها أنه " مارد الماء " ، جنى عظيم ، صعد إلى الشاطئ طوله كجبل يطامن السحاب ، ثم مرق

مهتاجاً إلى غيط كرم .. يتلظى من العطش والجفاف ، حينها نظره صاحب الأرض فزِعاً مرتاعاً .. يصعد بعينيه من أخمص قدمه فلا يشارف أنامل راحته ، وبغتة مال المارد بقامته صارخاً فى وجه الرجل

- **إرونى .. إنى ظمأٌ ..**

فأشار له الرجل إلى شجر الكرم .. فإضطرمت فيه نيران خفية لا يعرف من أين أتت ، ثم إختفى الكائن الخرافى بعدما إحترقت الأرض وتفحمت أعوادها ..

لم يكن ما رأيته وهماً أو حلم ، كان واقعاً عشت فيه وعاش فىّ ، ودون غيرى باشرته بلا فرق أو جزع ! .

وكثيراً ما راودنى سؤال مكرور ، لماذا يتعلق بنى آدم بكل ما هو غائب ؟! ، ولماذا هى الأشياء الغيبية مدعاة لإهتمامه فقط لكونها خافية ، أكثر من شغفه نحو حقيقتها ؟ ، فمتى أضحت هذه الأشياء خافية مجهولة .. شدهت الأعين وفغرت الأفواه ، وتاقت الأنفس لسبر أغوارها وخوض غمارها ، لماذا نشعر أن هذا المجهول يتحدانا ونتحداه ؟! ، يهاجمنا بالخوف والرهبة ونناهضة بالرغبة والجسارة ، لماذا ؟ ، حينها فقط عرفت لم يقولون أن الإنسان عدو ما يجهله ، كما أدركت حقيقة هذا الدأب المحموم لكشف أستار الغيب ، وما خُبئ ورائها ، ورغم ما باشرت على ضفاف الرَيَّاح لم أكن فى منأى عن ناس الكفر ، فقد كان الأهالى يمرون دوماً بمرساى حتى بت معروفاً لأكثرهم ، كنت أتسمع خطاهم وحديثهم ، همساتهم عنى .. وعن

حقيقة إستمرائى للعيش وهنائى المبهم فى قارب تائه بالمياه ، بلا أهل ولا أنيس ، وكيف لم أستوحش من الوحدة والبين ، ولطالما كنت أضحك كلما جائتنى عبارة أسف أو مواساة ، وكثيراً ما طرق النساء الرائحات إلى الشاطىء لغسل أوعيتهن مسامعى .. بسؤالهن المعتاد ..

- **لماذا لا تأكل السمك ؟ ..**

فأجيب مداعباً ..

- **أنا لا أكل ما تجنيه يدى ..**

فنعتونى حينها بـ " صياد الرَّياح ، أو الرِياح " ، أما عن علة ذلك النعت بينهم .. فلا أعرف له أصل ، ربما لمكوثى الدائم فى قارب فى عرض الرَيَّاح وإستخراطى به ، فلا أنا أغادره .. ولا هو يلفظنى ، وعل الاسم فى أصله " صياد الرِياح " .. لمعتقدهم بعدم جدواى ، إذ لم يرونى يوماً أصطاد شيئاً ، أو لأنى أرمى بما أصطاده إلى المياه تارة أخرى .. وكأن شيئاً لم يكن ، ففى معتقدهم فإن شباكى لاتلتقط إلا خواءاً .. فرصاً ضائعة لا رجاء فيها ، أنثر سِنى عمرى وأرمى بشباكى لتأتينى خاليه .. فى محاولة عابثة لإصطياد شىء ذا قيمة ، أو لأن نسمات الرِياح توافينى .. فتتسلل هاربة من ثقوب الشبكة فى كل مرة أنشرها ، غير أن هذه الأشياء كلها رؤاهم هم .. الصورة التى أرادونى عليها ، فلم يرونى إلا جزءا منها ، أما أنا فكنت شيئ أخر لم يستطيعوا يوماً فك طلاسمه .

"١٠"

هاتور

فى الغداة ، وقف الجيوش بأعلى نقطة بقصرة ، فى قاعة وثيرة ، مكشوفة .. تعلوها ثلاث قباب ، قبه وسطى مسلوبة لأعلى .. تجاورها إلى الجانبين قبتين مقعيتين ، ينتصب إلى يمينه إبنه ناصف " الوليد التالى بعدى " .. يمعن النظر إلى صعيد الكفر من أعلى ، رمق أراضيه وأطيانه مشدوهاً ، بقعه شديدة الإخضرار .. ترعى فيها مئات الرؤوس من الجاموس والأبقار ، أشار بطرف بنانه صوب أرض الوادى الخفيضة .. إلى الشرق من شاطىء البحر ..

- **أترى يا بنى ؟ ، هذا ضريح جدك يَمَـان .. وهذا بئره ..**
- **حقاً يا أبتى ، لقد فاق عدد مريديه .. قاطنى النجوع المجاورة**
- **يوماً ما .. ستضحى سيداً على رؤوس هذا الكفر ، فتذكر دوماً أن جدك وضريحه هما عز سيادتك .. وشرف عائلتك ، وما حققناه من مجد .. إنما هو بمباركتة وعنايتة ، ودعمه الذى لا يحيد عنا ..**
- **يراودنى سؤال يا أبتى ..**
- **سؤال ! .. وما هو ؟! .**
- **كيف حققت لأرضنا تلك الرفعه والشرف ؟ ..**

فحدق الجيوشى بقبة المقام الرابض بقلب الوادى

- **إذا أردت أن تمد درب أبيك .. فخذ عنى تلك الكلمات وضعها دواماً نصب عينيك ، ولا تحيد عنها أبداً**
- **كلى آذان صاغية يا أبتى ، أعدك بأن أسير على دربك .. وأحذو نصائحك ..**

فلوى الجيوشى عنقه صوب بيوت العبيد والعامة

- **إجعل عقلك قبل لسانك ، ولسانك قبل يدك ، ويدك قبل سوطك ، وإذا حكمت فلا تلن .. ولا تذعن لأى معتقد يقف فى طريق مجدك ، حتى وإن كان معتقد عشيرتك ! ، إقبض على لجم العباد وأقواتهم تتحكم فى مصائرهم ، وإعلم أن الحجر المتحرك لا ينبت عليه عشب .. فلا تكن ساكناً حتى لا يستخدمك آلك ، كل خردلة تزن بها انساناً تسقط من وزنك أكيالاً .. فلا تعن بأحد ، مهما بدا عظيماً أو حقيراً ، كن دوماً قلعة من الغموض ، فالصراحة لا تبهر إلا عشرات الناس .. أما الغموض فهو الطعام المفضل عند الملايين حتى وإن كان مسموماً ، كن مخزن أسرارك .. ولا تكــــ ...**

وهنا دخل أحد الحراس .. يستأذن فى ولوج قاسم " الأخ الأصغر للجيوش " ..

- **أدخله ..**

فخـرج الحارس وفى إثــره ولج قاسم مطـرقاً .. تبدو عليه عـلامات

الأسى ! ..

- **أخبرنى أحد الحراس بنبأ سيئ ..**
- **أخبرك أنت ؟! ..**

فأومأ الجيوشى إلى أحد حراسه بالخارج .. فدخل ..

- **أحضر لى الحارس الذى سيخبرك قاسم بإسمه ..**

فأعلمه قاسم بإسم الحارس ، ثم نظر إلى الجيوشى الذى إبتدره ..

- **أى نبأ ذاك ؟ ..**
- **لقد صحا العمال على مشهدة غريبة ، هاجمت أفواجاً كثيفة من جرذان عظيمه الجرم ليلة أمس مخازن الغلال .. فأكلت كل ما بها ، أبادتها عن أخرها فى ليلةٍ واحده ..**

وهنا دخل الحارس صاحب النبأ ، فواجهه الجيوشى ..

- **ماذا حدث ليلة أمس ؟ ..**
- **لقد أكلت الجرذان حصيلة هذا العام من الغلال ، ياسيدى ..**
- **أكلتها كلها ؟ ..**
- **نعم ياسيدى أكلتها كلها ، حتى الأجولة لم يبق لها أثر**

فإقترب الجيوشى من الحارس .. ترسى راحته على منكبه الأيمن ، ويشير بيده الأخرى إلى حيث المخازن ..

- **أشر لى .. أية مخازن تلك التى أبيدت ..**
- **كلها يا سيدى ..**
- **أرنى إياها .. فإن الأمر قد إختلط علىّ ..**

فتقدم الجيوشى من حافة المجلس المكشوب حيث ينتصب سياج صغير .. وإقترب الحارس فى إثره وجلاً ، فسحب الجيوشى يده .. ليجعله أمامه مباشرة يشرف على مشهد البلدة من شاهق ، وما إن أشار الحارس بيده إلى المخازن حتى دفعه الجيوشى بقدمه .. فهوى ساقطاً من أعلى نقطة فى القصر ..

حينها إنتفض قاسم وناصف فى رعشة واحدة وتراجعا إلى الخلف فى فزع ، بينما إنتصب الجيوشى لاوياً عنقه ، يُصغى .. حتى جاءه صوت إرتطام الجسد الهاوى بالأرض الحجريه ..

ثم إستدار إليهما غير عابئ بشيئ .. فأشار إلى إبنه بالإنصراف ، وهنا إعتملت الريبه فى صدر قاسم .. تهس له نفسه بما قد يكيد له أخاه .

إلا أن الجيوشى جلس على أحد المقاعد ينظر إليه ، فحاول قاسم أن ينافح رهابه ناطقاً بالنبأ الأخر .. ليتخلص من هذا الخوف الذى جثم على صدره بغتة ..

- **ويؤسفنى يا أخى بأن أخبرك كذا أن البئر ينضح دماً ، وخرجت علينا من جوفه آلاف الوطاويط .. تواقه لشرب الدم ، حتى أنها أصابت أولادى وزوجتى .. ومعظم ناس الكفر**
- **تتحفنى دائما بأبناءك السارة ، أى مصاب هذا الذى أصاب كفرنا ؟! ..**
- **يقـول العـرافون أن طقساً ما ، نجساً ، قـد وقـع منذ أيام ..**

أغضب السماء وأهاج جنودها علينا ..

- **تقول طقساً نجساً .. وما بال الأنجاس وكفرنا ؟! ، أحضر لى كل العرافين السائحين عند المقام أمام القصر .**
- **كما تأمر أخى .**

وإنصرف قاسم ، بينما شخص الجيوشى مريجاً صوب الوادى والمقام

....

فى غداة اليوم التالى تجمع ناس الكفر زمرات أمام القصر ، حينها كانت البوابة لازالت مغلقة ، السادة يستقلون مطاياهم فى حال مزرية ، كانت وجوههم منتفخة .. أصابتها الوطاويط فمسختها ، الكل يتأوه .. ويتحسس وجهه فى نشيج عصبى ..

إنتشر العبيد والحراس وعامة الناس فى تجمعات منثورة حول القصر ، فى منأى عن مواكب السادة ، والعرافين والمنجمين زمرةً على مبعدة من البوابة ، يناظرونها تماماً .. تحوطهم حشود جمة من الناس ، وكحال أى مجذوب بدت هيئاتهم غريبة منفرة ، لحاهم ممتدة منفوشة ، وشعورهم كلبدة لم تُهذب منذ سنوات .. يضربها شيب عجيب ، يرتدون سقطاً مهلهلاً وجلاليب مرقعة ، ويثقلون أياديهم ورقابهم بمسابح وتمائم وأحجبة .. وأشياء أخرى غريبه ، وما أكثر الرسوم المطلسمة على وجوه نساءهم ، أصابهم ما أصاب ناس الكفر .. فتحولت مسحاتهم كمسوح أنفار الجن ، ومما زادها وحشه بعض عاهات قديمة ! .

الكل يتحدث ، يتمتم ، يغمغم .. كل ثلة فى حديث خاص ، وإمتقاع وتأسف وسخط ، لا تميز فيهم صوت عن أخر ، وكأنه فحيح مدوٍ ، نعير هنا ونعيق هناك .. والسادة على عادتهم قليلى الإصطبار ..

وأخيراً إنفتحت بوابة القصر وخرج الجيوشى على عربة يجرها فرسان ، يطوقه من كل جانب حراسه وسدنته ، وما إن إنبلج عن البوابة حتى ساد صمت قاتم .. وهبط سادة الكفر كلٍ عن مطيته ، وإبتعد الخدم والمزارعين قليلاً إلى أطراف الموكب ، أحنى الجميع رأسه إلى صدره عدا العرافين .. فكفتهم مسحاتهم البشعة ما يليق من ذل وهوان .

أطلق الجيوشى نظرة فاحصة إلى تخوم الجموع وأقصاها .. فى حين حرر قاسم مطيته إلى أحد حراسه وإقترب من العربة ..

- **هاهم المنجمون كما أمرت ..**
- **ما طلات القرود هذه التى أرى ؟! ، ماذا دهاكم ؟ ..**

فنطق أحد العرافين ..

- **إنها السماء .. غضبت علينا يا سيدى ، لقد أعمل أحدهم طقس نجس بدماء وعقد ..**

فنظرهم الجيوشى هازئاً ..

- **وبماذا تقيمون طقوسكم أنتم ؟ .. بماء ولبن ؟! ، أنتم الأولى بأن نتهمكم .. أليست تلك أدواتكم ؟ ..**

فإقترب أحدهم ..

- **سيدى ، إنا نقيم طقوسنا السفلية ضد أعداء بلدكم .. فكيف نجربها بالكفر ونحن الماكثين فيه ؟ .**
- **أنتم المنوطون أمامى برفع السدل عن هذا الفعل المقيت .. لم يحدث أبداً أن أنتج بئر يَمَـان دماً ووطاويط ، بئر البركة لا ينضح إلا ماءاً معيناً شافياً ..**
- **سيدى ، لا علم لنا بما حدث .. لقد أصابنا ما أصابكم ..**
- **إذن بينكم خائن .. وإن لم تظهروه فستحرقون جميعاً ..**

فإندفع أحدهم .. مخترقاً زمرة العرافين ..

- **إنه صياد الرَيَّاح ياسيـ ...**

وما إن نطق .. حتى إنتزعته أيادى العرافين من مخانقه ، ألجأوه إلى الخلف .. بينما كممه أحدهم هامساً ..

- **يا غبى .. ألا تحسن القول .. إنه إبنه ..**

فإنتزع العراف نفسه من قيادهم .. ثم إنبرى متقدماً لبضع خطوات فخترقاً زمرتهم ، هاتفا ..

- **منذ بضع سنوات ونحن نرتاب لأمره ، نبا إلينا أنه يتعاطى مع جِنىّ مارد عتيد ، يخاويه .. فيفعل له ما يريد ، سلطه علينا لينتقم ..**

فضحك الجيوشى ضحكة ساخرة ..

- **أباءت كل حيلكم بالفشل حتى تعلقوا خيبتكم على عاتق كفيف .. لا يملك فى نفسه شيئاً ؟ ..**

فإقترب منه قاسم يقول بصوت خفيض ..

- **ربما أصابوا يا أخى ..**

فإجترأ العرافون .. وتجمعوا زمرة واحدة ، يرددون ..

- **لم يقول إلا الصدق .. إنه صياد الرَيَّاح ، حقاً إنه هو ، ومن يكون إن لم يكن طريد كفرنا ؟! ..**

فإهتاج الجيوشى غاضباً ..

- **كفاكم حمقاً وغباوة .. فلقد سئمت ثرثرتكم بالدجل والخرافة ، سأمهلكم حتى إكتمال القمر ، فإما أن تأتونى بالخائن .. وإلا فإنتظرو من العواقب أوخمها ..**

ثم ضرب بسوطه على كفل الفرس .. وإستدار بعربته غاضباً ، إخترق البوابة .. فأوصدت فى إثره فى أقل من خفقة عين .

وقف الجمع يرمق بعضه بعضاً .. وإهتاج لغط حاد بين تلافيفهم ، بينما إستقل السادة مطاياهم دون إكتراث .. يركض فى أعقابهم الحراس والخدم ، وما بقى سوى العمال والعامة يعضون على نواجذهم .. لكن سرعان ما إنفض الحشد ، مخلفين العرافين يموجون فى روع وشتات .. تكاد أدمغتهم أن تنفجر ، وبالأخير غادروا الساحة يتراشقون الإتهامات ..

"١١"

بابة

ولج قاسم وكبير العرافين ديوان قصر الجيوشى بإذن من الحارس الخاص ، وكانت قاعة فسيحة تتراص على جوانبها أرائك الفخمة .. وإلى المنتصف فسيقة مياه ، وفى الجهة المناظرة للباب الضخم يستوى عرش مهيب .. تتخلفه زخارف فارسية نادرة مصنعة من الخشب المرصع بالأحجار الكريمة ، ومموهة بدقائق من الذهب والفضة ..
جلس الجيوشى على عرشه يستقبل الضيفين الثقيلين .. وقد ضاق ذرعاً بطلاتهما الخائبة ..

- **ماذا لديكما ؟ ، أرجوا ألا تفسد مرائى من بكرة الصباح ..**

فتقدم قاسم عدة خطوات حريصة ..

- **بخصوص ما حاق بكفرنا .. يرتأى العرافون أننا بحاجه لإقامه طقوس تطهير ..**
- **وماذا يمنعهم ؟ ..**
- **جئنا أخى نرتجى إذنك فى إقامة المراسيم الخاصة بالطقوس**
- **لا ضيم فى الأمر .. إن كانت تلكم المراسيم ستُسفر لنا عن الخائن ، صاحب الطقس النجس ..**

وهنا تقدم العراف مطرقاً ..

- **بالطبع سيدى ، ولكن يتوجب حضور أهل الكفر جميعاً لإتمام هذه المراسيم ..**
- **وهل منهم من يتمنع ؟ ..**
- **لا سيدى ، الكل على أهبة الإستعداد .. ولكن يتوجب حضوركم أنتم أيضاً ..**
- **حضورى أنا ! .. وبماذا يفيد ذلك ؟ ..**
- **ستبطل الطقوس بدونكم !..**

فرماه الجيوشى برمقة عجب خبيثة ، ثم هزهز رأسه قائلاً

- **ولا ضيم فى هذا أيضاً .. لنرى ما فى جعابكم ، شريطة ألا تستغرقوا كل وقتى ..**

وهنا تقهقر العراف بعض الشىء ليحاذى محط قاسم .. ثم نظر إليه فى ريبة ووجل ، أومأ له بلحاظ عينه .. فهتف الجيوشى فيهما ..

- **ماذا عندكما ؟ ..**

فرد العراف فزِعا ..

- **لا شىء سيدى .. فلتأذن لى بالانصراف ..**

فأشار له الجيوشى ببنانه أذوناً بالإنصراف ، وما إن غادر القاعة حتى إقترب قاسم خطوتين .. يرمق كبيره بنظرات خجلى تنطق بشىءٍ ما

- **ماذا بعد ؟ ، إنطق قبل أن ينفذ صبرى ..**

فأقام قاسم هامته مرتبكاً .. تتعثر كلماته وكأنما إبتلع صوته ..

- **لا شىء أخى ، ولكن العراف أخبرنى بأن الأمر يقتضى**

حضوركم برداء السواد .. رداء العامة ..

- **تقصد رداء الخدم والعبيد ..**
- **لا ذنب لى أخى .. هذا ما نطق به لسانه ..**
- **لا ريب أن الخبال ضربكم .. أتعى ما تقول ؟! ، أتدرى عواقبه ؟ ..**
- **أدرى ..**
- **أغرب عن وجهى .. قبل أن أرديك قتيلاً ..**

فتقهقر قاسم مرتعداً ، وما لبث أن إختفى ! .

....

صباح اليوم التالى ، وفى ساحة الوادى قبالة " ضريح يَمَـان " .. يتراءى مشهد جنائزياً ، ناس الكفر ثرثرة فى ثلل وزمرات .. وقد توشحوا جميعاً بالسواد ، إرتدوا السقط البالى .. ألبسة فاحمة غشيت المشهد بقتامة مقبضة ، هنا لا فارق بين حقير أو عظيم ، رجل أو إمرأة ، سادة أو عبيد .. الجميع هنا سواء .

تخايلك الجمهرة للوهلة الأولى وكأنها ثورة للجياع والشحاذين ، إصطف الجميع حفاة متربين ، تساوت الرؤوس وتحاذت الأقدام .. فلا مطايا ولا هوادج ، جاور الأسياد خدامهم والسيدات إماءهم .. دون تناظم أو تحزب ، فقط الرجال يشغلون الجانب الأيمن والنساء فى الجانب الأيسر .. يتقدمهم الجيوشى بلباس مختلف بعدما أبى أن يحاكى هيئاتهم المزرية ، قبل أن يتوعد صاحب الفكرة بعذاب أليم ،

رغم قدسية الطقوس .. لم يعترف بمقدس يهز هيبته ، فقط تحرر من موكبه ومطيته ..

وقف الجميع مدهوشين .. وقد أصابتهم الشمس بحراب مسننة ، لازال المنجمون هناك أمام ضريح يَمَـان .. يطلقون بخورهم ويتمتمون بطلاسم ملغزة ، وبعضهم يتمرغ فى التراب كالمصروع ، إستدار كبيرهم ليناظر الجموع المتعرقة .. ثم رفع راحتيه للسماء يبتهل بدعاء طويل ، وبينما هو مستغرقاً فى نوبته .. رمق الجيوشى بلحاظ عينه وقد غمرته فورة غيظ وإمتقاع ، فأشار إلى بعض من الخدم فغابوا خلف الضريح لدقائق .. ثم برزوا يقتادون سبع بقرات سمان وعلى هامش الجمع الغفير يمر الشيخ شبيكة " شيخ المسجد " بمبخرته مهللاً .. ويبدو أنه غير راض عما يحدث ..

- **{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }** ، **القصاص .. القصاص ، { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ }** ..

وفى الرقعة الفاصلة بين الحشد والعرافين وثق العبيد أرجل البقرات السبع بحبال متينه .. ثم تكاثروا عليها ، كل بقرة على حده ، حتى أسقطوها عنوة ..

وأبرز أحدهم نصلاً عريضاً ، ضخماً ، ووقف على رأس البقرة الأولى ، أمسك أحدهم بقرنيها ونحرها الأخر .. فبكت الدماء من عروق رقبتها بكاً ، ثم جلبوا أوعية عراض عميقة وطفقوا يجمعون ما ينفر

من الدماء ، حتى إمتلأت الأوعية وجفت العروق ، وذات الشىء فعلوه مع البقرات الأخرى ..

فأومأ العراف لأحدهم فأحضر زنبيلاً فارغاً .. أخذه العراف وتوجه به صوب البئر ، ثم أسقطه بواسطة حبل طويل حتى إمتلأ بماء البئر الأحمر .. وطفق يمر على كل وعاء ممتلىء وينثر على سطحه بعضاً من ماء البئر ..

وبالأخير حمل العرافون الأوعية وقربوها من بعضها البعض فى شبه دائرة .. ثم إلتفوا حولها حاملين تمائمهم وأحجياتهم ، تحركوا حولها دائرياً تترنح مباخرهم ومسابحهم .. وتعلو ألسنتهم بطلاسم وتمتمات مبهمة ..

ظلو على هيئتهم لبرهات ، ثم حمل كل واحد وعاء ممتلىء بدم البقرات المختلط بالماء وتوجهوا صوب بئر يَمَـان .. فسكبوا الأوعية بها ، ولازالوا يتحركون دائرين حول البئر ، تعالت أصواتهم فى شبه صرخات ورطن كالمجانين ، ووقف كبيرهم يحاذيهم ، يدور فى مدار أوسع .. وينثر بذورا وأعشاب على رؤوسهم ..

ويصرخ شبيكة ..

- **{ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } ..{ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }**

ظل الطقس عدة دقائَق حتى فرغت الأوعية من ملَئها ، ثم واجه كبير العرافين نسوة الكفر رافعاً مسبحته للسماء ، تحركت بعضهن الواحدة تلو الأخرى .. يحملن أوعية معبأة بلقيمات الثريد وأقراص اللبن ،

قادهن إلى البئر ووضعت كل واحدة وعائها عند حرفه فى إلتفاف دائرى .. ومضين يقذفن اللقيمات والأقراص إلى العمق ، يقدمنها قرباناً للإله .. ليبرء بئر يَمَـان المبارك من ذاك الطقس النجس ..
وقف الجيوشى ممتقعاً وقد إحمرت وجنته .. مغترقاً بعرق منثال ، فلما رأى قاسم ما بدى منه إقترب هامساً ..

- **أخى .. فلتجلس بالسقيفة إلى الجوار من المقام ..**

فصرخ الجيوشى فى وجهه ..

- **أغرب عن وجهى ، أقسم بشرفى سأقتلكم جميعاً .. إن باءت تلك الهراءات بالفشل ..**

سمعه كبير العرافين فأشار للنسوة بالعودة إلى محطاتهن .. ولم تكن أوعيتهن قد فرغت بعد ، وبالقرب كان العبيد ذاتهم يحملون قضباً عظيمة من جذوع الأشجار ، وضعوها فوق بعضها البعض ثم سكبوا فوقها نوعاً من الزيوت .. وأشعلوا النيران فيها ، وتقدمت زمرة أخرى بأقفاص يصرخ داخلها جرذان عظيمه الجرم ، تلك التى أصابت مخازنهم ، وكذا بعض الوطاويط التى أصابت ناس الكفر ، ألقوا بالأقفاص الواحد تلو الأخر فى النار فتعالت صرخاتهم .. ليضارعها صراخ شبيكة ..

- **وما ذنب جند الله فيما أمر الله ؟! ، قديما ذاقت الجرذان والوطاويط دماء ذكية لأخ صالح .. وإستساغتها ، وهاهى عادت .. خرجت تواقة لشرب الدم لتثأر ..**

دار العرافون ببخوراتهم يقذفونها فى النيران ويطلقون طلاسهم الغريبة .. فتعالت الأدخنة وتكاثفت بشكل مريب ، حتى أنها سادت سماء الجمع المهيب بسحابات سوداء ، ومالبثت أن تشعبت وإنتشرت .. حتى غشيت السماء وحجبت شمسها ، فاحت رائحة نافذه كرائحة شواء لحم .. كانت منفرة ..

وهنا إهتاجت العرافات فى رقصة جنائزية ، رقصة النائحات .. يهلن التراب على رؤوسهن ويترنحن بشكل جنونى ، وما كان إلا أن تبعتهن نسوة الكفر جميعاً .. فعلن مثلما يفعلن ! وكأنهن يكوين بالنار ، وبينما خبت صرخات الجرذان والوطاويط .. تعالت صرخات النسوة النائحات ، يترنحن على نحو منفر مريب .. تسقط الواحدة فتتبعها جارتها ، ليقومن تارة أخرى وقد فارت فى أجسادهن رعشة مخيفة فى نشيج عصبى ، وكأن ناراً تهب داخلهن فيصرخن .. يدبدبن بأرجلهن ويلوحن بالطرح السوداء إلى الفضاء الأسود ، رقصة النائحات ..حارة مؤلمة ..

- **{ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ }** ..

خف توتر النسوة شيئاً فشيئاً وخبا صراخهن رويداً رويداً .. حتى سقطن جميعاً وقد أصابهن الكلل والتعب ، فقدن الوعى،

هدأت الأجواء وخبت النيران .. ولم يلتفت العرافون إلى الجيوشى الذى غادر الساحة غاضباً فى سخط مهيب ، فأمر كبيرهم بأوعية من ماء البئر الذى تم تطهيره ثم سكبها فوق رفات المحرقة .. وجمع رماد

الجرذان والوطاويط الساخنة المغمورة بالماء فى أجولة من الخيش .. وتم تركها بالأخير لتجف تمهيداً لنثرها فى ماء البحر المالح ، وإلى أعماق بعيدة نائية .. حتى يبطل الطقس النجس ! ..

إنفض الجمع وإنتهت الطقوس ، ولزم العرافون ساحة المقام .. ينتظرون ردة فعل الجيوشى ، ذاك الذى لا مفر من بوائقه التى باتت حتمية ..

وبعد عدة أسابيع ، ولما ظل البئر ينضح دماً .. أمر الجيوشى بالعرافون فأودعهم فى السجن ..

مكثوا فى محبسهم لأكثر من شهر ، وفوجئوا ذات يوم بأمر العفو عنهم .. فلقد قتل الجيوشى عشرات الخدم والعبيد فداءاً لهم ، لم يعى أحداً منهم علة هذا التصرف ، ولم يشغل لبهم كثيراً .. المهم أنهم عادوا بحياتهم ناجين من مقتلة لا نجاة فيها .

"١٢"

برمهات

من أغرب ما رأى أسلافنا " عوج بن عناق " .. ذاك الشخص الوحيد الذى نجى من طوفان نوح ، فلم يلحقه ولم يهلكه .. نظرا لضخامته وبأسه ..

قيل أنه ولد فى منزل آدم عليه السلام ، وكانت أمه مخيفه .. طول الإصبع من أصابعها ثلاثة أذرع ، وعرضه ذراعان .. وينتهى بظفرين حديدين كالمنجلين ، أما مجلسها فمقدار واد من الأرض ، وهى أول من بغى فى الأرض وعمل الفجور والسحر وجاهر بالمعصية .. لذلك أرسل الله عليها أسوداً مثل الفيلة وذئاباً كالإبل ونسوراً كالحمر .. فقتلوها ! ..

وكان طول عوج ثمانمائة ذراع .. يحتجز السحاب فيشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر .. فيشويه بعين الشمس ثم يأكله ولما كان طوفان نوح عليه السلام ..

إرتفع الماء فوق الجبال خمسة عشر ذراعاً .. فباد ما على وجه الأرض من الخلق إلا نوح ومن معه فى الفلك ، وعوج بن عناق ، ذاك الذى لم يتجاوز الماء ركبتيه .. بل وكاد أن يمسك السفينة فيغرقها ..

ولما سار موسى فى زمنه من مصر إلى أريحا " أرض بيت المقدس " فى

سبعين من أسباط بنى اسرائيل .. إختار إثنى عشر نقيباً منهم ، حتى إذا كانوا قريباً منها بعث بهؤلاء يأتونه بخبر الجبارين .. فلقى عوج النقباء وجعلهم فى حجزته يضعهم على رأسه كحملة حطب ، ثم إنطلق إلى امرأته قائلاً ..

- **إنظرى إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلوننا ..**

وطرحهم بين يديها قائلاً ..

- **هل أسحقهم برجلى ؟ ..**
- **لا بل خل عنهم .. حتى يخبروا قومهم بما رأوا ..**

وخرج النقباء يقول بعضهم لبعض ..

- **يا قوم .. إنكم إن أخبرتم بنى اسرائيل بخبر الجبارين إرتدوا عن نبى الله ، إكتموهم وأخبروه ..**

وأخذ بعضهم على بعض المثياق بذلك ليكتموه .. غير أن عشرة منهم نكثوا العهد ، وجعلوا يخبرون إخوتهم وأباءهم بما رأوا حتى خاف هؤلاء عدوهم ، وأبوا أن يقاتلوا موسى ..

ولما خرج موسى وقومه من التيه .. رفع الله المن والسلوان فأكلوا البقول ، وإلتقى "موسى" و "عوج بن عناق" ، وكان طول موسى عشرة أذرع " كطول عصاه " .. فوثب فى السماء عشرة أذرع أخرى وضرب عوجاً فأصاب كعبه وقتله ، فكان عوج جسرا لأهل مصر من يهود الخروج ..

إنتفضت بغتة ، بعد أن قطع سرحتى القصيره ذاك الذى طار وإستقر عند دفة القارب ، منحولاً طويل الرجلين عريض الجناحين .. تتماوج نقوشاً بديعة على صفحته وكأنها لمسات ريشة ، سار فى رزانة عند حافة القارب يرمى بتاج رأسه الطويل ليتراقص كأهداب يداعبها الربيع ..
كان من جملة ما جرى على لسان شمس الصياد لى .. إنه " طائر الغرباء " ، وأحد شِيات هذا القارب المميزة ..
فلكل صياد وطأه طائر ، يموت بموته .. ويصحو أخر ليلزم صياد جديد ، وهذا المزهو أمامى .. كان طائرى ، طائر أحقابى سالفها وقادمها .. أنيس وحدتى منذ نيف وعشرين عاماً ..
دار عند حافة القارب فى وقار إلى أن إنتصب أمامى .. يرمقنى بعينين فى حجم حبه حنطة ، يومئ برأسه وكأنه يحادثنى .. محاكياً حركاتى وسكناتى ، له صوت مميز لم أسمع له مثيل .. وكأنها قهقهات طفل رضيع إلا أنها تتناسب كثيراً مع رزانته وثبوته ، وبرغم أنه كان أغرب ما وافانى فى رحلتى بالقارب .. إلا انه كان مثلى وحيد بلا أنيس ، فكنت أنا راحته وكان هو راحتى ..
فى أوقات أثيرة أسمعه يئن كالأطفال .. خاصة إذا ما ضربنى مصاب ما ، أذكر جيداً تلك المرة التى جاءنى فيها صوته الشجى الحزين .. عندما ساح بى القارب فى عرض الرَيَّاح بعد أن خطت قدماى فى قاعه خطوتى البكر ، قبيل ظهور المسحور مباشرة ، لأول مره أيضاً

.. حينها كنت نائماً غامياً .. فجاءنى صوته وكأنه آتياً من أعماقى ، كان قلبى يئن ويختلج معه ، ينهنه كطفل يحبو .. فخال لى فى بادىء الأمر أنه صوتى ، إلى أن كان ورأيته بأم عينى ينشج ويرتعش ، يئن معى .. بعدما وفانى المسحور بنبأ موت أمى .

كان طائر الغرباء هذا من جملة ما ينكشف له نور بصرى ، ذاك الذى ينجلى مع أحدهم ويكف مع كثيرين أخرين ، إنه صديقى الصدوق ، جُبِلت رحلتنا معاً .. وأظن أننا سننهى أشواطها أيضاً معاً ، صدق شمس إذ نعته بـ " طائر الغرباء " .. فلم يأت هذا القارب ويمتطيه إلا ك غريب ، شمس الصياد كان غريباً .. ومن سبقوه غرباء ، وبالنهاية جئته أنا طريداً شريداً .. جئته كذا غريباً ..

حكى لى شمس الصياد ذات مرة أنه كثيراً ما كان يسمع الطائر ينطق بعبارات واضحة ، وأنه سأله فى حدى هذه المرات ..

- **أعرف أن طائر الغرباء نعتك ، إذن فما هو اسمك الأصلى؟**

فأجاب الطائر ..

- **أنا الغيب ..**
- **أتقصد بالغيب .. المستقبل ؟! ..**
- **كل ماهو آت .. وغائب ..**

فإندهش الصياد ..

- **وهل من آت معلوم ؟! ..**
- **وهل من معلوم .. إلا ما هو آت ..**

فأطرق الصياد للحظات فى صمت غريب ، ثم قال ..

- **إذن قل لى .. ماذا ينتظرنى فى العام القادم ؟ ..**
- **قل لى أنت .. ماذا جاءك فى العام الماضى ؟ ..**
- **الكثير من السمك ..**
- **وهذ العام ؟ ..**
- **الكثير من حب الناس ..**
- **هكذا تجرى الأقدار ..**
- **إذن لربما ينتظرنى العام القادم .. الكثير من السمك أو من حب الناس ، ربما الإثنين معا ..**
- **وربما الموت ..**

وقد مات شمس الصياد بالفعل فى العام التالى ..

أطرق الطائر عند الدفة للحظات .. ثم سار مزهواً إلى أن سقط إلى ساقى المفردة بقاع القارب ، طوى رجليه ثم قبع فى محطة ينظر لى ، كانت عيناه تتكلم .. رقرقتها تلتمع فتصيب وجعاً أجد مثله فى فؤادى ، أفردت ذراعى إلى صفحة الرَيَّاح وأثقلتها بشىء من الماء وطفقت أنثره برفق على هذا التاج الذى يزهو به .. فإنتفض يمج قطرات الماء عن رأسه ، ويمطها إلى الامام راعداً فى وجهى .. وكأنه يقول لى " كف عما تفعل " ، كانت قهقهاته تضحكنى .. وأظنه كان يضحك ، ظللت أناوشه ويمجنى .. إلى أن صمت فجأة وأفرد جناحيه وطار إلى أن حط على شجرة بالقرب ، ومنها إلى الفضاء

البعيد ، حينها هست لى نفسى " تراه قد ضجر منى ؟هل أغضبته ؟ " وهنا إنبلج بغتة شبح إنسان يقترب .. جاءنى حفيف رجله أعلى الجرف ، فى البداية ظننته أحد هؤلاء الذين بروحون ويجيئون دوماً على الشاطئ دون إكتراث .. إلا أن حفيف هذه الأقدام وإنغراسها بالرمل ظل يقترب إلى أن سمعتها تهبط إلى جرف ضفتى ، بدا من لهاث الرجل أنه كان مذعوراً ، حط عند صخرة بالقرب وطفق يلفظ أنفاساً مكروبة ما لبث أن هدأت ، هنا جاءتنى رائحة أعرفها .. أتشمم فيها ريح عشرون عاماً مضت ، فقلت ..

- **ناصف ؟!..**
- **نعم .. وكيف عرفت ؟ ..**
- **وهل يتوه الأخ عن أخيه ؟ ..**
- **ولكنى فى بادىء الأمر لم أعرفك .. لقد تغير فيك كل شىء ، هيئتك .. قسماتك .. بت شخصاً أخر ..**
- **أما أنت وما فى قلبك ، وما جئت به ، لم يحد عنى .. عرفته منذ اللحظة الأولى ، بالنهاية إهتديت له .. وإهتدى لى ..**
- **أرى أن عينيك بحق قد إبيضت ..**
- **هذا نبأ قديم .. فات أوان التحرى عنه ، يخال لى أنك مذعور ... تأتينى شهقاتك وزفراتك مكروبه .. ماذا دهاك ؟ ..**
- **شىء ما يتبعنى ، مذ أن ولجت إلى شاطىء الرَيَّاح .. وأنا أسمع حفيفة يسرى فى إثـرى ، وما إن تنبهت إليه .. قفـز إلى**

الماء ! ..

- **ربما كان مسحوراً ..**

وهنا لكز المسحور راحتى المُسندة إلى حافة القارب ، إذ كان والجنيّه يتجاوران بالماء .. تعلقا بخشبه فى الجهة الخبيئة ، المناظرة ، ما لبثت أن لمحتهما حتى إستدرت إلى ناصف سريعاً حتى لا يتنبه لأمرهما .. أو يرتاب فى أمرى ، أردفنى سريعاً ..

- **لا تقل هذا .. فحديثك يرهبنى ، تلك محض خرافات وأساطير ..**

وهنا أطلق المسحور ضحكة مكتومة ، تواكبها قهقهة رخيمة لفظتها الجنيّة دون إرادة .. وهو الأمر الذى جعله لتوه يرتجف فزعاً ..

- **ما كان هذا ؟! ..**
- **لا شىء ، ربما كان أحد الطيور السائحة على صفحة المياه .. كثيرا ما تأتينى أصوات كتلك ، إنها محض أصوات ، ولكن أخبرنى .. ما الذى ذكرك بى بعد كل تلك الأعوام ؟ ، لم أرك منذ أكثر من عشرين عاماً ..**
- **لن أدعى اللهفة والإشتياق .. فى الحقيقة ذكرنى بك ماحدث بالكفر مؤخراً ..**
- **ترى أى مصاب جلل أصابكم ؟ ..**

حكى لى ناصف ما جرى من أمر الجرذان والوطاويط .. فواجهته أصطنع إرتياعاً زائفاً ..

- إن هذا من أغرب ما سمعت ! ..
- هل ألمك مصابنا ؟ ..
- قلت من أغرب ما سمعت .. ولم أنبس بأنى توجعت ..
- فهمت ، لك الحق فيما تشعر .. ولنا كذا الحق فيما نفعل ..
- دعك من هذا .. فانى لا أكترث به ..
- لا يبدو لى ذلك ، على كل حال بالنهاية لكل حزب قسمته ، إلا أنك تحزبت فى منأى عن أبيك .. فأصبحت أنا مالك قسمتك من حبة وإرثه ، ولتبق أنت مطروداً ، لاهياً بقاربك هذا من مرسى إلى مرسى كالمخبول ..

فضحكت هازئا ..

- مخبول ! ، أرى فى حديثك نبرة تهديد ومعايرة .. لست أنت ولا أنا أهل لها ، فلا أنت تستحق ما نلت من حظ .. ولا مطمع لى فى جنتكم التى طُردت منها كما تدعى ، أخبرتك أنى لا أكترث ..

فرمقنى مشدوهاً ..

- رزانة وثبوت لا يليقان بك .. يبدو لى حقاً أنك لم تعد تأبه لما آل إليه ناسك ، إذن فلتعلم أنهم أيضاً ما عادوا يكترثون بك .. كأنك ما كنت وما خُلقت ..

فابتسمت إبتسامة ذات مغزى قبل أن ألوى عنقى لأرفع طرف شباكى المغمورة فى الماء ، ثم مرت برهات ساد فيها صمت رتيب ..

كنت خلالها أشعر أنه يرقبنى ملياً ، يباشر حركاتى ويتابعها خلسة .. إلى أن نطق أخيراً ..

- **شأنك يحيرنى وبات شاغلاً لكثيرين ، يسألون كيف لم يُثنيك كفاف بصرك عن العيش هنا دون دليل ! ..**

أثار السؤال حفيظتى .. فأشحت بناظرى

- **إن حدسى هو دليلى وبصيرتى هى مرشدى .. أتعاطى بهما فى أى ظرفٍ كنت ، أتعامل مع الظلام دونما نصب ، أتعاطى معه ويتجاوب معى .. أهتدى إلى الأشياء دونما أراها ، ليس ضروريا أن أراها ، فقط أشعرها ، أناديها من أعماقى .. فتصرخ لى بأعلى صوتها ، تصلنى قبل أن أبحث عنها ، إنها جنتى التى تعدو جنتكم أنتم المبصرين بكثير ، أو قل جنونى الخاص ! ، لا يهم ، المهم أنى بت كائناً طبيعياً دون بصر ..**

قديماً كنت أحار كيف يهتدى العميان إلى مآربهم ، لم أكن أعرف أن لهم عالماً خاصاً .. أبهر من عالمنا ، حين كنت مبصراً ، أضواءه خافته .. تقصد فقط هدفها ، دون تشتيت .. ولا إضافات بلا معنى ، أبحث عن شبكتى .. فلا أرى إلا شبكتى ، ولا داعى للقارب والرَيَّاح والضفاف والأشجار .. تلك التفاصيل التى تحير مرآى ، يالها من متعه ! .. مُنعها المبصرين ، ومن لم يعوا قيمة هذه النعمة .. هم العميان ..

- **ما زادنى حديثك إلا حـيرة ، حديث مبهـم ملغـز ، ولكن ألم**

يصدمك الحدث ؟ .. أقصد العمى ..

- **وما الصدمة إلا عند اللطمة الأولى .. أول إنفعال بعد الكارثة ، ولكن من أعماقى مابت أشعر بأن فقدان البصر كارثة ، والمعادلة بسيطة .. من وهبنى النور إنتزعه ، وله سبحانه حكمته ، وأنا شديد الإيمان بحكمه النور وصاحب النور ، وما جاء بأسباب .. ذهب بأسباب ..**
- **يمكنك إذن أن تهتدى لى دون أن ترنى ؟ ..**
- **بالطبع .. جرب ..**

فشمر ناصف ساقيه وتحرك حول القارب .. فما كان من الجنيه إلا أن غاصت فقبضت على ساقيه ، فصرخ الرجل فزعاً حتى كاد أن يغشى عليه ، فصحت ..

- **كفى عن فعلك ، أطلقيه ..**

فحررت ساقيه ، وهرع ناصف إلى الجرف .. واثبا إلى الطريق يركض فاراً بكل ما أوتى من عزم ، وهنا ظهرت الجنيه والمسحور تغشاهما نوبه ضحك هستريه .. ترددت أصدائها إلى جنبات الرَيَّاح من أقصاه إلى أدناه ، فإبتسمت لبرهة وما لبثت أن تغضن وجهى ..

- **ما كان ينبغى أن تفعلى هذا .. بالنهايه هو أخى ..**

فقفزت إلى الدفة ..

- **أخاك !! .. أضحكتنى ، أخـاك بعد أكثر من عشرين عاماً من الفراق والبين ! ، عذراً فأنا لا أتحمل سماجات بنى أدم تلك ..**

"١٣"

أبيب

- **دعكي من هذا .. لقد أعجبني نهجكى في الإنتقام ، ولكم كان إنتخاب الجرذان والوطاويط موفقاً !.. أصابت ماهم ومقدساتهم ..**
- **لا تتعجل .. ففي جعابى ما سيوقفك مشدوهاً زاهلاً ..**

فشدهت للحظات ..

- **لم يخالجنى الانتقام يوماً ، بيد أن ما أصابوه في قلبي عدا طاقتي .. أصابوه في مقتل ، فنزعت إلى الانتقام أكثر من نفوري منه .**

حينها طفقت الجنيه تثب من الدفة إلى الجرف ، ومن الجرف إلى الصخرة .. وبالأخير إعتلت قمة نخلة بالجوار تجر بأصفادها المسحور الذي مضى يرتطم هنا وهناك ، ترعد بنبرة متماوجة ..

- **وما رأيك إذا دهدمت جروف الوادي على ضريح يَمَـان وبئره ؟ ، أو أغرقت المعدية ؟ ، أو إنتزعت هذا الجسر وقذفته على قباب قصر الجيوشى ؟ ، لا لا .. سأفتح عليهم ذراعاي الرَيَّاح كما فعلت سابقاً ..**
- **لا .. لا أريد شيئاً من هذا ..**

فوثب المسحور على ظهرها ..

- **بعض المساعي لا تحمل الأناة والتفكير ..**

فلفظته الجنيّة ليسقط طريحاً ، فقام سريعاً وأردف ..

- **لحظه تفكير واحدة قد تفسد الأمر ، يجب الإنطلاق مباشرة ، الإقلاع من محطة النية إلى قضبان العزم .. ومنها إلى رحابة التنفيذ ، إشغل لحظتك الأولى في خطوتك الأولى .. فينمحي من خيالك بهرة التنفيذ وصدمته ، فى ليل طوبة .. فلتسكب الماء البارد لتوه فوق جسدك دون تفكير ، بعض لحظات الحماس لا تحتمل هنيهة فتور ! .**

فوثبت الجنيه إلى الدفة .. وظلت تذرع حافة القارب جيئة وذهاباً

- **سأقص لك واقعة من سالف الزمان رأيتها بأم عيني ، الفيلة التي قتلت أصحابها .. تلك التى إنتقمت دون تفكير ، حدث أن جماعه ذبحوا فيلاً وأكلوه .. ثم ناموا ، فجاءت الفيلة تتشمم أجسادهم ليلاً .. فوجدت فيهم أثار الواقعة ، فقتلت لتوها كل من وجدت في فمه رائحة لحم الفيل ، إلا رجلاً واحداً .. حملته الفيلة على ظهورها ، وكان رجلاً صالحاً ، تلك الفيلة لم تضع عائقاً لإنتقامها .. إنتوت فثأرت ، قتلت قبيلة برمتها دون إكتراث ..**

فإنتصبت ضجراً ..

- **لا تناهضاني ، أكره أن تحاصراني على هذا النحو ..**

ثم أطرقت أردد ..

- فقط أغرقى المعدية ، أغرقى كل قواربهم ومراكبهم .. إفصلوهم عن باقي القرى ، أريد أن أجعل هذا الجسر هو معبرهم الوحيد .. فأباشر حركاتهم وسكناتهم ، وأعاين ما قد يتبدى إليه حالهم .

فنظر المسحور للجنيّه يستحسن الفكرة .. بينما حدجته هى في غير إقتناع ، ثم أطبق صمت رتيب لبرهة ، المسحور مطرقاً على الشاطئ ، والجنيّه قابعة إلى المقدمة من الدفة تنظر إلى صفحة المياه .. شردت لبضع دقائق ثم قالت ..

- هل هذه الصورة في المياه .. صورتي ؟! ، الهيئة التي جبلني الله عليها ؟ ، هل يراها من يراني كما أراها .. أم أن ثمة شكلا أخر لي ؟ ، وما هو هيئته ؟ ،كيف تسير خطوطه ؟ ، كيف تحدده ؟ ، ترسمه ؟ ، أنفى الطويلة تلك .. أهي حقا طويلة ؟ ، قد تكون أفطس أو من عرق روماني ، أووف .. لا تروق لي هذه اللحية الكثة .. وهذا الشيب البادى منها ، هيئتي في أعينهم .. حقيقة أخرى لطالما بحثت عنها ، فما من حقيقة إلا ولها أصل ، سؤال ظل يؤرقنى .. أى الأعين ترى أصل خلقتي ؟ ، أعينهم أم عيناي تلك ؟ ، فى الواقع لقد نسيت صورتي .. لكثرة ما تبدلت وتشكلت ..

ثم لوت عنقها نحوى ترمقني متأنية ..

- وأنت ألازلت تتذكر صورتك ؟ ، ماذا بقى منها فى رأسك

الضيق هذا ؟ ..

كنا ننظرها مشدوهين .. تكاد الإبتسامة أن تنفجر على شفاهنا ، بيد أن سؤالها هذا أثارني .. هزهز قلبي ، دفع رأسى المقهور إلى حيث كنت فى الماضي البعيد ..

- **في الحقيقة ، لم أعد أذكر شيئا من ملامحي .. تاهت في ساقية الأيام ..**

ثم شردت للحظات .. أتحسس أساريرى ولحيتي ، أتأمل قبوعي عاجزاً ضريراً ..

- **ليتنى أعود طفلاً تارة أخرى ، لكم تقت شوقاً لتلك الأيام الخوالي ، كنت كطائر لا يكترث لهبوط أو إقلاع ، فقط أفرد جناحاي وأنطلق .. دون وصاية أو رقابه أو تضييق ، حاله من النشوة اللا نهائية ، حماس مطلق وشغف مطلق ، كان كل شيء في عيني بكراً .. لا تتضارب معانية ، ذاك فى ذاك .. بلا مقاييس ولا معايير ، وقتما تأتيني الإثارة أستشرفها وأستوعبها .. أشعر بها فأنطلق ..**

كانت الحرية كالإنفلات .. كلاهما قوة ! ، متعه .. لم أعترف يوما بتلك القضبان الماثلة اليوم ملئ عينى .. كنت أكسرها في أعماقى ، ولا أذعن لوساوسى حول سوءات النفوس ، وطالما أن هناك فسحه من الوقت .. كنت كنت أتلقى كل شيئ كدعابة ، ضرب من الهزل وربما الجنون .. يخبو صداه في

الذاكرة بعد لحظات ..

طفولتي كانت لا شيء وكل شيء .. بيد أنى أمعن إليها الأن فلا أراها ، طفوتى عاشتنى ولم أعشها ، إستغرقتنى أيامها فإنتزعتنى .. ونزعت عنى كل شيئ .

ثم إنطبق جفناى منكسران ، وثقا أهدابهما فى إذعان .. فجاءتني أمي ، كانت بذات هيئتها التى عهدتها لعشر سنوات ، وافتني بإبتسامتها الناعمة الحنون ، وكم من الحديث حينها باد في جوفي .. دون أن تسمعه ، أردت البوح بأشياء كثيرة ، ربما إعتذاراً ، أو مناجاة بنهج أخر .. بعقل أخر وقلب أخر ، وبنيه أخرى ، أردت أن أزيل ما علق بذهنها من كوني لم أكن مخلصاً حقاً إزاء حبها ، تمنيت لو أنى بكيت فى أحضانها فخايلنى أن ذراعاها قد إنفردا يتلقيانى .. يصعب عليها أن تراني محزونا ، فركضت إليها مكروباً ، هى الدنيا تتلقانى من جديد ، فبعد الإغتراب وحيداً لسنوات .. وافيت أحضان بالأخير لازالت تتمنى عناقى ، وإذا بى أصفى وحيداً خالى الوفاض .. تارة أخرى .

إنفرجا جفناى فى ذعر .. وقد إنحسرا عن عينين إغرورقتا بالدموع ، فإجهش قلبى ، لأجد صديقاي يرمقاني وقد بدا عليهما التأثر .. فأقمت طرف إزارى قبل أن يلحظا ما بدا منى ، أمسح بضع عبارات إنثالت ، لكن الوقت قد فات .

فأطرقت محسوراً .. ألقيت بناظرى إلى حلقات الماء المنداحة إلى بعيد ، آنـها لمحت المسحـور يرمقنى بأسارير مقبوضـة .. وخايلنـى طيف

الجنيّة تفعل مثله ..

- **كيف تسقينا أشجانك بهذه السهولة واليسر ؟! ..**

وند صدرى تنهيدة عميقة ..

- **كل منا داخله حروف وكلمات ، حكاية تروى ،كلنا حكاء عظيم ، فقط هي لحظة تثير شغف الراوي .. فينطلق لسانه جامحا دون لجام ، وما كان من القلب سيصيب القلب .**

وبغتة عصفت الريح فأطلقت السماء وميضاً بارقاً .. هبط متعرجاً إلى المياه فمزق أديمها كأفعوان من نار ، أخذنا المشهد أخذة لافتة فشدهت أعيننا فى حملقة مخيفة ! ..

نظر المسحور إلى الجنيه في عجب ، لويا أعناقهما إلى السماء .. فرعدت ، وإصطخبت سحب رعدية ، فإنتفضا وإنطلقت من حلوقهما بضع تنهيدات إنبهار إنتهت إلى إبتسامات متقطعة .. ما لبثت أن تحولت إلى ضحكات صاخبة ، حينما مجت المزن عبراتها بغزارة .. هطلت الأمطار وتدفقت كثجيج يعلن حضوره ، مرق برق خاطف فإرتعدت السماء .. فأضاءت الضفة وكأنها رابعة النهار ..

وقتئذٍ أمسكت الجنيه براحتيّ وطفقت تثب فى محطها ، تثب و تثب .. والمسحور يلهو يدفع القارب تارة ويجذبه تارةً أخرى ، كنت أترنح يميناً ويساراً ، أضحك ، تعالت قهقهاتي متأثرة بحراكهم المجنون .

وفجأة برزت من الماء أسماك كاللؤلؤ المضيء .. ذات تيجان وأهداب براقة متلألئة ، بدت كنجوم وضاحة في الماء .. وكأنها انعكاس لنجوم

السماء ..

ترقرقت بنا الأمواج وكأننا مصابيح وضاءة تموج فى ليل غطيس .. يضربنا برق أثير كأنه زفات الأعراس ، ويصطخب فوق رؤوسنا رعد كترديد الأهازيج ، إغتمرنا فى لجة من سعادة تبلج الصدور .. وتجلى أتراحها طبقة طبقة ، إنها النشوة المطلقة ! .

"١٤"

توت

إقترب ناصف من جناح الجيوشى متلصصاً ، ذاك الجناح المطل على أرض الوادى ، وبرغم أن الباب كان موارباً .. إلا أن رهبته من سخط أبيه جعلته يتردد ، يتقدم تارة ويتراجع أخرى ، فلا أحد يقترب من هذا الجناح إلا الجيوشى ، ومرات قليلة تلك التي تمكن فيها من الولوج إليه بصحبة أبيه ، وبقدر !

كان الجيوشى قد إنتخب هذا الجناح خصيصاً لخلواته الخاصه ، فيه يحتسى الخمر بمنأى عن حاشيته حتى لا يرى أحدهم تبدل هيئته وضعفه وكثير مما تفعله الخمر برأسه ، كما أنه ملاذه الأخير الذى وضع فيه جثمان أبيه محنطاً .. ليرفع عن رأسه الغطاء ويستشيره في الأمور العظام ، وإستحوذ بالجناح على كلب شرس .. كان يطعمه بنفسه حتى لا يدين بالولاء لأحد ، يلقى إليه في النوبة الواحدة لحماً بما يعادل جسد شاه ، وما إن يتشمم رائحة أحدهم يقترب حتى يزأر كأسد بالغ ليفتك به ، ولعظيم شراسته أعد له الجيوشى قفصاً من حديد خاص لا يفتح إلا في وجوده ، وأقام عقوبات غليظة لكل من يقترب من بهو الجناح دون إذن مسبق منه ، وهذا مما لا يحدث أبداً ، حتى أن أحد الخدم أخطأت قدماه ذات مرة فإقترب إخبار الجيوشى

بنبأ هام .. وما إن طرق الباب حتى حرر الجيوشى وحشه فإفترسه فى الحال ! ..

إهتاج الكلب بغتة .. فعرف الجيوشى أن أحدهم يرهف الخطو قرب الباب ، فصاح مخموراً ..

- **من يتلصص بالخارج ؟ ..**

فإنتفض ناصف ، غير أنه لم يجد مناصاً سوى أن يقترب ويُوسع فرجة الباب الموارب ..

- **أنا يا أبتي ..**
- **ماذا تريد ؟ ..**
- **أمر غاية في الأهمية ..**

وبقى ناصف بالخارج ينتظر إذن الدخول ، ولما طال الوقت قال بصوت خفيض ..

- **أتأذن لي بالدخول ياأبتى ؟..**
- **أدخل ..**

وما إن إنفتح مصرع الباب عن أخره حتى إنتصب الكلب هائجاً .. فضربه الجيوشى بيده على أنفه ، فقبع فى محطه كطفل مطيع ، حينها تقدم ناصف بضع خطوات غير أن قدميه تحجرتا على مبعدة من المجلس ، فحدجه أباه ضائقاً ، حينها رمق ناصف الكلب فى وجل وإرتجاف ..

- **ولكن يا أبتي ..**

فقاطعه الجيوشى بعدما بلغ الضيق منه مبلغه ولولا الخدر لكانت ثورته كاسحة ..

- **فهمت .. إنتظر قليلاً ..**

ثم ضرب على كفل الكلب .. فهرع إلى قفصه وإنغلق الباب ، باشره بنظرات مخدورة ثم عاد إلى جلسته على تلك الأريكة العريضة ، أمامه حاويتى خمر إحداهما فارغة ، تقدم ناصف ثم إنتصب كشجرة خريف إلى الجوار من الأريكة ، إنتظر قليلاً حتى أشار إليه أباه بالجلوس ..

- **ماذا عندك ؟ ، أما كانت أنباءك تنتظر حتى أخرج من خلوتي ؟**
- **ما رأيته لا يحتمل الانتظار ..**

وسكت ناصف لبرهة ، ثم قال ..

- **لقد قابلت زُهِير ..**

فمج الجيوشى ما رشفه من خمر فإهتاج الكلب يرج القفص رجاً ..

- **ماذا ؟! ..**
- **رأيته عند المرسى ، ولكن ليس هذا بالنبأ الذي أردت إخبارك به .. لقد وجـــ ...**

فقطع الجيوشى حديثه .. يقاوم شيئاً عظيماً للتو إعتمل بصدره

- **أتعرف مبلغ السعادة ؟ .. أن يموت المرء وهو مخمور ، وهو لا يعرف أنه يموت ! ..**

كيف وجدته ؟ ..

- **ماذا ؟ ..**

فحدجه الأب ساخطاً ، حملقت عيناه وكأنها لم ترتو برشفة خمر واحدة

- **كان بخير .. يأكل ويشرب ويتنفس ، هو على قيد الحياة .. وما عاد يفتقدنا ..**

فنظر إليه الجيوشى هازئاً ..

- **لو سألت أحد بغال حظائرنا لأفادني .. كن بغلاً أمينا وآتيني بوصف أدق ..**

فرمق ناصف أبيه ملياً ، صدره يتعثر فى أشياء شتى غير أنه نطق بالأخير يحاول عبثاً تدقيق وصفه ..

- **الكثير من الهدوء والقليل من الكلام ، لا يجيب على أكثر الأسئلة ، أو قل يجيب بأفعال غريبة بائدة ، باتت رمقاته هي وسيلته الوحيدة للبوح بها يجول بصدره .. رغم كونه كفيفاً ..**

- **ما أسخفك وأسخف كلماتك!، أتصف لي حالته أم محاسنه ؟!**

ثم إستقام يترنح بكأس يموج فى يده .. إنتصب أمام الشرفة شارداً إلى قبة الوادى الشاهرة ، يقول لناصف الواقف خلفه ..

- **حمار سافر .. محال أن يعود حصاناً ! ، وما كان داعي ذهابك إلى هناك إذن ؟ ..**

فتلعثم ناصف ..

- **فقط كنت ماراً إلى الجوار من الشاطئ ، محض نزهه ، فرأيته ودار حديث عابر بيننا .**
- **وماذا حدث بعد ؟ ، إني أسمعك ..**
- **أرى أن العراف أصاب حين قال بأنه هو من جلب علينا اللعنة ، فذاك الجنيّ الذي حدثنا عنه ظل يلاحقني طوال ممشاي على الشاطئ .. كنت أتسمع حفيفه ، وعند إقترابى من قاربه أمسك بساقى .. كاد أن يغرقني ..**
- **أي هراء ذاك الذي تنطق به ؟ ، وما هى رغبة كائن من كان أن يخاوى ضرير مثله ؟ ..**
- **يا أبتي ، إن ما أقوله هو الصدق ، ما يحدث أدعى أن نفكر شيئاً ما ، فبينما يخاوى هو جنيّاً .. تحدث لنا كل تلك النكبات ، أثق بأن الإنتقام يعتمل بصدره ..**
- **لن تثير حفيظتي تلك الأباطيل ، تعلم جيدا كما يعلم هؤلاء المخرفين أنها لن تنطلى على قريحى ، لو باح بها غيرك ، هكذا صراحة ، لأرديته قتيلاً ..**
- **ولكن يا أبتي ..**

فألقى الجيوشى كأسه المملوء .. فإصطدم بقضبان القفص ليتحول إلى شقف شتى من البلور .. ناثراً خمره على وجه الكلب الرابض

- **أغرب عن وجهي .. ولا تكرر على مسمعى هراءك ذاك**

وإهتاج الكلب لما رأى صاحبه ثائراً فإندفع من محبسه بإتجاه ناصف

ليفتك به ، فما كان منه إلا أن وثب خارجاً موصداً الباب خلفه ، بينما أفرد الجيوشي راحته فكرَّ الكلب على عقبيه يلثم يده .. ثم جلس بالأخير خانعاً إلى جواره ..

....

في الغداة ، كان الجيوشي على فرسه يتحرى نماء الأرض الراسية إلى الجوار من جرف الوادى ، يسير إلى جواره أخيه قاسم يمتطى فرساً أشهب .. يحوطهما زمرة من حراسة خاصة ..

وبينما كان الركب يمر بمحاذاة جرف الوادي الجنوبي إنكشفت ساحة الضريح والبئر .. وتراءى للجيوشى تلك الجلبة الدائرة هناك كعادتها ، لوي عنقه جهة اليسار صوب الرقعة الغربية من أرضه عند نهايتها .. فرأى أن الإصفرار قد أصاب أوراق الكرم ..

- **أرى أن البوار يزحف إلى الأرض ، أما له من رادع ؟!**

فنظر إليه قاسم ينتدى حرجاً ..

- **لم نجد طريق إلا وسلكناه ، بيد أن الأرض تُفنى خصوبتها ذاتها بذاتها ، غداً نستدعى العرافين ليروها ببعض من مياههم الطاهرة المقدسة**

فند الجيوشى تنهيدة هزء

- **طاهرة ! ..**

فإقتطع حديثه صوت شبيكة يهتف ..

- **{ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ }** ..

حينها لم يبال الجيوشى ، إلتفت إليه لبضع لحظة ثم رمق أخيه ضائقاً

- **لا أدرى كيف تصدقون هذا الهراء ! ، لن يطأ أرضى رجل من أولئك الحفنة المخرفة ..**
- **إذن فما لدينا إلا شيخ المسجد ، إنه رجل صالح زاهد .. ولا ريب أن لديه مخرجاً ..**
- **ما أتفه حيلكم ! ، تبدأ بعراف مشعوذ .. لتنتهي بدرويش مرتزق يعيش على النذور ..**

فإنداح صوت شبيكة يموج بالقرب .

- **{ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَّ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } ..**

غير أن الجيوشى كعادته .. لم يكترث ، وكأن أذناه قد صُمت عن صراخ شبيكة خصيصاً ، وقتئذٍ إقترب قاسم من أخيه قبل أن يتفاقم الأمر ..

- **لا تنس يا أخي .. إنهم خدام ضريح جدك يَمَـان ، ولا ريب أنه دعَّمهُم بالحيلة والوسيلة والبركة ..**
- **إن عقولكم محشوة بالقش ، لا تفكر ، أنا لا أؤمن بتلك الترهات والتهاته .. فمتى كان الدجل وضرب الأصداف حلاً ، إنها محض حماقة وجنون ، لقد أوتينا من الهيمنة والقوه ما أخضع لنا رقاب أعتى الرجال .. أيستعصى علينا أمر أرض صماء بكماء ؟! ..**

فهسَّ قاسم لنفسه .. " أقوى الناس في الحقيقة أضعفهم .. وما أقوى من ظن نفسه ضعيفاً " ..

حينها لوي الجيوشى عنقه نحو أخيه ، يقول في خبث ..

- **قل لي ما حال أرضك ؟ ، أأصابها ذات البوار ؟ ..**

فتحشرجت الكلمات في حلقه ..

- **لا ريب أن البوار في الطريق إليها ..**
- **قلت لى سابقاً أن ثمة خائن بالكفر يكيد لي .. ولأرضي وناسي ..**
- **يا أخي ، أولست من ناسك ؟ .. يُهِمُنى ما يُهِمُك ؟ ..**
- **ولذاك ، إستبدلت كل أرضك بنصف أرضى الهالك .. فلا يليق بكبيركم أن تكون أرضه كندبة جرب فى جسد صحيح .**
- **ولكن ..**

فنظر إليه الجيوشى ثاقباً ..

- **ماذا قلت ؟ .. أرى أن لك رأى أخر ..**

فأذعن قاسم بالأخير .. قبل أن يستشرى غضب أخيه ، ذاك الذى لا يُحمد عواقبه .

- **لا رأى لى إلا رأيك أخى ..**
- **إذن إتبعني لنتحرى تلك الأرض التي لم يضربها البوار**

وإتجها بمطاياهم إلى الركن الشمالى من الكفر .. حيث أرض قاسم ، ذاك الذى خيم عليه صمت لبرهة قبل أن يقول ..

- **علمت بعض أنباء تموج على ألسنة العامة ..**
- **بالطبع يقولون أن زُهِير هو من أصاب كفرنا باللعنة ..**
- **الأمر يعدو كثيراًما تقول يا أخي ، لقد علمت أنه يدبر لك تدابيراً عظام .. إنه يدبر لقتلك ..**

حينها أوقف الجيوشى مطيته بغتة ، مردداً ..

- **قتلى ! ، أرى أن تهاوني معكم جرأكم ، جعلكم تطلقون الحديث على عواهنه .. ولا بد من إخضاعكم وإذلالكم بعض الشيء ..**
حرر مطيتك ..

ثم أشار إلى خدم أخيه ..

- **صفدوه على رأس أرضه ، ولا تحرروه إلا بأمر منى ..**

فقبض حراسه على يديه ووثقوه عند شجرة بالقرب .. وإنتصبوا إلى جواره يتسمعون تمتمته ، أما هو فقد كظم غيظه إلا من بعض عبارات إنطلقت فى نفسه عنوة ..

- **ولا عجب في ذاك ، فقديماً قتل أخ له .. وكاد أن يقتل إبنه ، سحقاً لهذا الكفر يحكمه زبانية جهنم ..**

وكعادته ، يتخير شبيكه الأوقات المناسبة .. مر بمبخرته ناظراً إلى الرجل الموثق ..

- **{ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ } ..**

أما الجيوشى ، فكان قد غادر منذ برهات ولم يعن بأخيه يصفده

حراسه ..

وعلى مرمى البصر ، عند تخوم شاطئ الرَيَّاح القريب ، كانت بعض النسوة عند سفح الجرف الرملي يغسلن أوعيتهن ، إذ إقتربت سيده من نسوة الكفر من جارتها ترجوها أن تساعدها في رفع أوعيتها الثقيلة .. فترجلت إحداهن تنتوى رفع حملها ..

وبينما هي ترفع الوعاء وتضعه على رأسها .. تعلقت عيناهما ببعضهما البعض على نهج غريب ، حتى تكاد كل عين أن تذوب فى بحر الأخرى ، ولبرهة من الوقت .. لاحظت النسوة ثبوتهما على هذه الوضعية المريبة الداعية للشك ، فما لبثن أن قمن يتحرين الأمر .. حتى سقطت السيدة صاحبة الحِمل وقبضت على ساقىّ جارتها وسحبتها إلى الماء ، ثم إختفتا ! ، غاصا فى عمق الرَيَّاح .. فتجمعت النسوة فى إرتياع ، يولولن ويصرخن ..

كنت بالقرب منهن يموج قاربي على سطح المياه .. إذ لمحت زمرتهن الفازعة ، حينها رمقت سيدة أخرى على مسافة غير بعيدة ساهمة ، وقفت مشدوهة تحملق في المياه على نحو غريب ..كانت عيناها قد تعلقت بوعاء من الذهب عائم على سطح المياه ، صرخت فيها لكنها لم تستجيب .. كانت مخدورة ، فجلست إلى قاع القارب .. وملت برأسي نحو المياه هاتفاً ..

- **كفى عن فعلك ..**

فبرزت الجنيه في وثبه واحدة إلى دفة القارب .. حتى أنها أسقطتنى إلى

الخلف ..

- **أكنت تراقبني ؟ ..**
- **أرى أنكى تغافلتى عن مهامك .. وإنشغلتى في مراوغة النسوة .. وإغراقهن ..**
- **وماذا بيدى ؟ ، فتلك هوايتي المفضلة ..**
- **كفى عن هذا ، إنظرى .. المعديّة هناك على مرأى ، حان وقتها**
- **حسناً يا قرين النكد ، لا أدرى ماذا أجد فيك يجعلنى أنصاع لرغباتك**

فهتفت فيها ..

- **كفاكى هزلاً .. أتوق لرؤية عظيم إنتقامك .**

فقفزت إلى الماء ، بينما إقتربت أنا من النسوة أحذرهن ..

- **إحملن أوعيتكن وإبتعدن .. فالجنيه قريبه من هنا ..**

فما إكترثت إحداهن ، فسقط إلى قاربي أجدف مبتعداً .. ليلقين حصاد عنادهن ..

كانت المعدية تعبر من الضفة المتاخمة للكفر إلى الضفة الأخرى حيث محطة القطار .. إذ وجد ربانها السلاسل قد علقت بشيء ما في عمق المياه ، حينها كانت المعديّة في نصف مشوارها ، فدعا الركاب لمساعدته في تحريرها وشدها .. لتمر عبر بكره منصوبة على صارى بالقرب من مقدمتها ..

وفي عمق المياه ، كانت الجنيّة قد إنتصبت تنغرس قدميها فى طين

القاع اللين .. تقبض بذراعيها على السلسلة تشدها بغلظة وعنف ، ظلت تجذبها إلى أن إنفلتت حلقاتها .. فتثرثر الركاب مابين منطرحين على ظهورهم وساقطين إلى المياه ، إهتاج الركاب .. ودارت المعدية بتؤدة إلى اليمين حتى أصبحت بمحاذاة مجرى الرَيَّاح تماماً ، وسريعاً ما إنسحبت إلى الجهة الأخرى ليحملها التيار فسارت معه ..
تعالت الصرخات وضجت الإستغاثات .. وإنتصب الأهالي والخدم على الشاطئين يباشرون إنسحاقها جهة الشرق ، فتعلقت الجنيه بحرف الدفة من الأسفل وجذبتها إلى عكس إتجاهها .. فظلت تدور وتدور ، والمعدية مذعنة تدور معها وتميل إلى الجانبين بعنف .. فإنكسر الصارى جاذباً الأصفاد وجاراً معه مرسى الكفر الخشبي ليسقط إلى المياه ، وتطوح مابقى من الركاب إلى حواف المعدية ، وظلت ترتج بثقلها إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى تسحق التيار أسفلها ، وتغترف الأمواج الصاعدة غرفاً .. إلى أن إغتمرت بالمياه وغاص جانبها الأيسر ، وسريعاً ما إنكبت أثقالها في نفس الجهة فلم تمكث كثيراً ، غرقت غرقاً مريعا فى طرفة عين .. وغاصت بأثقالها إلى عمق الرَيَّاح ، ومن نجي من الغرق لم ينجو من قبضة الجنيه .. خنقتهم ومزقت أشلاءهم ..

"١٥"

بابة

صحا الكفر على أسوأ أيامه ، الوجوه عابسة والقلوب منقبضة ، ثمة مشاعر متضاربة .. تتناوح ما بين الإستهانة بالأمر وتهويله ، لقد مرت تلك البقعة بأسوأ الكوارث .. إلا أنها لم تمر بأيام كتلك تختنق فيها أرزاق العباد إلى حد الجفاف والقحط ، قديماً إفترسا نجوع الجوار .. وسَلِمَ الكفر ببركة شيخهم الجليل يَمَـان ، أما اليوم فتجاسرا عليه ، إفترساه .. فمات العبيد وجاع السادة ..

جاب العرافون بقاع الكفر يرشون المياه المقدسة ، وليست مياه البئر بالطبع .. تلك المياه الدامية المسحورة ، فى كل مكان يتلون طلاسمهم وملغزاتهم ، البوار ليس بجديد على الأرض .. أما الجديد هذه المرة ، والمرعب فى آن .. أن المياه تأبى أن تصل إلى الأرض ، تمتنع تربتها أن ترتوي بها ، المياه تنضب بعد عدة أمتار من شاطئ الرَيَّاح .. حتى أنها لا تصل حتى لربع مسافتها ، تبتلعها تخوم الكفر بشراهة .. فأصاب أواسطها وعمقها ظمأ عنيف ، مميت ، تشقق أديمها .. حتى باتت شروخها عريضة للغاية ، ناهز بعضها النصف ذراع فرعت فيها الثعالب وآوت جيوبها العظام أوابد الوحش ..

وإبان ذلك كله قامت السماء بأسوأ أدوارها في حرب الطبيعة

الضارية على هذا الجنس البائس ، جفت مزنها وأمسكت غيثها ، مر العام تلو العام والشتاء تلو الشتاء ، والصقيع يضرب أرجاء الكفر دون قطره ماء واحده ، جفاف وصقيع ، وإعتمال مبتور بين الإنسان وبيئته .. والرابط الوحيد بينهم هي المعاناة ..

إندك الكفر تحت وطأة أشد وجعاً من البغي والظلم .. فإهتاج السادة على عبيدهم ، يدفعهم الكمد والغيظ والمعاناة والألم ، قتلوهم وشردوهم .. وفر الكثيرين منهم ، بيد أنهم إستعاضوا بثرواتهم وذهبهم في شراء المزيد من العبيد ، أغروهم بقوه المال وسحره ، وإستخدموهم في جلب الغلال وشتى زروع الأرض وأطيابها من قرى الجوار ، لقد ضرب القحط كفر يَمَـان دون غيره ، وبالأخير إنصاعت رؤوس سادته حيال خيرات قرى الجوار .

إنفجرت الهواجس والريبات فى رأس الجيوشى .. وتميز قلبه بالحسرة ، ما من حيله إلا وسلك دربها .. والكفر كل يوم في إجتماع ، أمام القصر تارة ، وفى ساحة المقام تارة ، لا ريب أنها لعنة .. عاشوا ويلاتها دون أن يهتدي أحدهم إلى أنهم هم أسبابها ، كل ما عنت به ألبابهم .. من الفاعل ، من صاحب الطقس النجس ! .

هجرت السيدات قاعاتهن الفخمة ، وهبط السادة عن عروشهم المهيبة ، نزلوا عن مطاياهم .. وساحوا بين العبيد والمنجمين يتدارسون الأمر ، يبحثون عن الحل .. وقبل ذلك عن الخائن ! ..

سادت رقصـة النائحـات الجماعيـة على الوطـن المحتضـر .. والسادة

زهيدي الحيلة ، أهال النساء التراب على رؤوسهن ، شقوا الجيوب ، تلاطموا ودبدبوا ونوحوا ، وإصطفكت الأيادي أسفاً .. على تبدل الحال من العز والإباء إلى الذل والمهانة .

تذكروا الله ، اليوم فقط تذكروا أن لهم إله عزيز متجبر .. يكسر أنف كل متكبر ، بيد أنهم تذكروه على طريقتهم ، بالطلاسم والتعاويذ والتضحية بالقرابين البشرية .. فما تبدل شيء ، أفنوا خدامهم وخصاص ما ملكت أيديهم .. وبالأخير إستداروا إلى صفوة أبناءهم وحسان بناتهم ، ولا جديد ، الحال يسوء حتى أنه كاد يخنقهم ، يرفتهم حسرة وكمدا ..

حتى جاء اليوم الذى إنتصب فيه الجميع أمام المقام .. يتقدمهم الجيوشى وقد تبدلت ملامحه .. خلعت عليه الأحداث الكثير من علائم الإعياء والأرق ، اليوم لا مطايا ولا موكب .. فقد ماتت أكثر أفراسهم وهلكت دوابهم ، وما بقى منها لا سبيل له للخوض في أرض شرّخها البور وصدعها الجفاف ..

العرافون والمنجمون كعادتهم يناظرون ضريح يَمَـان .. الجميع يجثوا على ركبتيه رافعاً يديه منفرجتين إلى السماء ، والبعض يضمها قبالة وجهه .. يمارسون طقوسهم المعهودة في مثل تلك الظروف ، يهمهمون ، يتمتون ، يغمغمون .. تتحرك شفاههم بأشياء شتى وكأنها تضغضغ الحديث ، دون أن تقول شيء ! ، يفعلـون ما يفعلـوه كل مره .. وأنى للسماء أن تستجيب ..

حينها ولما طال المكث تقدم الجيوشى زاهلاً فلكز كبيرهم بعصاه ، هاتفاً ..

- **كفاكم عبثاً ، أكلت الشمس رأسي ..**

ويبدو أن قياد أموره وهيمنته قد إنفلتت قبل هذا اللقاء بكثير ، فقد إستدار إليه كبير العرافين متذمراً ..

- **قلنا لك يا سيدي مراراً أن الخائن هناك عند المرسى .. فوصمتنا بالهراء والخرف ، فما لدينا الأن سوى طقوسنا ..**

ليأتى صراخ شبيكة فى ميقاته ، ذاك الذى لم تغيره الأحداث .. على ديدنه منذ سنوات ! ..

- **{ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا } .. { فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا } ..**

آنها كان الجيوشى يردد ساخطاً ..

- **أنت حر في معتقدك وطقوسك الخاصة ، أما اللعنة فقد أصابتنا جميعاً .. أهلكنا الله قبل أن ننصاع لعقول تسوقها الخمر ويروضها الخدر ، ذهبت ألبابكم فأردتم أن تذهبونا معها ، سرنا وراءكم أعواماً مديدة .. ولا جديد ، إن لم تجدوا لنا مخرجا سأبيدكم جميعاً ..**

نظر إليه كبيرهم تعلو محياه إبتسامه خبيثة .. الكل يعلم أنه لن يفعل ، فلطالما رعد بتهديده هذا .. لكنه بالنهاية لا يفعل ، يعلمون جيدا مهابته ووجله من شيخه وجده يَمَـان ، وأن قتل واحد من خدام

ضريحه ومريديه .. سيكون أذوناً بسقوط عرشه ، وإنقطاع ذاك المدد الذى أبقاه وذويه على رأس العباد كل هذه السنوات ، هو لا يؤمن بالعرافين ولا بالشيوخ ولا بيَمَـان نفسه .. فقط يدفعه الخوف على سلطانه وعرشه أن يلبى ما تفوه به ألسنتهم من ترهات وخرافة ! ..

كان العرافون ولأخر لحظه يكنون للجيوشى إحتراماً وتبجيلاً ومهابة .. هي في جوهرها إصطناعاً توقير زائف لا مناص منه .. بيد أنهم لم يعلموا أن تلك المرة تختلف ..

نظر كبير العرافين إليه ، ثم قال بلهجة غير مبالية ..

- **تريث يا سيدي ، فقط الإصطبار هو الحل .. إن الله يمتحن عزيمتنا وجلدنا ..**

فأثار هذا الهدوء السمج والرزانة التى لا تعن بهيبته حفيظته ، دون أن يفكر ، ترجل الجيوشى عدة خطوات صوب أحد خفراءه .. وإنتزع سلاحه ، وأطلق كبير المنجمين عياراً وطن في قاع رأسه .. فسقط بقية العرافين على ظهورهم مباغتين ، وما لبثوا أن تثرثروا من حوله مرتعدين ، خاصة عندما صرخ فيهم الجيوشى ..

- **إن لم تنتهي تلكم المهزلة .. فسينالكم منى ما نال كبيركم**

ثم ألقى سلاحه أرضاً وخلى سبيلهم .. يحدوه غضب عارم ، وتدفعه حسرة ربان تغرق سفينته أمام عينه ..

- **{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ }** ..

كانت أخر صيحة رددها شبيكة قبل أن ينفض الجمع .

شردت عينى ملياً في مشهد تلك الركائب السائحة على الجسر .. تروح خاوية وتجيء مثقله ، ملأى بالغلال والزروع ، بقدر ما آلمني حال الكفر وما آل إليه ، وناسه يسحقهم الجوع والقحط .. بقدر ما شعرت أن مصابهم الجلل يثلج صدري ، ويسترد ثأري وثأر عمى وابنته جملةً واحدةً ، أما ثأر أمي .. فقد كان له تدبيراً أخر ، أكثر حبكة وأشد وطأه ..

حينها كانت الجنيّة تجلس إلى جوارى عند مؤخرة القارب إذ طالعتنى فى دهش وعجب

- **ما لى أراك مهتماً لما أصابهم ! .**
- **أنى للهم أن يجد بصدرى موطناً بعد اليوم ، فقط إنه الصمت فى محراب القدر .. عندما يقرر أن يقول كلمته ، اليوم تسترد الحقوق والمظالم .**

إبان ذلك ، نظر المسحور نحوى ساهماً ، يستند برأسه وراحتيه عند حافة القارب .. وقد غاص نصفه فى الماء .

- **لكم تقت شوقا لأحاسيس كتلك .. تشعرنى أن لمحبسى فكاك يوم ما .**

فنظرته الجنيه لا تلوى إلى شيئ مما يقول ، ومما زاد حفيظته إحتقاناً أنى كذا لم ألتفت .. بل أردفت

- **لك مظلمه ولى مظلمة ، والظالم أخر ..**

فلوي المسحور عنقه ممتقعاً في غير اقتناع ، فقلت ممتناً علّى أكسر حدة

هذا الإحتقان الذى بدى بكليهما .

- **لكم أنا مدين لكما ، ولمعروفكما .. الذى منحنى تلك المشاعر الجذلى التي تجوب بصدرى الأن ، منذ نيف وعشرين عاماً والأتراح تشغله .. ولولا إخلاصكما ودعمكما ما رأيت هذا الإنتصار بعيني ، حقا لا شيء كالفرحة يطيل العمر ، فالحزن يقصفه .. والكمد يدفنه ..**

فشده المسحور فى أساريرى فينة أخرى .. فرمقته مبتسماً ، ويبدو أن شيئاً ما قد إنتهب إلتفاته ، فقال ..

- **أرى أن نشوة الفرح قد ألهت عقلك وأذهبته ، ألم تلحظ أنك ترى الجسر والركائب وما حملت جيداً .. يبدو لى أنك قد برئت من كفاف بصرك ، قل لى أنى على حق ! .**

وقتئذٍ تحسست مقلتاي .. ثم رميت بناظري إلى الجسر ، المياه ، الضفاف ، الأشجار ، شواهد الكفر وقلاعه .. فإمتلأ صدري إنشراحاً ، فشهقت شهقة طويلة ! .

- **ما أجمل لحظات الوصول ، ما أحلاها .. لكأنها فى صدرى قهقهات طفل يغنج ، يتردد صداها .. فيأتينى رجيعها سعادة لم أشعرها من قبل ! ..**

ثم عدت فرمقت الجسر الرابض هناك بعيدا ..

- **ما أعجبك من جسر ! .. كم أدهشنى ، ساق لى الموت مرات ومرات .. واليوم يهبنى الحياة بثمن باهظ ، ذاك الجسر كان**

معبرى للمرور من عوالم لطالما كرهتها وسئمت العيش فيها .. إلى عوالم أخرى لم أستشعر صدقها من قبل ، دوماً ما كنت أتوق للوطون فى مثلها .

فبادرتنى الجنيّة ..

- **أهذا أقصى ما كنت ترنوا إليه ؟! ، ما أعجز أحلامك ! ..**
- **بالطبع لا .. لازال أمامنا ما نفعله ، ولكنها بالنهاية خطوات عظام .. ألا ينبغي الفرح بها ؟! ..**
- **خذ أقساطك من السعادة ما شئت ، ولكن تذكر أنه لازال عندي من الحكأ ما سيجعلهم يتمنون القبر أحياء ..**
- **أجارنا الله من شرك ، إنك لشيطانه .. أفانينك ترهبنى**

وفى هدوء رتيب .. نظر إليها المسحور بدوره هازئاً ..

- **وها هو قلبى قد إطمأن .. بأني سأظل رهين عجوز شمطاء**

فسحبت أصفاده بغلظة لينسحل على وجهه من المياه إلى أن وطن بالأخير منكفئاً على الشاطئ ، فقلت مناهضاً ..

- **لا تفسدا مرائي .. فمنذ سنوات لم أعش لحظات كتلك**

فقام المسحور مكروباً يلتصق رمل الشاطئ بوجهه وجسده المشعر

- **لا تكترث بنا ، فهذا نهجنا في الإحتفاء برفقاءنا .. لطش وركل ولطم ..**

ثم جلس غير بعيد يزيل عن جسده ما علق به .

"١٦"

أمشير

جلس قاسم موتوراً يتفقد إماءة من حارسه تارة ، ويصطف إلى هذا اللقاء السرى الذى يجمعه بكبراء العرافين ورهط من سادة الكفر المنكودين بقصره تارة أخرى ، أكثر ما يخشاه الرجل أن ينكشف أمر هذا اللقاء .. وخاصة بعدما إستُبعد الجيوشى عنوة ، ذاك الذى ساءت حالته وقبُح منطقه فى الآونة الأخيرة ، ومما فاقم الأمر أنه ما عاد قادراً على التحكم في نفسه وتصريف شئون رعيته بحكمة ، لم يبق فى جعبته سوى السباب واللعن أو القتل .. فى حين ناهزت أوضاع الكفر نقطة لا تُحتمل ، إنفلت قياد كل شيئ تباعاً .. والطقس النجس المدعو يسقط جام لعناته فوق رؤوس الناس ، فكما بارت الأرض .. بار الرجال ، حتى أنه لم يعد أحدهم قادراً على الإنجاب ، حتى شبابهم فقدوا خصوبتهم ، بل وإستجابت النسوة لبوار الرجال فإنقطع حيضها في منحى جماعي .. وما عادت ضروعهم تدر لبناً ، بل دماً ، تشاركهم فى ذلك الدواب والأشجار ، الكل ينزف دماً ، وبمجرد أن تنجب إحداهن " من أولئك النسوة اللائى لازالت فى خصوبة رجالهن رمق " وليداً .. يموت الرضيع مع أول رشفه من نهد أمه .

ورغم إحتمالهم لتلك النكبة لأكثر من عامين ، ورغم أن نسلهم في سبيله إلى الفناء والإنقطاع .. إلا أن موت إحدى نساءهم كان نذير شؤم لم يحسبوا له حساباً ، فالسيدة البائدة كانت قد تزوجت منذ سبعة شهور من أحد سادة نجع القفاصين في الجوار .. بعدما إستشرى العقم في أصلاب رجالات كفرها ، وهى الراغبة في ولد يحمل إرثها ، ذاك الإرث الذى يكمن فى جوهره صلب الكارثة .. فقد إقتضت الأعراف إنتقاله إلى حيازة الزوج الغريب ، بما يعادل أرض الوادي مرتين .. في زيجة لم تكمل حولها الأول ، وبرغم قدرة سادة الكفر أن يلفظوا الرجل دون حقوق .. بيد أنهم ورَّثوا قبله رجلين من كفور مجاورة ، فى زيجات مماثلة ، لكن الإرث لم يكن يعدو بضع قراريط .. وليس ما يناهز المائة فدان ..

إهتاج الحضور فأسكتهم قاسم خشية إنكشاف أمرهم .. فقصر الجيوشى قبالة قصره تماماً ، لا يفصلهما سوى الممشى العريض المؤدى إلى الجسر ، صرخ فيهم ..

- **إهدأوا .. ستوردونا المهالك ، ما كانت الثورة يوم ما حلاً ..**

فتذمر أحدهم ضجراً ..

- **يأبي عقلى أن يتصور أن يركب غريب أرضى بعد مماتي ، أهلكها الله بهلاكي قبل أن يجرى هذا ..**

فبادره أخر ..

- **أراكم قد تغافلتم عن أصل الكارثة ، البوار الذي ضرب**

رجالات الكفر وسادته .. ذاك ما يستأهل نزاعكم ، رجولتنا المذبوحة أهم ..

- **بماذا تهذى ؟ ، الأرض أكثر أهميه .. تلك التي كنا يوماً ما مشردين عنها نتوق للثم حفنة طين منها ، بدونها لا قيمة لنا**

وإهتاج الجمع متحزبين ..

- **الأرض ..**
- **رجولتنا أهم ..**
- **الأرض أهم**

ليباغتهم بالأخير شبيكة ..

- **{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } ..**

فصرخ فيهم قاسم ..

- **أبادكم الله .. لم تتجمعوا يوماً على رأى ، يا ساده كلاهما مهم ، إذا كانت الجلسة ستدور على هذا النهج الهمجي .. فلتنصرفوا من بيتي ، فأنا لا أحتمل الصدام مع أخي**
- **ما عهدنا تلك الفجاجة منك ..**
- **أتمجنا من قصرك ! ، لنا أيضاً قصوراً نتدارس فيها أمورنا**

وإنتصب البعض نافراً ، فناهزهم قاسم ..

- **تعلمون أنه ما كان هذا مقصدي ، ولكنـ ...**

وقبل أن يتم عبارته جاءهم صوت عويل ونواح بالخارج ، بكائـيات

جنائزية فجة ضربت مسامعه ومسامعهم ..

- **(البين قاللى رباية عز لأهينك ، أكسر شمالك وأخليكى بس بيمينك ، وأشيلك حمل عمر ما نظرته عينيك)**
- **(تستاهل العين محوار نار ورفروف وصوف ، اللي تفوت الأصيل وتدور على المتلوف)**
- **(حشيتهم يا بوار حش الملوخيه ، اللي بارم شنبه لِيّه على لِيّه)**
- **(لو كان ليا جمل في وقت الشيل .. خطا بي ، ما كان غراب البين حاربني وخطابى)**
- **(شيلوني التراب بعد الحمول العال ، صبحت عيان قوى يلعبو بيا العيال)**
- **(حلف الصفا ما أنتقل لعويل ، بدلتو الجمال البخاتى كلهم بعويل)**

هجع الجميع إلى الخارج ، فإذا بنساءهم زمرات يولولن .. يفضحن رجالهن بيكائيات نادبه ..

فسقط قاسم في محطة ..

- **هلكت وافتضح أمري ..**

لم يبال السادة بكارثته ، كما لم يكترث أحدهم بحراس الجيوشى الذين تنبهوا لما يحدث .. وحتماً سينو الخبر إلى سيدهم ، وطفق السادة يحرضون بعضهم البعض ، صارخين ..

- **إقتلوهن كما قتلت زوجتىّ ، إنتصروا لرجولتكم المهانة**

- **ذبِّحوهن .. وإستبدلوهن بأحقر إمائهن ..**

وقاسم في محطه فزعاً ، يتمتم كالمصروع وقد تعلقت عيناه ببوابة قصر الجيوشى ..

- **أهلككم الله .. أهلكتمونى ..**

وهنا صاح أحد العرافين ..

- **لعنة الله على من صب علينا اللعنة .. أباده الله وما رده ، إن خير ما فعلتموه أن لفظتموه من دياركم .. لقد جلب عليكم طوالع النحس والسوء ، ليتكم فعلتم كما كان يفعل أجدادنا .. ليتكم ألقيتموه إلى وحوش الجبال ، ما كان .. وما كان شيطانه ..**

فلوى أحدهم عنقه إليه هاتفاً ..

- **فعلنا ما هو أكثر من ذلك ، أغرقناه ، حكمنا عليه بالذبح ، ألقيناه إلى ظلمة القبور .. وبالنهاية نجا ! ، وكأن بينه وبين عزرائيل موثقا.. إنه الشيطان بعينه ..**

فإنبلج إليهم شبيكة من بين جموع النسوة الفازعة ، صارخاً في وجوههم ..

- **اتقوا الله أفسدتم دنياكم بينكم .. وأهلكتم أنفسكم بأنفسكم ، لا عدو لكم سوى ذواتكم .. لا جنيّاً ولا شيطان ،{ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ } ..**

وإنسل أحدهم يتقهر ندماً ..

- هل من رذيلة إلا وفعلناها ، هل من كبيرة إلا وإقترفناها .

تصاعدت الأصوات وتناوحت الولولة والعديد .. والرجال ينفرط عقدهم ، بعضهم ثار ثائره يضرب ويركل .. وبعضاً أخر يسب ويلعن ، وآخرين وقفوا مشدوهين .. حائرين لا قرار ينبو عنهم ، لا تقدم ولا تقهقر ، في صراع ذاتي .. يتنازع الكبرياء والثأر والانكسار فى أعماقهم ، عراك محموم .. ما إنفك أن تحول إلى حرباً حاميه الوطيس ..

هرج ومرج ، صراخ وعويل ، عنت وخنوع ، دين ودجل ..

وبغتة دوى صفير بوابة القصر ، إنفتحت .. وخرج فوج من الحراس ، وما هي سوى لحظة زمن حتى ظهر الجيوشى .. وقد تغضت أساريره ، عابس مكفهر .. عراك أخر يكوى طلته ، إمتطى فرسه ينثني سوطه في قبضته ، مرت برهة قبل أن يبرز الحراس سياطهم ، سوداء غليظة .. تلتمع بطلاء من زيت خاص ، أعد لظرف خاص ، وفى أقل من طرفه بصر أماء سيدهم برأسه .. فهجم الحراس بسياطهم تصدر فحيحاً مرعباً ، إنسلوا بين النسوة وحولهن .. وطفقت السياط تصرخ على أجسادهن ، فهجع بعضاً من الرجال إلى ردهة قصر قاسم .. وفر أخرين إلى الأرض والخلاء ، ولازال قاسم ساقطاً ينظر فى وجوم .. يرمق أخاه تارة والحراس الهائجين تارةً أخرى ، مذهولاً ، وناله ما ناله من لفحات السياط ..

دوى الصراخ ، وتضاخمت البكائيات تتردد حارة مؤلمة ، كلما تلفحت

إحداهن بضربة سوط صوتت .. ينفجر حلقها لتثب في محطها ، تلتاع بحرقه مؤلمة أيما ألم ، وما إنفك أن تحول المشهد إلى تنافس محموم للجعير والنعير ، وكأن الجحيم فُتحت أمامهن على مصرعيها .. وأغلقت وراءهن ليخلدن فيها ، غرقوا في شيء مهول ، الهلع والتوتر والرهبة تضرب صدورهن ، قلوبهن تخفق برقع عنيف .. دقاتها مدوية مرعبة ، إرتعشن في نشيج عصبي تتلاشى فيه شهقاتهن وزفراتهن ، عجيج من صرخات متضاربة مقهورة ! .

ورجيع صرخات شبيكة يتواتر فى حلقات

- **{ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ }** ..

وكعيدان تضرب فتنكسر .. سقطن الواحدة تلو الأخرى فى عواء متفرق كعواء الجراء ، تجوس النار فى أطلالهن .. فتنبعث من أجسادهن المتهدمه حرارة مستعارة ، حاول بعض الرجال التدخل لإنقاذ زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم.. فصرخت السياط على أجسادهم ، وأوغلو فى تشنج " وفرفصه " ، فزعوا كشاةٍ تساق إلى الذبح .. فذهبت نفوسهم شعاعاً ، وتفرقت هِممهم ، فروا بالنهاية إلى حدود الساحه جبناء ! ..

الذهول جمد عينىّ قاسم .. كصنم لا يختلج له جفن ، يفيق مرتعشا من هول الكابوس .. ليغرق فيه ثانياً ، وتشكل الخوف فى عينيه جحوظا مرعبا ..

أشار الجيوشى بيده .. فسقطت السياط عن الجميع ، مر بناظريه

عليهم .. كانوا كأعواد حطب تكسرت وتكومت ، تساندت بعض النسوه الغريبات ، المجلوبات من كفور أخرى ، واللاتى لا يربطهن بعشيرة يَمَـان صلة .. سوى كونهن زوجات لبعض من رجالهم ، صِحن .. صرخن بأعلى أصواتهن ..

- **طلقونا منهم .. ما عاد لنا رغبة فيهم ..**

وهنا نطق الجيوشى ، تحرك بفرسه نحو زمرة الرجال المذعورة

- **من كانت زوجته فيهن .. فليطلقها ..**

فأطلق بعضهم أيمان الطلاق البائن .. بينما تذمر رجل وتبعه أخرين ، فصاح الجيوشى فى وجوههم ..

- **إما الطلاق .. أو تُقتلوا أجمعين ..**

فجَبِنُوا .. وطلقوهن مرغمين ، فإنبجلت أسارير النسوة كمن فر من عقال ، قمن يتحركن فى مشق سافر ، تجمعن ثلة واحدةً .. تتلاقى أياديهن وأجسادهن فى إستبشار جماعى ما قطعه سوى صراخ الجيوشى فيمن كانوا منذ لحظات أزواجهن

- **جردوهن من ملابسهن ، وأطلقوهن خارج الكفر عرايا .. يبحثن عن رجال يروين عطشهن ، ولينظرن كيف سيفعل الكلاب مالم تفعله الأسود ..**

فإلتف الحراس حول الأزواج والنسوة فى دائرة .. تتبدى منهم السياط والأسلحة شاهرة ، فما ملك الرجال إلا أن جردوا النسوة من أرديتهن .. ولفظوهن خارج الكفر ..

- **القصاص .. { وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } ..**

ما كادت أشباح النسوة السافرات أن تغادر نطاق الجمهرة .. حتى إنبلج من بين نسوة الكفر .. زوجة ناصف وزوجات أبناء قاسم ، وحلت كارثة أخرى ، فوجىء الحشد بأنهن أيضا يطلبن الطلاق ! .. جفل الجميع فى عجب مما عسى الجيوشى أن يفعل معهن ، هن أخص عشيرة يَمَـان ، تربطهن صلة قرابة ورحم ، فزوجة إبنه ناصف هى فى الأصل إبنه أخيه قاسم ، كما أن إحدى زوجات أبناء أخيه هى ابنته ..

هب قاسم مفزوعاً مبهوتاً من هول ما يسمع .. رقأ الدم فى وشائجه وإتسعت حدقتاه رعباً ، أنفاسه تتسارع وتتهدج فى وتيرة متضاربة .. يرتجف كمن أصابته الحمى ، بينما أطلق ناصف ساقيه للريح منكبا على زوجته الحبلى .. مكث يركلها ويلطمها يوارى على ما نطقت به ، علّ ضربه لها يطمس ما قيل وتنطلى على أبيه الحيلة فيحجم عن إيذاءها ، أما الجيوشى نفسه فلم يصعقه الخبر ، لم يختلج له جفن ، نظر إليهن فى شبه برود معدنى .. وفى أقل من طرفة أبرز بندقيته وقتلهن جميعاً ، سقطن جملةً واحدةً .. وكأن صاعقةً من السماء هوت فوق رؤوسهن ، وإستدار بفرسه مغادراً الساحة .. وفى إثره حراسه ، ثم ولج القصر وأغلقت البوابة .. وكأن شيئا لم يكن ..

أخرست الفاجعه لسان قاسم .. فتهاوى مغشياً عليه ، وهرع ناصف إلى جسد زوجته يرجها .. ماتت هى وإبنه جملةً واحدةً ، وإنكب بعضاً من الرجال على زوجاتهن القتلى .. بينما هب الباقين .. يسوقون نساءهم بالزجر والركل ، يبغ الدم من أجسادهن بغا ، فورة بعثرت ناس الكفر سريعاً كما جمعتهم سريعاً .. إلا أنها ثرثرتهم يضربهم الكمد والكدر ، الثكل والكلم .. وبالأخير الأتراح والغمه ..

- **{ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ }**

"١٧"

كياك

.. خمسة أعوام أخرى .. الكفر يلفظ أخر أنفاسه ، النزع الأخير إبتلع ناسه .. أباد أهله أهله ، لم يبق إلا شرازم متناثرة متنافرة بأطرافه وعمقه ، تحزبت وتشتت .. فضعفت قوتها وقلت هيبتها ، ركنوا الحياة وإستسلموا للخيبة والخذلان ، كان لذاك النهار الذى أخرج فيه الجيوشى زوجاتهم عرايا وقتل بعضهن شديد الأثر .. فما عادوا يركنون إلى شىء ، لا مال ولا جاه ، لم ينتصر أى منهم لكرامتهم المهانة .. ولم يملك أيهم الشفاعة ، وفى آن متأخر .. إكتشفوا أنهم لا شىء ، محض خراف فى قطيع يسوقه الجيوشى ..

- **هكذا بات حاله ، يأتى كل يوم إلى هنا .. ويجلس إلى الجوار من الساقيه ، إنعزل عن الكفر وناسه .. وأصابه إكتئاب شديد ، ذات الإكتئاب الذى ضرب جنبات البلد ونواحيها .. فهزم أهلها ، بيد أن رمق ماكث فى إرادتهم .. لازالوا يبحثون به عن مخرج لبوار الرجال والأرض ، بضعة أعوام ولا جديد ..**

هكذا قالت لى الجنيه .. وأنا أرمق عمى قاسم قابعاً إلى الجوار من الساقيه ، منكفئاً على ركبتيه ترحاً قانطاً ، ترجلت عدة خطوات فى

إتجاه مجلسة .. فإستدار يرمق ساحة الوادى ، فإنسللت وراء شجرة وارفه ، حينها قبضت الجنيّة على راحتى ..

- **إقترب ما شئت .. فإنك تراه من حيث لا يراك ..**

نظرت إليه ملياً ..

- **لم يكن قاسياً يوماً ما .. ولا حنوناً ! ، كان دوماً على مسافة منى غير مفهومه .. إلا أنها كانت مقصودة ، لقد تغيرت ملامحه .. هاجم الشيب رأسه وغزت التجاعيد طلته ، إنهزم فى إثر إنسحاقات الكفر ، ولكن ماذا عن أبى .. فرعون تلك الأرض ؟ ، أين هو مما حاق بناسها ؟**
- **أتريد أن ترى ذلك بعينك ؟ ..**
- **أخبرينى فقط عنه ، إلى أين رست مآربه ؟ ..**
- **إستفحلت قوت وتفحش غناه ، تقوَّى بجيش من العبيد والحراس وإستغنى به عن ناسه ، تعالى عليهم فأضحى كأوابد الوحش .. لا يأنس إليه بشر ، هدم المعبد .. وبقى هو**

وقعت عيناى على عمى قاسم وخضوعه ، قديماً كان الرجل الثانى لوالدى .. يعضده ويقوى شوكته ، كان فزاعه أبى إلى أن ضاق أبى نفسه بهذا .. فأرجأه إلى مصاف المطحونين بألة ظلمه وصلفه ، وها هو يقبع كشحاذ شريد بجوار ساقيه مهجوره ، رمقت الساقية .. فدار خلدى بسابق عهدى فى تلك الرقعة ، فسرت قشعريرة بجسدى .. فقلت

- **فلنغادر هذا المكان المقبض ..**

فنظرتنى الجنيّة نظره خبيثه .. ذات مغزى ، ثم قالت ..

- **أما زالت تتعلق بجدران عقلك تلك المشاهد المرعبة ؟! .. كانت فى الزمن التليد .**
- **لم أنسها يوماً .. تهاجم خلدى كلما وقعت عيناى على الساقية ، ولكن كيف عرفتى بأمر تلك المشاهد ؟ ..**
- **قل لى أنت ، ماهو داعى الإرتعاب منها ؟ ، انها محض ساقيه .**
- **انكى تراوغيننى ، انظرى حولك .. وستعرفين داعى الرهاب من تلك البقعة ..**

ودارت عيناى صوب الوادى .. والممشى المتاخم له هناك

- **إننا فى رحبه الثلاثى المرعب .. الساقيه والطاحونه والجبانه ، كم من الحكايا ماجت على ألسنة الجدات عن أولئك الثلاث ! ، وما رأته عينى أغنى عن كل ما قيل ..**
- **وماذا رأت لتحيلك إلى هذه الهيئة التى أرى ؟ ..**
- **هناك على مقربه من الطاحونة .. لاحقتنى ذات ليلة عجوز تتوشح بالسواد ، فبينما كنت أسير وحيداً تسمعت رقع أقدامها على الممشى الحجرى .. فإلتفت فجأة فلم أجدها ، إختفت بعد أن كانت خلفى .. أراها رأى العين ، فظللت أركض وأركض .. أنظر ورائى فلا أراها ، وما إن ناهزت نهاية الممشى يتراءى القصر فى مرمى ناظرى وقفت ألتقط**

أنفاسى ولا يزال الخوف يعتمل فى جوفى ، إستدرت أتحرى الطريق ورائى .. فاذا هى خلفى مباشرة ، لا يفصلنى عنها سوى خطوة قدم ، عجوز ممسوحة العين .. فسقط غامياً ..
وكانت جدتى لأبى قد حكت لى قبل ذلك عن عجوز الطاحونة .. تلك التى تسعى فى لجاج الليل تبحث عن طفل شارد ، وما إن تجده .. تختطفه تحت وشاحها ، تنغرس أظافرها فى صدره فلا يقوى على الصراخ .. ثم تحمله إلى داخل الطاحونة ، وهناك .. يساعدها سراياها من العفاريت فى ذبحه وتصفية دمه على سيور الماكينة ، تلك التى كانت لا تدور إلا بدماء بشرية .. ولا ريب عندى أن تلك التى رأيتها كانت هى " عجوز الطاحونة " .. هكذا قالت لى جدتى ..
فإرتسمت إبتسامة بادرة على مبسم الجنيّة ، ثم أردفت

- وماذا عن الجبانة ؟ ..
- أم تلك فحكاياها مفرطة ، تكاد لا تنتهى حكاية .. حتى ينسل خيط لحكاية جديدة ، كنت طفلاً ألهو وأبناء عمى حول ساحة المقام .. هناك فى الوادى ، فتسللت إلى المقابر لأتخفى منهم ، وبينما كنت أرتكن بظهرى إلى حائط مقبرة منسية .. رمقت عيناى قارورة من الزجاج مغلقة إلى الجوار منى بها شىء يتحرك ، فى بادىء الأمر ظننت أن أحدهم أسر بها حشرة .. ربما ضفدعه أو ما شابه ، قربت القارورة من

عينى .. فإذا بى أرى "قزما " فى طول راحة يد داخلها ، يتعلق بجدرانها ، ويتحرك فاه بحرارة ملحة .. وكأنه يصرخ ، إلا أنى لم أسمع شيئاً مما يستغيث به ، فإنتصبت والقارورة بيدى .. وبكل ما أوتيت من عزم قذفتها إلى جدار المقبرة .. فإنكسرت وتفتت ، وكان الأمر هو أسوأ ما إقترفته فى هذا النهار ، فلقد ذهبت نفسى شعاعاً وأنا أرى هذا القزم يتضاخم ويتضاخم .. إلى أن ناهز قبة السماء ، وأخر ما أتذكره أنى رأيته يميل برأسه نحوى .. فشعرت بطقطقة فى جسدى وشعرى ، ثم سقطت غامياً ، فأرسل والدى بعض خدمه يبحثون عنى فى كل مكان .. فوجدونى طريحاً إلى جوار مقبرة أحد العرافين ، وقد سرى سم أسود فى قدمى حتى شارف ركبتاى ، فعالجونى ، بيد أن أحداً لم يصدق ما حدث ، ولكن بالنهايه هذا ما رأته عينى ..

- أتقصد أن ما رأيته كان جنيّاً .. مثل جنىّ علاء الدين ؟
- من علاء الدين هذا ؟..
- لا عليك ، إنها أسطورة قديمة .. محض خيال ..
- ولكن ما رأيته ليس بأسطورة ، ولا محض خيال ..
- لا تبال ..

وهنا نظرت الجنيّة إلى حيث الساقية وأومأت برأسها ..

- وماذا عن الساقية ؟

- أما هذه ، فقد إعتصرت أذرعتها الكثير من أجساد أجدادى القدامى ، أول من عمّرو الكفر ومهدوا أرضه ، ولا يعرف بالضبط كيف كانت تزهق روح أحدهم فى بداية كل شهر قمرى ؟.. وكأنها كانت تروى الأرض بدمائهم ،

ثم خيم الصمت للحظات قبل أن أهمس فى شرود

قالت لنا جداتنا بأن هذه الأرواح كانت تهيم شاردة معذبة فى ذات الميقات من كل شهر قمرى .. وذاك أن أكثر القتلى لم يستطع ذويهم إلتقاط جثامينهم أو الصلاة عيهم ، فهامت أرواحهم معذبة قلقة لسنوات طوال .. إلى أن جاء اليوم وعقد ناس الكفر صلاة جماعية لهم ..

أذكر أنى قبل أن أتم عقدى التاسع ، وأثناء مرورى ذات صباح بجوار هذه الساقية بصحبة أحد الحراس فى طريقنا إلى مقام يَمَـان .. لاقانى رجل غريب ليس من أهل الكفر ، لازلت أتذكر ملامحه جيداً ،كان طويل أسود .. رفيع كعود ذرة ، ذو منكبين عريضين وراحة مفرودة ، أساريره قرويه حادة .. تنطق بخبث الفلاحين ، يعقد شالاً منقوش .. ويرتدى صديرى وسروالاً يصل إلى منتصف ساقه ..

أذكر أننى دوماً ما كنت أشرد فى تجاعيده الثقيلة .. تلك التى كانت تتراقص كلما نطق حرفاً وكأنها أفاعٍ ناهضة ، وبرغم أنه كان يحمـل سمتاً سجـياً .. إلا أن المهابـةً كانت تشـع منـه

وكأنها هاله تلازمه ..

والغريب فى أمر ذلك الرجل أننى حين سألته عن كنهه .. قال لى أنه " جدى يَمَـان " ، ثم ربت عى كتفى بحنو .. وإختفى ، تلاشى كما يذوب الدخان فى الهواء ، أردت أن أبشر أبى بأنى رأيت جدى يَمَـان .. فما راعنى حينها وجعلنى أتميّز بين الروع والغمة سوى إنكار الحراس أمامه أنهم رأوا الرجل يحادثنى ، ليس إلا أنى ركنت لبرهه أمام الساقيه أهامس حالى .. ثم استأنفت المسير ..

أطرقت لبرهة ثم تنهدت بعمق ..

تلك الحوادث الثلاث جعلت من " الساقيية والطاحونة والجبانة " .. مواطن رهاب قاسية فى خلدى ، حتى بعد مرور كل تلك الأعوام .. لم يتغير فى الأمر شىء ، لازال الثلاثة فى محطاتهم .. ولازات تأثيراتهم فى محطاتها ..

هنا تشدقت الجنيّة على نحو يخالف نهج الحديث

- إنه لمن دواعى فخرى أن أخبرك بأن عجوز الطاحونة والقزم المارد وشبح جدك يَمَـان ، وغيرهم كثيرين .. كانوا أنا ، دوماً كنت أتلبس روح ما وأسعى فى الكفور والنجوع .. أرهب من فى نفسه الإستعداد للإرتهاب ..
- لا أدرى كيف أبدى غُمتى وترحى مما تتشدقين بالبوح به ؟! ، أه لو تعلمين كم خلفتى فى نفــوس ناس الكفر من رهـاب

حيال أتفه الأشياء .. لما فعلتى ..

- **أعلم .. ولذاك أفعل ، فتلك نشوتى ، أما عنك .. فكما أخبرتك سالفاً لو لا سلامك لأكلت لحمك قبل عظامك**
- **كفى .. لم أعد أحتمل قبح ما تقولين .**
- **على هونك ، فأنا جنيّة ولست من الملائكة ، حتى الملائكة لو رأيتها على أصل خلقتها .. لذهبت نفسك شعاعاً ..**

بالأخير أنا ربيبة إبليس وأحد عتاد أبناءه الأربع ، الثبر صاحب المصائب والكوارث ، وزلفيون المنوط بالإندساس بين الناس والإيقاع بهم ، والأعور صاحب الزنا وهتك الأعراض والإباحات ، ومسوط صاحب الراية ينصبها فى الأسواق فينشر الخصومات والجدال والنزاعات ..

أنا إحدى سرايا الشر .. وتلك حقيقتى ، فلا تنس هذا .

حينها حملقت فى وجهها .. فتشكل الخوف فى عينى حلقات ، غير أن شعور أخر بدأ يتنامى فى عمقى .. يزعزع كل شيئ ظننته فيما سبق عن حقيقة الظلم والإنتقام ، ترجلت عدة خطوات فوجدت أن صدرى ينقبض مع كل خطوة ، يختلج فى تواتر مؤلم ، بالأخير خطوت .. فكان لابد أن أخطو ، وذاك بعد أن أقمت رأسى وأنعمت ناظرى فى أرجاء الكفر المحتضر ..

أنهينا الممشى الخلفى لمنازل الخدم والعبيد فى سير موتور ، لا هو بالمقيد ولا بالمكروب ، وهناك رمقت قصر أبى كجبل راسخ ثقيل

مهما علت عينى لا ترى أخره ، سرنا بمحاذاة إحدى المراوى قبل أن تلتوى عنقها أمامنا عنوة .. فتحتم علينا إجتيازها ، وثبت وثبه خفيفة إلى الجهة الأخرى .. وإسترعنى أن الجنيّة حطت إلى المرسى الأخر دون وثوب ، بالأخير لم ألتفت ، لويت عنقى بدورى قبالة جرف الوادى فإستقرت عينى عند أرهاط الرجال الجالسين هناك .. فرادى وجماعات أسفل أشجار الكافور ، رجال الكفر وسادته ! ، الكآبة على وجوههم تشبه عبق الأشياء الميتة ، مرارة دفينة وحسرة مكينة .. إنفجاراً من اليأس الممزق والأحلام المنزويه ، هدمهم الإنكسار وخيبة الأمل .. يمضغون الأسى والوقت والترقب .

وما إن شارفنا المدق المؤدى إلى ملتقى فرعى الرَيَّاح بمياه البحر حتى أمسكت الجنيه براحتى اليمنى .. فإنتفض جسدى ..

- **يجب أن نغادر .. فان ضيفاً ينتظرك عند المرسى ..**

"١٨"

هاتور

لم تكد عينى أن تختلج قبل أن أجد نفسى فى قاربى ، إلا أن هذا الثقب العظيم الذى وجدته فى جانب القارب أزعجنى وأثار حفيظتى ، خاصة عندما ألفيت أن بعضاً من الماء قد تسلل إلى قاعه ، حينها لاح لى شبح أخى ناصف جالساً أعلى الجرف قبالة القارب ..

وقتئذٍ تسللت الجنيّة إلى جوارى ، ثم همست ..

- **فعلها جنياً .. أرسله أحد العرافيين بضريح يَمَـان ..**

فإرتسمت إبتسامة عجب من فرط سذاجتهم

- **إن جذورى تتحسس الثقوب فتوصدها ، يظنون أن القارب هو طوفى .. لا يعلمون أن جذورى هى الطافية ، تحمل معها القارب ..**

ورمقت الثقوب .. فإذا هى قد إنغلقت تماماً من ذاتها ، آنئذٍ خلفتنى الجنيه تتأهب للوثوب إلى الماء .. وهى تردد ..

- **ولا عجب ، فلقد إستغرق نوح النبى أحد وثمانين عاماً فى بناء فلكه .. كان الشيطان يستعين بزوجته فيدمره كل سبع سنوات ..**

ثم قفزت غائصة فى الماء حتى ذهب أثرها ..

ولاح لى أخى قاسم يهبط من الجرف إلى أن إستقر على صخرة رملية ، أطرقت لبرهة ثم بادرته ..

- **كيف عرفت بأنى سأصل الآن ؟..**
- **ما عاد يخفى علينا شىء ، لقد نبا إلينا منك ما لم تتخيل عقولنا حدوثه .**
- **إذن أخبرنى ، لِمَ كانت جيئتك ؟ ..**
- **أطمع أن تمد لنا يد المساعدة .. وأن تسامح أبى فيما إقترفه بحقك ، لقد هلك الكفر .. فأهلك ناسه بناسه ، وتجبر أبانا .. فمضى يذبح ويستذل أهله وعشيرته ، ضربنا القحط وبارت الأرض وبيعت .. قبل أن يضرب رجالنا العقم ، جفت المراوى والقنوات والأبيار وملأتها الدماء .. فطافت بسمائنا الغربان والبوم والعقبان ..**
الآن فقط يا أخى .. فطن الكفر لقيمتك وعرفوا منزلتك ، رجاؤنا فيك لم ينقطع فلا تخذلنا .. فإن أهلك يموتون أحياء

وطفرت عيناه بالدموع واجهش ببكاء حار ، فقلت ..

- **وهل هذا حديث كفر يَمَـان وسادته ؟ ..**
- **نعم ، هم من أرسلونى شافعاً أن تُرئ ذاك الجنىّ عنا .. فما عاد لنا طاقه أو إحتمال ..**

فرمقته ثاقباً ...

- **كـذب حديثك .. ما أرسلك أحـد ، لازالـوا علـى ديدنـهم**

وتجبرهم .

فأحنى رأسه مخذياً .. وقد غص الحديث فى حلقه ..

- **قديماً جئتنى هنا ، فى ذات البقعه .. ووصمتنى بالخبال ، عايرتنى بأنك بت مالك قسمتى من حب أبيك وإرثه .. ياﻻ عجبى من تلك الجسارة التى ساقتك لى واثق فى غفرانى !**

فإنكفأ مطرقاً تكاد أن تسقط رأسه عنه قسراً ، جفت عبراته بغته .. ليأتيه من بعيد نواح النسوة ..

- **(حشيتهم يا بوار حش الملوخيه ..اللي بارم شنبه لِيّه على لِيّه)**
- **(شيلوني التراب بعد الحمول العال .. صبحت عيان قوى يلعبو بيا العيال)**

فنظر لى ترحاً محزوناً ..

- **إن حالنا ما عاد يحتمل .. بات أسوأ مما تتخيل ..**
- **أعرف ، تأتينى أبناء صغيركم قبل كبيرهم .. حتى أحقر حشرة فى كفركم ..**
- **ألم يكن كفرك يوماً ما ؟ ..**
- **كان ، محوت ذكره وذكراكم ..**

حينها نظر لى طويلاً .. ثم إستقام بجسده وغادر ، تكسره خيبة موغلة ، يعولها بكائيات النسوة فى أذنه ، لازالت تتردد وتطن فى رجيع مخيف ..

- **(تستاهل العين محوار نار ورفروف صوف .. اللى تفوت**

الأصيل وتدور على المتلوف)

- **(حلف الصفا ما أنتقل لعويل .. بدلتوا الجمال البخاتى كلهم بعويل)**

وهنا برزت الجنية من الماء بغتة .. وجلست إلى مقدمة القارب ترمق جسدى الهامد فى سكون ..

- **أرى أن الشكاية قد إنطلت عليك ..**
- **لقد أوجع قلبى .. وآلمه كثيراً ..**

سكتت لبرهة ثم وثبت إلى سفح الجرف .. ومنه إلى أعلاه ، ثم عادت إلى الجرف .. تسير على الشاطىء جيئة وذهاباً تحاول إثارتى ، فأصابها قنوط حين رأت أن عيناى لا تحيدا عن مقدمة القارب ، فقفزت تواجهنى عن كثب ..

- **ما رأيك فى نزهه بالماء ؟ ..**

فأقمت رأسى إليها فى عجب وإبتسامة فاترة ..

- **نزهه بالماء ؟! ..**
- **نعم ، فى عمق الرَيَّاح .. ألا تتوق شوقاً لرحله كهذه ؟ ..**
- **ليس لدى رغبه فى الإنتحار .. إلا إذا كان لديك رغبه فى سحبى وأسرى ، كما فعلتى سابقاً مع المسحور ..**

حينها شعرت بمزيج غريب من الدهش والإرتياع ، فقلت ..

- **المسحور ! .. أين هو ؟ ، كم من مرة أراكى تشرئبين من الماء دونه ، أكثر ما أخشاه أن يكون عقلك قد ذهب عنكى ..**

فقتلتيه غيلة .

- **حسبك أنا لا أغدر بحلفائى .. لا أخونهم ، فى السابق كان كل رجل عدو لى .. أما أنت فغير .**
- **أعرفك .. لازلتى تراوغيننى ، يكفينى أنه بخير ، بأى حال لا بأس من نزهه كهذه .. ما دامت ستزيل عن جأشى ضيقه وغمته ..**
- **إذن أغمض عينيك وحرر أواصلك ، أطلقها .. وكأنك ستقلع محلقاً فى فضاء رحيب ، دع جسدك يتنفس ..**

وقبل أن أنبس بكلمة ، قالت

- **سينفذ الهواء من جلدك .. وإليه .**

حينها ، وبتوجيهات من الجنيّة .. إعتليت دفة القارب ثم وثبت ، وما هى سوى برهات الصدمة الأولى حتى أرخيت أطرافى .. فإنثال دفق من الهواء إلى أذنى ، وخف ثقل رأسى ، وكسهم سمهرى إندفع جسدى يشق مياه الرَيَّاح ، سبحت كسمكه ناعمة .. تنساح الموجات من فوقى ومن تحتى ، غير أنى لا أستطيع التنفس ، الهواء المحبوس فى صدرى ينفذ .. وقلبى يضطرب هلعاً ، فإنتفخ فمى .. لأزفر أخر فقاعة من الهواء ..

تماوجت شفتاى ألماً .. رئتاى تجف ، حينها شعرت بدوار يترنح برأسى إلى كل إتجاه ، وقبل أن أدرك أن أجفانى لازالت موصدة أمسكت الجنيّة براحتى فإنفتحت عيناى ، لا أرى إلا إخضراراً يزداد

قتامة كلما هبطنا ، دارت الجنيّة حول ذاتها وفى حركة حلزونية سحبت ذراعى إلى الأسفل ، إلى العمق المظلم .
وبغتة ذاب الإختناق .. فتسللت الرطوبه إلى رئتاى ، بت أتنفس بسهولة .. ودبت حيوية من نوع خاص فى إضطراد إلى جسدى ، الأن أغوص بقوه وعزم .. أفعل مثلما تفعل ، ولازلنا نغوص ونغوص .. لم يخطر ببالى أن الرَيَّاح بهذا العمق ، الدرب طويل ينفتح أمامنا شيئاً فشيئاً ..
انكشفت الرؤية .. وإستحال الماء إلى لونه اللا لونى ، أرى بوضوح أكثر مما كنت أرى على البر ، إستدرت بجسدى فى شده أتحرى هذا العالم السحرى .. فإذا بإلتماع فسفورى يضرب عينى ، فتات ككسر الزجاج .. يلتمع وينطفىء ، يسير بتراتب وإنتظام وكأنه كتيبه مصفوفه ، أسراب من أسماك صغيرة منمنمة .. يلتمع قطاع فيه وما إن تتحرك حتى ينطفئ فيلتمع قطاع أخر ، اقتربت فدارت الأسراب حولى فى استقبال أثير مبهر ، غمرتنى بألقها الفضى ، إستدرت رأسياً إلى أعلى.. فتشرثرت من حولى كقطع فسيفساء فضية إنتثرت فى الهواء ، وسريعاً ما عادت فتكتلت تارة أخرى ..
وبغته ظهر أمامى جرم ضخم ، منتفخ ، بدا كسمكة عملاقة لها رأس مكعبه وفم عريض ، إبتلع قطاع عريض من مجموعات الأسماك المنمنمة فى طرفة عين .. فما بقى منها إلا بعضاً ينفر كشرز متطاير ، فسبحت نحو الجنيّة فى وجل يتراقص فى عينى خوف شديد .. فإذا

هى تحدثنى دونما أن تفتح فاها ، أتانى صوتها ، يستجيب مع إختلاج أجفانها الجرداء ..

- **لا تخف .. إنها مسالمة ..**

وماهى سوى برهه حتى مجت السمكه المنتفخه كل الأسراب عن فمها .. فإنتشرت شعاعاً صوب كل إتجاه ، وما لبثت أن لململت شتاتها لتعود إلى سابق هيئتها الجميلة ، دارت حولنا لبرهات .. ثم مضت إلى سبيلها ..

رأيت الجنيّة تغوص للأسفل فلحقت بها قبل أن أضيع فى تيه تلك الدروب المموهه ، شارفنا القاع الراكد فى موات أسود .. بدا فى طيه ونعومته ككثبان من طبقات الطين الكثيف تتصاعد كأبخرة من الدخان إذا ما لامسها كائن مائى ، أو سرباً من أسماك منمنمة ، وثمة شرائط نباتيه طويلة .. تتماوج لتحاكى حركة الماء وتدفقاته ، تتراقص وكأنها فتيات ممشوقات ..

وفى القاع تنتشر الأصداف والقواقع الحية .. تتخذ ألوان وأشكال شتى ، سقطنا قليلاً إلى وادي صغير .. فإذا بى ألمح أضواءاً صاعدة ، كانت صادرة عن صخرة ذات نتوءات حادة .. تملؤها تجاويف عميقه .. مضاءة وكأن بها مشاعل من نار ..

- **إنها عشيرة من سكان القاع ..**

هكذا قالت لى الجنيّة ، كان المشهد مذهلاً .. بدت كقبيلة بدو أُضيئت مواقدها ومشاعلها فى ليل دامس ، ظللت أتحرى جهات النتوءات

والتجاويف .. فتناوب الضوء فى الإنطفاء ، فعرفت أن العشيرة أدركت أن كائنا غريباً فى الخارج ، ربما كان خطراً ، فابتعدت قليلاً لأرى ما يحدث .. فعادت الأنوار تضيء مرامى الوادى من أرجاء شتى .

خلف تبة الوادى وجرفه الشاهق تبدى شيئاً صاعداً .. بدا لى للوهلة الأولى لفيفاً من كائنات الماء ، أو ربما سمكه نافقه ، إلا أن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، صعقنى المشهد حين رأيت أن الصاعد جثة إمرأة .. عارية تماماً كما ولدتها أمها وقد إنتفخ جسدها ، تعلو منبسطة منفرجة الذراعين والقدمين ، وجاءنى صوت رفيقتى ..

- **إنها إحدى نسوة الكفر اللائى ضربهن القنوط والبتر .. فإنتحرن ، هى وطنية القاع منذ ثلاثة ليال ..**

باشرتها بعينى ، ظلت تعلو وتعلو .. إلى أن رست عند السطح حيث ثغرة ضوء تنثال منها الأشعة إلى مدى قريب ، وما إن طفت .. ظلت تدور حول نفسها منبسطه كزهرة ذابلة إرتخت أوراقها

- **لماذا يطفو جثمان المرأة الغارقة على باطنه ؟! ..**

سؤال صعد إلى قشرة رأسى .. أجابته الجنيّة دون أن تفوه بكلمة

- **يحفظ الله للمرأة فرجها .. فينكفئ جثمانها عائماً على باطنه ، عكس ما تنتهجه أجساد الرجال ..**

ظلت عينى لبرهة عالقة بجثمانها ، أتأمل نواميس الله فى خلقه .. قبل أن أنظر جانبى فلا أجد الجنيّة ، إستدرت مفتزعاً فإذا بى قبالة سمكه

قرش ضخمه ، تخترق الماء حتى بانت على مدى قريب من بصرى ، حينها هسّت لى نفسى .. " لم أدر يوماً أن بالرَيَّاح أسماك قرش ! " ، تخلخلت ركبتاى حتى كدت أهوى .. قبل أن أنسحب من ياقه دثرتى إلى الخلف ، ألجأتنى الجنيّة إلى كهف خبيىء بالوادى ..

- **لقد إنفتح البحر للتو .. وإختلطت مياهه بمياه الرَيَّاح ..**
- **ماذا تقصدين ؟! ..**
- **خذ حذرك ، فأسراب من أسماك البحر العظام قد تسللت إلى مجرى الرَيَّاح ..**

إنتظرنا حتى غادرت سمكة القرش ثم خرجنا ، حينها أعربت للجنيّة عن رغبتى فى إنهاء الرحلة ، فلا ريب أن كثيراً من نوع هذا الوحش قد إنتشر بالماء ، وما كدنا نستدير تأهباً للصعود حتى قطع مجال رؤيتى مرور سلحفاه معمرة ، رمقتنى وكأنها تقول شيئاً ما ! ، فذهلنا لبعض الوقت قبل أن تتعلق أعيننا بها ، إقتربت السلحفاة من إنتفاخ طينى له ثغرة فى الأعلى .. ثم ألصقت فاها بالثغره لبرهة قبل أن تبتعد قليلاً ، حينها خرج كائن أبيض رخو ، منفوخ كبلونه ، فتح فاه فألقمته شيئاً فى فمه قبل أن يعود إلى مخدعه ، ثم عادت السلحفاة أدراجها بإتجاه السطح .

وقتئذٍ ، ولما رأت الجنيّة ما بلغ منى من إندهاش .. قالت

- **إنها تأتى هنا منذ سنوات طوال .. تحمل له طعاماً من شواطىء البحر البعيدة ..**

فإنفرج جفناى عجباً ..

- **إن فى سيرة سليمان النبى شىء كهذا !..**
- **هى بعينها " السلحفاة المذكورة " ، جُبل نسلها منذ آلاف السنين على هذا العمل .. تموت فتستأنف غيرها المهمة ..**

أحسست بشىء من الإمتنان للجنيه .. أن أرتنى مشهداً بديعاً كهذا ، ولكن ظلت رغبتى فى الصعود ملحه فالخطر يحوطنى ، يحفنى من كل جانب .. وقد يداهمنى بغتة وفى غفلة منى ، آنئذٍ لا أعرف كيف تناسيت أن بصحبتى " جنيّة " .. قادرة على ردع أى كائن من كان .. وبغتة ، سمعت نعيراً شديداً .. يتردد صداه فى جنبات الرَيَّاح ، إنها ذات الأبواق .. التى سمعتها أكثر من مرة على السطح ، بيد أنها تلك المرة قوية راعدة .. يكاد القاع أن يرتج لرجيعها ، فإنتفضت فرقاً ..

- **ما كان هذا ؟ ..**
- **إنها أبواق حيتان العنبر .. على مقربة من تخوم الرَيَّاح ..**

فجحظت عينى قسراً

- **حيتان العنبر ؟! ..**

كنت أعلم مدى ضخامتها وضراوتها .. وحوش عملاقة وكأنها من الزمن غابر ! .

شردت للحظة .. يملأ عينى مشهد أفواهها المفتوحة كجيوب الجبال ، وأنيابها المشرعه كأبراج كفر يَمَـان .. لو ألقمت مارداً لإبتلعته ! .. آنئذٍ ، ودون تردد نظرت إلى الجنيّة ..

- **فلننهى رحلتنا الآن ..**

لم تستبطئنى أو تراوغنى تلك المرة ، لتوها رفعت هامتها تسبح نحو السطح .. فتبعتها وبدأنا فى الصعود رويداً ، ظل الظلام ينزاح شيئاً فشيئاً حتى ناهزنا ثغرة الضوء عند السطح ، برهة وإنسل رأسى مشرئباً عن الماء .. فشعرت بدفق من هواء بارد يضرب أذنى ما لبث أن غلبته سخونة الشمس ، ولهنيهة أحسست بإختناق .. ذاك الذى لازمنى فى بادىء الرحلة ، ما لبث أن تحول إلى أنفاس تحدو صدرى للعلو والهبوط ، شهيق وزفير ، فلفظت بالأخير ضحكة مكروبة .. ممزوجة بشهقة عميقة ، سريعاً ما ندها صدرى زفيراً طويلاً .

تعلقت بدفة القارب ثم نظرت حولى .. فإذا بالجنيّة قد سبقتنى إلى جرف الشاطئ وقد بدت أصغر حجماً نتيجة إلتصاق شعرها المنفوش وإستطالته بفعل ما علق بها من ماء .

نظرتنى ملياً ثم قالت ..

- **ما بال رحلتك ؟..**
- **فهمت الرساله ..**
- **ليت سادة يَمَـان أدركوا مغزاها .. ما كان ما سيكون .**

"١٩"

بئونة

صحى الكفر على صوت أحد العرافين يجوب أرجائه صائحاً ..

- **وجدتها .. وجدتها ..**

مر على سادته الجالسين فرادى وجماعات بجنبات الوادى وليس فى حلقه إلا صراخه ، وما إن يسأله أحدهم حتى يمرق دون إجابة ، ساق وراه ناس الكفر إلى الساحة أمام قصر الجيوشى ، وهناك وقف يصرخ فى الحراس ..

- **أخبروا سيدكم أنى وجدتها .. وجدت مخرجاً لعقم رجالكم**

ورغم التساؤلات الحائرة حوله .. أبى ألا يجيب إلا فى حضور الجيوشى ، حينها كان قاسم قابعاً إلى جانب الحشد مريجاً بين إبتسام مبهوت ودهشة فاترة ..

إنفتحت البوابة ، وبرز الجيوشى محمولاً على كاهل ستة من عبيده ، لم يكن راضياً ، خرج عندما سمع الجلبة بالخارج وفى طيه يشعر أن كارثة أخرى على وشك الحلول يقاوم رغبة ملحة تتصارع لتُبيد هذه الحفنة المخرفة ، العرافين ، كان قد أشار لحراسه فتأهبوا بسياطهم وأسلحتهم حول الموكب .

هرع العـراف صـوب الجيوشى .. فحال الحراس دون مراده ، فجثا

على ركبتيه صاغراً ..

- **لقد وجدت مخرجاً لعقم الرجال .. ياسيدى ..**
- **أو كان هذا يستأهل إثارة كل هذا الضجيج .. وكركرة الناس هنا إلى جانب ساحتى ؟ ..**

حينها شعر العراف بأن نبأه السار أثار الناس جميعاً .. إلا أنه لم يثير إلا الغضب فى نفس الجيوشى ، فحاول تدارك الأمر ..

- **حاولت أن أسر مسامعكم بنبأ يدخل البشرى إلى قلوبكم**

تغضنت أسارير الجيوشى .. فجفل العراف ورقأ الدم فى عروقه ، تحرك موتوراً إلى عمق الساحه يعرض نبأه فى منأى عن أعين الجيوشى المحتقنه .. وسياط زبانيته المتأهبه ..

- **يبدوا أن الشيخ يَمَـان كان قد تنبأ بما سيحيق بنا ، وأن زماناً ما ستنتشر به الفتن .. فتشتعل نارها وتضربنا بالكوارث واللعنات ..**

ورمق العراف وجه الجيوشى خلسه .. فوجده لا يحرك ساكناً ، ذات النظرة والإمتقاع ، فواصل حكيُه ..

- **لقد عثرنا على إحدى الصحائف التى أودع فيها شيخنا الجليل علمه .. تحوى كل ما سجله الأجداد على أسوار الكفر القديمة التى إندثرت وتهاوت إثر الفيضان العظيم ، تستعرض الصحيفة لبعض من اللعنات ومسالك الخروج منها .. ومن بينها مسألة عقم الرجال الجماعى ..**

ولازالت الوجوه ساكنه .. تخفى تحفزاً مخيفاً ، الأمر الذى فاقم من روعه ورهابه إلى أن نطق أحدهم أخيراً ..

- **وماذا تقول الصحيفه ؟ ..**

ربط السؤال جأشه .. فتجاسر يقرأ العبارات المكتوبة ..

- **تقول الصحيفة .. قسموا عامكم خمسة أيام ، كل يوم هو بمثابة فصل ..وكل فصل إثنا وسبعون يوماً ، سيظل رجالكم عقماء طوال أربعة فصول ونيف وستون يوماً .. وما بقى فلكم ..**

فضجر الجيوشى هاتفاً بنبرة ساخرة ..

- **وماذا يعنى هذا الهراء الذى تقرأ ؟ ..**
- **يقول شيخنا .. لن تبنون فى أرحام نساءكم سوى فى خمسة أيام خارج الزمن ، إنتزعوها من دهركم ..**

فرعد أحد السادة ، دون أن يعن بحضور الجيوشى ..

- **أنت رجل مخرف ، وهل من أيام خارج الزمن ؟! .. هى إذن ليست بأيام ، لا يعقل أن يكون جدنا قد هزى بهذه التهاته ..**

فنظر إليه العراف وجلاً يستجدى أناته وإصطباره ..

- **لا أقول شيء من عندى .. هذا ما أودعه جدكم فى صحيفته ، يقول أنها خمسة أيام تنتزعونها من عامكم الشمسى .. تدعى " أيام النسيىء " ، تنمو فى أخر السنه الفرعونيه ..**

فصاح الجيوشى وقد نفذ صبره ..

- **لم تؤتينا بنبأ حتى الآن ، كيف سنعرف أيام النسيئ هذه ؟ ..**
- **إنها يا سيدى فى نهاية شهر " مسرى " ، تظل السماء عاقراً طوال العام بسخط مثل الذى لقيكم .. إلا فى خمسة أيام خارج الزمن ، تلد كل يوم نبت جديد ..**

وهنا إنفكت عقدة قاسم .. فنطق لسانه ، أشاح بوجهه عن الجميع متمتماً ..

- **ماعاد يهمنا خلاء أصلاب الرجال وعقمهم .. الجفاف وبوار الأرض هما لعنتنا الحقيقية ..**

فتغيرت دفة الحديث بغته حين نطق الجيوشى وكأنما أفاق من سكرته لما أصابت قيلة قاسم لب الكارثة .. إذ قال بصوت رخيم مفعم بسخريه مستترة ..

- **حقاً .. الجفاف وبوار الأرض هما جوهر اللعنة ..**

ثم نظر إلى العراف ثاقباً .. وقد علت نبرته ..

- **وهما ما أنتظر فيهما خبراً ساراً ..**

أحس العراف بعمق الورطه التى أوحل قدميه فيها ، فسقط الرعب إلى روعه ، فهس لنفسه " ليتنى ما فتحت بابا للرؤوس أن تطل " ، أوغل فى سحب .. وإهتز كطفل بال على نفسه ، كان لا بد من تحرك سريع وإجابه حاذقه .. وإلا بات كبش فداء ، قال مرتعداً ..

- **لا ريب أن شيخنا قد ترك خبراً بخصوص الجفاف وبوار الأرض ..**

فصرخ الجيوشى فى وجهه ..

- **لا أريد تكهنات .. أريد خبراً صُراحاً ..**

لم يحتمل العراف إصطكاك ركبتيه فإرتختا .. جثا على الأرض مستكلباً ..

- **كل ما نعلمه يا سيدى أن الشيخ أودع كل ما تركه من علم فى صحف مكنونة داخل صندوق .. خبأه الشيخ بأرض الكفر ، ولا ريب أنه بأرض الوادى .. حيث كان الشيخ يصلى ويتعبد ..**

فإهتاجت الجموع ساخطة .. تتداعى إلى العراف الذى إنطرح على ظهره ذعراً .

- **أنت رجل مخرف ودجال ..**
- **هذه الصحيفه مزورة ، هى من أفانين عقلك الواهى ..**
- **وكم يتوجب علينا أن نطوى أعوام أخرى بحثاً عن صندوق .. ربما أكلته الأرض والماء ؟! ..**
- **أتهذأ بعقولنا ؟ ، كيف سيصمد الصندوق لألف عام أو يزيد ؟!**
- **إقتلوا هذا العابث الذى إستهان بهيبتنا ..**

فإندفعت جحافل الحراس حول العراف بإشارة من الجيوشى .. تشهر أسلحتها وسياطها حيال الأهالى ..

وقتئذٍ هبط الخدم بالجيوش .. فنزل من محمله وترجل عدة خطـوات

ليناظر العراف تماماً ..

- **إعلم إن عرفت أنك تتلاعب بى .. فستكون ميتتك مضرب الأمثال للولدان والصغار ، ستفوق كل ما جرى وسمعت به على أرض هذا الكفر ، سأمهلك بضعة أيام ، نجاتك الوحيدة فى أن تعثر على صندوق الشيخ ..**

وسريعاً عاد إلى محمله ، وكعادته .. ولج القصر وتلملم الحراس خلفه وأوصدت البوابة ، وكأن شيئاً لم يكن ! .

أما السادة ، فإنتصبوا ينظرونه شرذاً .. ويجذون على أضراسهم ، لا يجرؤ أحدهم على الإقتراب منه بعدما وقف فرعون الكفر بينه وبينهم ، فقام الرجل وجلاً ينفض عن ثيابه وسخ الأرض .. سار بإتجاه ساحة يَمَـان جاراً وراءه حشود محتقنه من رجال الكفر ونسوته ..

إنتشر الأهالى فى أرض الوادى كالجراد ، ثرثروا التراب ونقلوا الصخور .. وإقتلعوا الأشجار عند حواف الجرف العظيم ، ما بات شيء فى محطة ، تكاتفوا فينة .. وضربهم الشجار والنزاع فينات كثيرة ، تقاتلوا وتعاركوا .. وتراشقوا السباب واللعنات ، وما من جديد .. قلقوا أرض الوادى كلها .. وما بقى إلا البئر وضريح يَمَـان والمسجد ، حتى الصخرة فتتوها بمعاولهم ، والعراف يدفعهم ويستحثهم كالخراف .. لا عقل يفكر ولا بصيرة تتروى ، ظلو على نهجهم المحموم .. إلى أن صاح أحدهم ..

- **ما بقى أمامنا سوى المسجد ، فلا يعقل أن يكون الصندوق فى قاع البئر ..**

فقال أخر ..

- **ماذا تقصد ؟ .. نهدم المسجد ؟ ..**

فصاح ثالث ..

- **ليس من مكان آمن سوى المسجد حيث كان الشيخ يصلى ..حتماً قد وارى الصندوق فى صحنه ..**

فإنطلق الشيخ شبيكة من مجلسه على عتبة المسجد إلى عمق مجمعهم ثائراً ، فصرخ العراف فى وجهه ..

- **لا تقف فى وجوهنا .. وإلا هدمناه فوق رأسك ...**

حينها هتف الشيخ ..

- **ياسادة الكفر تعقلوا قليلاً ، المسجد هو بيت الله .. ولا محط يعبد فيه فى الكفر سواه ، أتُبيدون بيت الله ؟! .. إن فعلتم فإذنوا بحرب منه لن تجدوا لها راداً ، هذا المعتوه محض دجال مخرف .. يسوقكم إلى الهاويه ..**

فهرع العراف ودفع الشيخ بيده حتى سقط أرضاً ..

- **قلت أغرب عن وجوهنا .. ما عاد الأمر يحتملك ..**

فقام الشيخ يرد عن جسده عدوان العراف ، وما كاد يفعل .. حتى إندفع السادة يركلونه بأقدامهم حتى سال الدم من وجهه وتضعضعت عظامه ، فصاح صارخاً بنبرة مقهورة ..

- **{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ } ، ترقبوا إنتقام الله .. إنتظروا إنتقام الله .**

وهنا هتف العراف ..

- **لا حائل بينكم وبين المسجد .. هو محض بناية خربه مهجوره**

فتدافع الأهالى بعبيدهم .. يدكون جدرانه ويقلون لبناته ، خاضت معاولهم فيه فسقط فى أقل من ساعة زمن ، والشيخ كالموتور يثب باكياً على جمر من نار ، داعياً ..

- **أبادكم الله كما أهلكتم بيته ، أرنى فيهم ياربى أية من آياتك العظام ، { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } .. { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }**

نقلو كل طوبه وحبة رمل فى المسجد حتى بات جبلاً من رفات وركام ، أصبح محطه أرض خلاء ، فعمدوا إليها ونقبوا ثراها شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً .. وما من جدوى ! ..

دبت الخيبة بين تلافيفهم ، وقلة زهيدة أصابها ندم محقق .. أولاء الذين حملوا نتف من ضمير يحتضر ..

- **أنى لقوم فاجرين أن يهديهم الله ! ، لا تنتظروا منه عوناً أو غفراناً .. فما فعلناه من جملة جرائمنا وموبقاتنا فى جانب الله وحقه ..**

فدب الخوف بين أرهاطهم .. وتناجوا مريجين ، يموجون بين ندم وإنتقام محقق ، هنا إنتفض قاسم من قبوعه متقهراً ..

- **ياسادة .. لقد أزف الرحيل وحانت النهاية ، وعذاب الله قادم**

لا محال ، لا عجب أن يصدر من حفدة العصاة القدامى .. ما بدر منكم ، لستم بحاجه أن أذكركم بما فعل أجدادكم ، تنازعوا على جسد أدم " عليه السلام " وعصوا الله نهاراً جهاراً ، هزئوا بنبى الله نوح وحرّقوا إبراهيم ، فعلوا الموبقات العظام فى عهد لوط ، ألهوا الرسل وبنوا لهم الأصنام .. وعبدوها ، عقروا ناقة صالح وسجدوا للعجل ، قتلوا الأنبياء وإستذلوهم .. فظفروا بإنتقامات الله وعذاباته ، طوفان وريح وجفاف وغرق ... وإقترب من الشيخ القابع بين رفات المسجد باكياً ..

- **واستأنفتم دربهم ، قتلتم وذبحتم وضحيتم بأبناءكم ، ومثلتم بجثث موتاكم ، خلفتم العهود والمواثيق .. وهجرتم فقراءكم ، أذللتم الرجال .. وأهنتم النساء ، تكبرتم وتعاليتم ، وأخيراً تجرأتم على الله .. فهدمتم بيته ..**

دار قاسم بينهم ..

- **إستغفروا الله .. علّه يغفر لكم ، فإن الله غفـــــ ...**

وقبل أن يتم عبارته سقط أحدهم بمعوله فوق رأسه .. فهوى صريعاً مرتطماً بقبلة المسجد ، يبك الدم من رأسه بكاً ..

"٢٠"

أيام النسيئ

تحجر الحشد مشدوهين ، مبهوتين من هول ما حدث ! ..

فصرخ فيهم العراف قبل أن يتخطفهم الهول والرعب .. فترتخى هممهم ..

- **الصندوق يا سادة .. لا تنسوا كَرْبنا وكارثتنا ، حماية الكفر فوق كل رأس ،لا تهتزوا فاللعنة خلفنا والبحر أمامنا ، لا نجاة إلا فى الصندوق .. ولا عزيز الأن سوى الوطن ..**

فتقدم أحدهم محتداً ..

- **ما بقى من بقعة إلا ونقبناها ، ولا أرض إلا وتحرينا ثراها .. أين عساه أن يكون ؟! .**

فأطرق العراف للحظة ، ثم ترجل عدة خطوات جهة المقام

- **المقام .. نقبوا بأرض المقام ..**

فشده الجميع مصعوقين ، لقد بلغت قيلة الرجل ما عدا أقصى توقعاتهم ..

- **المقام ؟! ..**

وتآجلوا عليه من صدمتهم ، مهتاجين ..

- **أتعى ما تقول ؟! ..**

- **عدت للخرف مرة أخرى ..**
- **كيف نقلقل مقام يَمَـان ؟! ..**

فرعد أحدهم بصوت نافر حلق فوق رؤوس الجميع .

- **إهدأوا لنرى ماذا يقصد ..**

ثم إستدار إلى العراف ..

- **كيف نهدم المقام ؟! ، إنها لكارثة أشد من لعنتنا ! ..**

فشرد العراف فنيه أخرى جهة المقام ، ثم همس بصوت رخيم كأنه وسوسة إبليس ..

- **أخرجوا الشيخ من مرقده ..**

فرضخ السادة كالمسحورين بعد برهة مصطنعة من صراخ ورعيد كهزج الصغار .. علّها تملأ هذا الفراغ الذى تركته ضمائرهم الموجوعة قبل أن تحتضر ، ذهب أمرهم بينهم شعاعاً فتجمعت بالأخير على هدم المقام ، أعملوا معاولهم فى جدران المقام حتى سقطت قبته الشاهقة .. فعمدوا إلى نقل بقايا الأعمدة والحجارة إلى منأى عن القبر ، فى البداية لم تكن لديهم خطة بحث .. إلى أن إنتهى أمرهم أن ينقبوا حول القبر دون المساس به ، حفاظاً على حرمة شيخهم ، وما بقى داخلهم من شيئ لازال فى روحه رمق ! .

وفى غفلة منهم وغمرة إنشغالهم .. تسلل العراف خلسة فاراً إلى خارج الوادى ، فطن أنه بعد هذه النقطة ما بقى إلا قتله ، قرر الهروب من الكفر بعدما أذنت الأحداث بأنه سيبيد بعضه بعضاً ..

إلا أنه إصطدم بشبيكة " شيخ المسجد " ، والذى أصر أن يفضحه أمام الجميع وعلى الملأ .. فأمسك بتلابيبه صارخاً فيهم ، ولكن آنى لصراخه أن يصل فى غمرة هذا الضجيج والحراك الصاخب ، وزيد الأمر عندما لم يجد الشيخ هزيل البنية فى عزمه قوة لإحتمال العراف وردعه ، لم يقو عليه ، إذ كممه الثانى براحته ودفعه حتى سقط أرضاً ، ثم قذفه بحجر عتى ثقيل إلى رأسه .. فقضى عليه ، أسقطه لتوه ميتا ! .. ثم فر نازحاً جهة البحر ..

زهدت حيلة الأهالى بعدما نقبوا كل شبر حول القبر ولم يجدوا شىء .. ليس إلا تراباً وحجارة ! ، وبينما إلتفت أحدهم إلى العراف ليتحرى أمره .. لم يجد له أثراً ، فتنبهوا لغيابه ..

هبو عن بكرة أبيهم .. يتدافعون كالمجانين يبحثون عنه ، هرعوا إلى كل أنحاء الوادى ، وخلف تلال الركام والحجارة ، صوب كل اتجاه ، ولكن الأوان كان قد فات ! .. لقد هرب الرجل مخلفاً وراءه شيخ المسجد مقتولاً .. غارقاً فى بركة دماء ، حتى ما بقى من العرافين كانوا قد تركوا الساحة فارين .. قبل أن تبدأ عملية البحث من الأساس ، فطنوا بدورهم بأن كارثة حتمية وشيكة الحدوث .. جراء قيلة رفيقهم المعتوه ورأيه المتغابى ، إذ لم تكن فكرة تنقيب المقام برأى بفكرة سديدة ، فإن نجوا من غضب السادة .. فلن يفلتوا من سخط الجيوشى وسياط زبانيته ..

جمع السادة لمامهم فى ساحة الضريح ، قانطين ساخطين .. كلٍ يقذف

بسُبابِه فى الهواء ، يلعن خيبة رجاءهم وعقولهم الضحلة ، بالأخير لم يفعلو شيئاً بشأن اللعنة ، عانوا فى دهدمة الحجارة وشقوا فى قلقلتها .. ليجنوا بالنهايه أكواماً وفيرة من الركام والقضيض ..

قام أحد الهاوين متقهراً .. وكأنما جاء بما عميت عنه عقولهم ..

- **يا لا عرج ألبابنا ! ، كيف نسينا أن " صياد الرَيَّاح " هو سبب اللعنة .. وعلة إنتشارها ؟ ..**

فقام الحشد وتجمعوا كحزب واحد .. فى تحفز مصطنع ، ربما هو رجاءهم الأخير الذى قد يدفع عنهم تلك الخيبة الثقيلة .

- **حقاً صدقت ، هو من كان يستأهل العناء والبحث .. منذ البداية**
- **إذن ماذا تنتظرون ؟ .. هيا نقتص منه ، نقتله ، وبفناء صانع الرصد .. يزول الرصد ذاته ..**
- **هلم يا قوم ، قبل أن ينبو إليه خبر تدبيرنا .. فيهرب ..**

فتدافعوا فى ركض مكروب قاصدين مرسى القارب ..

....

إبان ذلك ، كانت الجنيّة والمسحور فى رحاب قاربى .. يُعلمانى بشأن ما رمى إليه سادة يَمَـان ، فقلت ..

- **وماذا عساى أن أفعل الأن ؟ ، برأيكم ماذا يتوجب علىّ ؟!**
- **أن تهرب ، سنأخذك معنا إلى أسفل ، عالم الماء يحبك ولن يهملك .. سيحميك من شرورهم ..**

- **{ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ } ، و هل يمنع ذلك أقدارى من ملَاقاتى ؟! ، ستوافينى .. سواء أكنت فى الماء أو فى أى مجال أخر ..**
- **إذن سنبقى معك تحسباً لأى خطر ..**
- **إذهبا عنى .. فلا جدوى من وجودكما ، ولكن عِدانى ألا تلحقوا بهم ما يوجع قلبى ، وإطمئنا .. فهم لن يؤذونى ، هم بالأخير عشيرتى وناسى ..**
- **ولكنـــ ...**

فإقطتعت حديث الجنيه ..

- **إتركانى الآن .. فإن نفسى تطلبنى ، عندى لها قيلة طويله .. قديمه ! ..**

وتعلقت عينى بنقطة غائرة فى الماء ، حينها ظلت الجنيّة تنظرنى لبضع دقائق ، ولما رأت أنه لا رجاء من مكوثها .. وثبت إلى الجرف لتتحرى الجسر ، وكان خاوياً من رجلهم ومطاياهم ، ثم قفزت بغتة إلى الماء غائصة .. تسحب أصفاد المسحور لينسحل ورائها على ظهره فى صراخ وتأوه ، ولن أنسى ما حييت تلك الرمقة التى ودعنى بها .. رمقة تمور بها شتى التعابير ، فزع وقنوط وترح وقهر ..
حينها دارت عيناى فى نظـرة طويلة ، رَقْرَقَتْها عبرة نبضت بغتـة دون

إرادتى ، شردت للمرة الألف من الشاطىء إلى الجسر إلى بوابات " كفر يَمَـان " ، ذاك الكفر الساعى فى إثر الجاه والثراء .. بنصل تلم مرَّقه سادته على رقاب العباد ! .

" متعة الشىء ألا تبحث له عن معنى "

هكذا قالت لى " عطامينو " ذات يوم ..

إن البحث عن جواهر الأشياء ومعانيها .. ظل هاجسى الأول منذ نعومة أظافرى ، وفى وقت متأخر ، علمت أنه كلما نقبت عن المعنى .. ستصل إلى معنى أخر ، أو إلى اللا معنى ! ، لذا لم تكن الأشياء تبدو لى كما أراها .. دوماً كان هناك جوهر أدق ، وربما أروع ..

كنت أجهل الناس بمقامى وقدرى وقدرتى ، وذات الجهل جعلنى لا أدرك قدر أمى وأبى وعائلتى ، لم أحسن يوماً تقدير كفر يَمَـان ، كان من الممكن أن يضحى جنة الله على الأرض .. دون هذه الأعراف الخاوية .. وتقاليد الأجداد التى ساقته إلى الهاوية ! ..

لم أكن أعرف أن كل شىء مكون من ذات التكوين ، الشيخ كالعراف ، وأبى كأمى ، وعمى صُبيح كعمى قاسم ، وإبنته كاملة كسائر نساء الكفر وسادته ، وأنا أضاهيهم جميعاً ، جميعنا كأرض الكفر وثراها وسماءها ورياحها .. حتى الرَيَّاح كان يشاركنا كل شيئ ، كلنا نحمل ذات الهمه ولكن بطرائق مختلفه ، همه لا تفنى .. غير أن سادة الكفر إرتضوا السير بها إلى الفناء ، أو التحول إلى شيء بلا قيمة لا يبقى ولا

يخلد ..
كل فرد فى الكفر كان قادراً على إدارته .. ولكن كل فرد إتخذ دوراً أخر ، فإختلقوا الكبير والسادة ، الشيخ والعراف ، العبيد والعامة ، وربما كان هذا التراتب الطبقى ، ونهجه فى التعاطى مع الأمور .. هو ما جعل من أرضنا بؤرة للظلم والعبث والهراء ، فى حين كان من السهل أن يتخذ منحنى أخر ..
أما عنى ، فأنا شديد الحزن .. أنى إرتضيت دوراً ساقتنى إليه الأحداث ، لم أكن رأساً صالحاً ، إبتعدت وهربت .. دفعتنى الأيام فى ساقيتها وطحنت صدرى فى رحاها ، فتغيرت روحى وتبدل جوهرى ..
غير أنى راضٍ عن رحلتى .. وما ساقتنى إليه الأقدار ..
وفى ذلك يكفينى أنى لم أكن فرد من قطيع خراف .. راعيه ظالماً .

إنتهت اللفائف .. دون أن يعلم زُهِير مصير أهله وعشيرته ، وبينما كنت مستغرقاً فى قراءتها لعدة ساعات .. كان أهل يَمَـان قد قتلوا بحثاً عن قاربه ، إلا أن كل جرى كان نذيراً لكارثة حتماً ستحدث ..

لملمت اللفائف بالصندوق ، وخرجت من دارى فازعاً أبحث عن ناس الكفر .. لأعلمهم أن زُهِير قد مات ، وهذا الصندوق هو أخر ما تبقى منه ، أكثر ما كنت أخشاه أن يظن أحدهم أنه صندوق " يَمَـان " .. فيهموا إلى قتلى ، كنت جزعاً من كل تلك الأحداث .. بيد أنى سبقتهم إلى صياد الرَيَّاح فى غمرة إنشغالهم بالتنقيب والبحث ، ومن جملة درايتى بفحوى اللفائف .. عرفت أنه كان سبباً لكل ما جرى بالكفر ، إلا أن ثمة جانباً خافياً أضاءته اللفائف ، الصياد لم يكن إلا ردة فعل .. وصدى لصلف كفر يَمَـان وسادته ، وأياً كانت ردة فعله " ثأرياً أو إنتقاماً " .. إلا أنه حتماً كان سيحدث ..

علمت أن السادة مروا بشواطىء الفرع الأيمن للرَيَّاح كاملاً يتحرون عن القارب .. إلى أن وجدوه قرابة مصب المجرى ، كان راسياً دون قياد ، نفر إليه الأهالى وقد تراصت الوصمات على ألسنتهم ، إتهمه أحدهم بأنه هو " المسحور " ذاته .. ذاك الذى يخطف شبابهم وأطفالهم كل عام فيغرقهم ، وصاح أخر أنه سمع الجيوشى ذات مـرة يقـول أن إبنه زُهِـير قد مات منذ أربعـين عامـاً ،

مات غرقاً فى الرَيَّاح .. وهو الأمر الذى دعّم دعاية المسحور ! .

وجدوا القارب ، وزُهِير فى قاعه مفروداً على ظهره .. يغطى وجهه وشاح بنىّ ، فى البداية ظنوا أنه غافياً فقرروا حرقه فى قاربه .. فجلبوا وعاء من زيت خاص وسكبه أحدهم فوق سطح القارب ، إلا أنهم وقبل أن يضرموا النار إكتشفوا أن الرجل قد مات ، لكن الأمر لم يرجئهم عما إنتوا ..

ولكن ما حدث كان جد غريب ، كانوا كلما ألقوا المشاعل فوق القارب .. حادت وسقطت فى المياه ، وبغته غشيهم ضباب كثيف من كل جانب .. حتى أنهم ما عادوا يروا بر من بحر ، وفى غضون ذلك إنسحب القارب حتى تاه فى غياهب الضباب المنسدل ، غاب لبرهات ثم بدأت الرؤية تتكشف شيئاً فشيئاً .. ليروا أن القارب قد عاد .. لا يحمل إلا هيكلاً من عظم ! مغطى بوشاحه البنىّ ، فتحجرت أرجلهم .. وتراشقوا نظرات شده وروع ، حاولوا تأويل ما جرى .. فلم يجدوا ما يقولون ، فإنطلقت ألسنتهم تروج لدعايتهم المزعومة .

آنئذٍ ، إنتفى العجب حين تناجوا فيما بينهم بأن " صياد الرَيَّاح " لا يعدو فى نظرهم إلا مشعوذ " مسحور " ، وبرغم ما إختلقوه من تأويلات منتحلة علّها تُسكت ضمائرهم .. إلا أنهم لم يتراجعوا عن قرار حرقه ، ألقوا المشاعل إلى القارب .. وإنتظروا حتى إحترق تماماً بما يحوى ، تفحم أمامهم ، فطفا منه ما طفى .. وغاص ما غاص ..

بيد أن نارهم لم تنطفىء ، لم يقنع أحدهم حقاً بأنهم أحرقوه .. وأنهوا اللعنة ، فما حرَّقوا سوى هيكل عظمي ، ولربما عاد الرجل تارة أخرى وألب عليهم الكوارث ، ولا عجب .. فهو " مسحور " ، فعادت عقولهم تدور فى رحى صندوق يَمَـان ، وما خُبئ فيه من أسرار تارة أخرى ! .

إنطلقوا مغيبين جهة الوادى ، تقاطروا دون إتفاق .. الرغبة واحدة والهدف واحد ..

آنها كنت أركض حاملاً الصندوق ، أبحث عنهم ، فلما عرفت أنهم توجهوا رأساً إلى أرض الوادى .. إتخذت الممشى المحازى لمنازل العبيد لألاقيهم عند الدرج العريض ، الهابط لساحة يَمَـان والمجاور للطاحونة القديمة ، حينها كان التعب قد بلغ منى مبلغاً عظيماً .. فقد قطعت ما يعادل ثلث الممشى العريض المحازى لشاطىء البحر ، وكان عليّ الركض لما يضاهى تلك المسافة ثلاث مرات ..

فى ذلك الوقت ..كان سادة يَمَـان بالفعل قد هبطوا أرض الوادى ، وقفوا قبالة قبر يَمَـان شاخصين .. وكأن على رؤوسهم الطير ، ثابتين .. غير أن حرباً ضارية تدور رحاها بداخلهم ، طوقتهم مشاعر متضاربة .. تلهو بصدورهم دون قياد ، الحفاظ على الأعراف والبحث عن النجاة ، الخوف من الحاضر والإرتعاب مما هو غائب ، إلتاعت نفوسهم لبرهات مرت كسنوات .. تكتوى بنار الحيرة والشتات ، فتناجوا كثيراً

- **أبقى شىء نبكى عليه ؟! ، الصندوق هو السبيل الوحيد للنجاة .. ربما كان داخل هذا القبر !**
- **حقاً .. لا بد وأن أجدادنا دفنوه مع الشيخ ..**

إلى أن نفر أحدهم إلى جوار القبر بغتة .. يصرخ بها تحاول أنفسهم حياءاً أن تواريه .

- **ماذا تنتظرون ؟ .. ما عاد أمامكم سوى القبر ، أخرجوا الشيخ من مرقده معززاً مكرماً .. ونقبوا عن صندوقه ، ربما كان بجواره .. فيكفينا الله ويلات البحث والتنقيب ..**

حينها لم يجرؤ أحد على الإعتراض ، فذات الرأى كان يعتمل فى صدورهم على إستحياء .. وها هو أحدهم قد تكبد مشقة الإعلان عنه ، إنكبوا كجماعات نحل تقوض فريستها ، فصرخت معاولهم على صدر المقام ، طرقت ثم شدخت ثم هدمت .. هدمت ، بالأخير لم يصمد القبر طويلاً .. تصدعت جوانبه فهوت بكامل حالتها ، بدا كصندوق خشبى تفككت أركانه .. فهوى كل جانب إلى جهة ..

وداخل القبر إنتظرتهم فاجعة .. تلقوها على أسوأ ما يكون ! ..

وقف الجميع مذهولين ، مُغيبين ، تحملق أعينهم جاحظة فى بلادة .. وكأن الخبال ضرب رؤوسهم ، اليوم .. يوم المفاجأت فائقة السوء ، لازالت أعينهم لا تصدق ، ربما كان حلماً .. بل هو الكابوس بمعناه الحقيقى ! .

وجدوا جثة الشيخ بحالتهالم تبل ، غير أنها مُحرَّقة ، متفحمة ، الملامـح

كما هى .. ولكنها مشوهة منبعجة ، تتصاعد منها ألسنة دخان أسود وتنبعث رائحة شواء فائقة السوء ، وكأن القبر للتو قد إحترق من داخله ! ، أهذا شيخهم الجليل وذاك مصيره ؟! ، الجثمان وكأنه لفرعون ، أو أسوأ .. ذاك الذى تُرك أية وعبرة للعالمين ، تكهنوا أن يجدوا رفاتاً ، أقمشة باليه وعظام .. وليس جسد محترق وكأنه مدهون بقار أسود حار ، ذاك مالم يتصوره أحد .. أو يتنبأ به ..

وفى غمرة إغتراقهم بالكارثة وغيبتهم فيها .. لم يتنبهوا للضجيج الصاخب الزاحف خلفهم ، نباح يتضاخم وراءهم وأمامهم ، من كل جانب ! ، جحافل عظيمة من كلاب سود ضخمة كالثيران .. يسوقها العبيد ، إلتفت أحدهم مذعوراً .. فصعق ، وتوقف قلبه فى الحال ..

لقد هلك القوم ! ..

علم الجيوشى بجملة ما جرى فى الكفر .. مقتل قاسم والشيخ وإحتراق إبنه زُهِير ، هروب العراف وعصابته ، تخريب أرض الوادى المقدس ، وهدم صخرة المعراج والمسجد ، وأخيراً ضريح يَمَـان .. فجاءهم بنيران ينتوى بها حرق الأخضر واليابس ، ليجدهم بالأخير قبالة القبر .. على رأس جده يَمَـان !

آنها كنت قد ناهزت درج الوادى .. فصعقنى المشهد ! ، فعدوت خلسه حاملاً الصندوق جهة الطاحونة القديمة .. لأرقب ما يحدث من إحدى شرفاتها ..

رأيت الجيوشى وعبيده يسوقون جيشاً من وحوش كالأسود الضارية ، جوعى منذ عدة ليال ! ، أهاجها العبيد بسياطهم .. فإنثالت من جهات الوادى الأربع كالسيل العرم ، يجتازون الجروف فى وثبة واحدة ..

توقف الزمن لبرهات ..
لم يقو الرجال على الصراخ أو الإستغاثة ، الفزع قبض قلوبهم بعنف فأوقف الصراخ فى حلوقهم ، بعضهم سقط صريعاً ، والبعض الآخر حاول أن يفر .. فتلقفته الكلاب كسرب ذئاب شرسة حول فريستها ، إندفعت بقوة الظمأ والجوع فإنفلت قيادها تجر العبيد خلفها .. فإنكفأوا على وجوههم ، إنقضت الوحوش على جسد يَمَـان القابع " وهماً " فى قبره المكشوف .. فمزقوه ، تصارع ملهوف ، الجوع يعض بطونهم .. فإلتهموا كل شىء بشراهة شرسة !! .
وما هى سوى برهات قليلة حتى غادر الجيوشى بجحافله .. مخلفاً وراءه أشلاء قومه وعشيرته متمزقة ومتمزعة ، حينها هجعت من مخبئى قبل أن يتنبه الرجل لوجودى .. فيسلط على جسدى أحد وحوشه الضارية ، هرعت عبر الممشى المحازى للوادى لا أقوى على النظر إلى بقايا تلك المجزرة ، لقد أباد الجيوشى ناس الكفر عن آخرهم .. حتى النسوة والأطفال منهم ! ..
ظللت أركض حتى شارفت أخر بقعة بالكفر .. حيث يلتقى الرَيَّاح بالبحر ، وهنا كانت حيرتى .. الكفر محاط بأسوار شاهقة يخلفها

ثلاث مجارى مائية ضخمة ، فرعى الرَيَّاح والبحر فى الجهة المقابلة ، كنت محصوراً .. لا أملك حيلة للفكاك من هذه الشراك العظيمة ، فكرت فى وسيلة لتسلق الأسوار ، وإن فعلت .. كيف السبيل لأجد قارباً أو طوفاً لأعبر به مجرى الرَيَّاح، حينها لعنت اليوم الذى أبيت فيه أن أتعلم السباحة .. لم أحتسب ليوم أسود كهذا ، وكنت أجبن من أن أتخذ جذع شجرة أو قطع خشبى للعبور ، علاوةً على أن الرَيَّاح أصبح مرتعاً لوحوش البحر الشرسة .. مما جعل من الفكرة برمتها أمراً مستحيلاً ..

وقتئذٍ صرخت فى نفسى

كيف سأخرج من الكفر ؟ ، هذا السجن الكبير ! ..

كانت الدنيا على رحابتها أضيق فى عينى من سَمِّ الخياط ..

لم أجد سوى البوابات الأربع قبالة الجسر ومدخل الكفر منفذاً للخروج .. غير أنهم كانوا على مرآى من قصر الجيوشى وحراسه ، وقفت حائراً أتسمع الأمواج خلف السور علّى أسمع صوت قارب أو طوف فأهاتف صاحبه ليأتى وينقذنى ، تحركت من موضعى فلعلى أقف فى المكان الخاطئ ، تجاوزت إنحناءة السور الذى إرتسم بما يضاهى إلتواءات الشاطئ على الجانب الأخر .. لينكشف لى قطاع مديد من السور ، وهنا كانت المفاجأة .. حراس الجيوشى ينتشرون على طول السور ، ولا ريب أن مثلهم كانوا جهة فرع الرَيَّاح الأخر .

ركضت حتى تخفيت خلف الأشجار المحاذية لجانب الوادى ثم هبطت الجرف إلى ساحة المقام والمسجد فيما سبق ، كان علىّ قسراً المرور بمنطقة الجثث الممزقه بين تلال الركام ، لم أحتمل منظر الدماء والأشلاء فعدوت جهة المقابر .. ولا أعرف سبباً لتغافلهم عن تلك البقعة ، هؤلاء الذين لم يحفظو حرمة المسجد والمقام ، وكان الأمر حسن طالعى ، وقبل أن أناهز ساحة المقابر تعثرت فى حجر باقٍ من لبنات المسجد فسقط الصندوق عن ذراعىّ ، لم أنتبه لوجوده طوال مشوارى ! ، إستبقيته بين دفتىّ لأخر لحظة .. علّه يكون منقذى قبل الرمق الأخير ، ذاك الذى حمل فى طيه قيمة لازلت أجهلها .

بحثت عن قبرٍ خاوٍ بين القبور لأتخفى به .. فوجدت أحدها عند حدود الجبانة الجنوبية ، فإندسست به وإنتظرت ، لم أتوقع أبداً أن يمر بى ثلاثة نهارات ولا جديد ، الكفر محاط بالحراس والعبيد .. وأنا هنا أتضور جوعاً ، وكأنهم يعلمون أن ثمة صبى هارب بين الأطلال ، ينتظرون خروجه ، مرت الأيام قاسية حتى تهدلت عظامى وخارت قواى .. فسقط لا أُبدى حراكاً ، أدعوا الله أن ينقذنى .

" النهاية "

إرتكنت السيدة العجوز إلى سور القصر تتضور جوعاً وظمئاً ، ألجأها الله حافيه شعثاء إلى ركن غير بعيد .. تسأل الطعام والشراب ، وتلك كانت أقصى مطامعها ، فبكل موطىء رزق .. وبكل بيت طعام ، وبكل مروى ما يسد الرمق ، بلاد الله لخلق الله ..

لم تتحمل العجوز التى قاربت طور الثمانين إحتراق جوفها والمخالب التى تنهش فى أحشائها .. فخارت قواها وتهدلت قوائمها ، تساندت واهنه إلى سور القصر قبل أن يراها أحد العبيد فيتهزهز قلبه ، حينها هب لتوه يساعدها حتى جلست ، سقط نصفها عنوة رازحاً إلى الأرض ، فأقامها إلى جوار السور ثم هرع إلى جوف القصر .. وما هى إلا برهة زمن كان قد جلب لها وعائين ، بأحدهما ماء .. وبالأخر بعضاً من طعام لين سهل المضغ ..

جلس إلى جوارها ليباشرها ويطعمها بيده ، غير أنه قبل أن تلوك لقمة واحدة أو يروى إحتراق جوفها شربة ماء .. علا صفير بوابة القصر وإنفتحت ، ظهر الجيوشى على فرسه تحوطه زمرة من حراسه الغلاظ ، وما إن وقعت عيناه على العبد والعجوز .. حتى صاح فى حراسه ..

- **من أتى بتلك العجوز الهرمة إلى هنا .. أضاقت بها الدنيا .. لتُلصق أوساخها بأسوارى ! ..**

فزع العبد فسقط وعاء الطعام من يده .. يكاد يلفظ فؤاده عن صدره ، كان لك قبل أن يدنو الجيوشى من العجوز فيراه ..

- **ومن هذا ؟ ، عبداً من عبيدى يخدمها ! ..**

فنطق العبد قبل أن يثور ثائره ..

- **سيدى إنها ..**

غير أن الجيوشى كان قد أماء لحراسه فصفدوه ، ثم إقترب من العجوز يباشرها عن كثب ..

- **من ساقكى إلى أرضى ؟ ..**

فأقامت العجوز رأسها بصعوبة .. تنظره بعين واهنة مخدورة ..

- **ساقنى من أنت خادمه .. ومن رص لك العبيد خداماً ..**

أثار الرد حفيظته ، فقال مغتاظاً ..

- **عجوز شعثاء سليطة اللسان ، أما أخبروكى أن لمثلك تفتح القبور ؟ ..**
- **بأيدى عبيدك ستُدفن .. ولازال قبرى موصداً ..**

فإهتاج الرجل ..

- **نظفوا الكفر من أسقاطها قبل أن أُعمِل أضراس كلابى بعظامها ..**

حينها أطرقت العجوز ..

- **سبحان من سخر لك من له أضراساً .. فلجهنم كذا مخالب وكلاليب ..**

وهنا ثار الجيوشى متوتراً .. فطفقت حوافر فرسه تصطك وتتخبط ، أماء إلى حراسه مشيراً إلى العبد والعجوز ..

- **ألقوهما من فوق الجسر ، دعوا الرَيَّاح صاغراً يأخذ دوره معهما .. حتى لا يقرب أمثالهما أرضى ، ما عاد موطئاً لمثل هؤلاء ..**

فحمل أحد الحراس العجوز وكومها على بغل صغير .. بينما سِيق العبد وراءها مصفداً ، ولازالت العجوز تصرخ بصوت مغضن ينافح ثمانين عاماً حولاً حولاً وشهراً وشهراً ..

- **لكل مربوب رب ، سبحان من أحكمك على رؤوس العباد .. فصيرتهم ببغيك عندك خداماً ، أرنى فيه ياربى أيه ، أرنى فيه أية ..**

وإنطلق الجيوشى غير آبه بما كان وجرى ، عبر الممشى العريض إلى جوف الكفر ، الذى بات رقعة من أطلال ميتة ، بينما ساق الحراس العبد والعجوز وألقوهما من فوق الجسر .. ليسقطا إلى عمق الرَيَّاح الجارى ..

آنها كنت قد نفرت من القبر قبل أن ينهشنى الموت .. لا أجرؤ على الظهور أمام أعين الحراس ، كنت أعرف أن الموت يترقبنى خارج القبر وداخله .. غير أن معدتى تعوى بشراسه ، الجوع يلتهمها لذا كان علىّ البحث عن طعام .

تمكنت من أسر شاة شـاردة .. فنحـرتـها وتناولت منها ما ملأ جوفى

وسد جوعى ، وتركت ما بقى للعقبان الحائمة بالسماء حول أشلاء سادة الكفر وناسه ، وما هى سوى ساعات قليلة حتى عادت معدتى لعواءها تارة أخرى ، ظللت على هذه الحال عدة أيام أخرى .. أترقب أرنباً أو شاةً ، ربما دجاجةً ، الكفر خال من أية أشجار منتجة ، البوار سحق أرضه .. فسحق معدتى معه ! .

وقتئذٍ كانت أرهاط من كلاب الكفر التى ضربها الهزال تعوى حولى ، تزورنى وتتركنى ، تبكى أصحابها ! ، ومن آن لأخر تصلنى أصوات شتى لبعض دواب الكفر الضائعة بين الأطلال وشقوق الأرض .. نهيق ونعيب وخوار ، وكثيراً منها صادفنى نافقاً ! ..

تسللت خلسة إلى دور الكفر وقصوره التى باتت مهجورة .. لأبحث عن الأطعمه المخزونة فيها علّى أتقوت ببعضها ، وحاولت مراراً الفرار إلا أن الحراس لا يفارقون مواضعهم ليل نهار ، وكأنهم باتوا على يقين بوجود هذا النفر الشارد بربوع الكفر وأكنافه .. يترقبونه بأمر من سيدهم .

لازال الصندوق بين ذراعىّ ، لا يفارقنى ، لازال فى حوزتى وكأن به كنزاً ثميناً .. رغم أن الكنز فى ظروف كتلك لا قيمة له ، كنت أحرص ما يكون على ألا أبدد أمانة الصياد التى لم يأتمننى عليها ، شعور جارف يحدونى للحفاظ على رسالته .. تلك اللفائف التى كتبت فى زهاء أربعين عاماً .

كانت نهارات هذه الأيام قصيرة ، ما إن تهجع حتى تأتينى الكوابيس

على أشكالها لتقوض مضجعى وتوحش ليلى ، كنت أراهم جميعاً ، ناس الكفر ، أهلى ، أراهم يصرخون والأفاعى تتربص بهم .. وأفيق فزعاً وقد نالتهم ، لازال ما حدث يرتع فى خلدى ، حينها تمنيت الموت آلاف المرات .. غير أن الصندوق فى كل مرة كان ينهرنى ، يلكزنى ، يحدثنى بأنه لازال فى العمر بقية ، من سيأتى الأمانة أهلها ؟ وسؤال يطن على الدوام ، ومن أصحابها ؟! ، هى محض رسالة .. من عساه ينتظرها ، أو يعن بها ؟ ..

مرت الأيام تشبه بعضها ، ولكن فى صباح غابر أفاقتنى أسراب كلاب وقطط وحيوانات أخرى هاجعة .. تركض فازعة إلى خارج الكفر ! ، بعضها نفر نحو الأسوار فقتلها الحراس .. والبعض الأخر تمكن من التسلل عبر البوابات ، ومنها إلى الجسر إلى خارج الكفر ..

ظلت الحيوانات على ديدنها عدة ساعات قبل أن يأتى حين يسود البلدة فيها صمت غريب مريب ، لا صوت لنباح أو خوار أو نهيق .. ولا شيئ أخر ، الحيوانات كلها فرت .. وعجزت أنا ، ليمتلئ الكفر بأصوات أخرى وكأنها أشباح الموتى ، صراخ يتواتر ليلاً .. يضرب جنبات الكفر فى كل جهاته برجيع مخيف ، ولا أبشع من سكنى بلد .. ناسه أموات ، فعلى بعد خطوات من ذاك القبر الذى إتخذته ملاذاً .. ثمة بقايا مذبحة بشرية ، ولا ريب أن تلك الأصوات أصواتهم .. قتلنى الجوع مرة ، والكوابيس مرة ، والخوف مرة .. وتلك الأشباح مرات ومرات ..

عاودت محاولة الهروب تارة أخرى .. إلا أن الحال لم يتغير ، الكفر محاصر من كل جانب ، أسوار وبحار .. وحراس وعبيد تحمل السياط والنبادق ، فى كل محاولة كنت أعود خائباً .. أركن إلى قبرى متهدجاً بالإنكسار ، أخشى ما أخشاه أن يكون قبرى بالفعل ! ، كان هذا الشعور قد بدأ يتسلل إلى رأسى شيئاً فشيئاً .. حتى أنى آنست إليه وما عاد يخيفنى ، أفتح اللفائف من فنيه لأخرى ثم أقول " ربما قرأها أحد بعدى وأكمل المسير .. حمل الرسالة وآتاها أهلها " ..

يوم أخر غريب ، الطيور تطلق صرخات مفزعة ، تضطرب تصطخب ، السماء ملأتها أسراباً مهاجرةً ، مغادرةً .. أفواج من العقبان والبوم والغربان ، وطيور شتى .. تهجع من أعشاشها هاربة ، تتصايح فى عصبية باحثة عن موطن أخر ، كنت أعرف أن هجرة الطيور من البلدان العامرة .. نذير شؤم ومهاد لكارثة أرضية محققة ! ترى ماذا ينتظرنى فى تلك الأرض الملعونة ؟! ، أما شعر هؤلاء الجهال بإعتمال الحيوانات والطيور ، ونفورها تارة واحدة ؟! ، أما روَّعهم هياج كلابهم الشرسه ؟! .. تلك التى إنفكت عنوة وفرت ، تخلفها الدواب والماشية ، هنا فقط شعرت بحقيقة ورطتى التى أسقطتنى بين حفنة من الأغبياء الحمقى ، هناك كارثة فى الطريق ! ..

إلى أن جاء اليوم الأسود !! .

كنت غافياً داخل القبر حين إنتفضت من محطى فى فزع وذعر .. إثر تصدع جدرانه بغتة وتهدل حجارة القبو فحطت إلى جوارى ، حينها

جاءنى من الخارج صوت فرقعات مريبة .. يتناوح صداها ويتجاوب رجيعها من يمين الكفر لأيسره ، ومن غربه إلى شرقه ..

لقد وقعت الكارثة التى أنذرت بها الطيور والحيوانات الفازعة ، إنفتحت دفاف البحر على مصاريعها لتسوق فيضان من المياه المالحة إلى فرعىّ الرَيَّاح .. لتتحقق أخر لعنات كفر يَمَـان القاسية ، تلك التى لم تكن يوماً مسوقة بيد صياد الرَيَّاح .. بل بيد رب عزيز منتقم ، وليت الأمر إنتهى عند هذا الحد ، لقد ساق هذا الإنفتاح وحوش البحر الضارية .. فتسللت أسراب من أسماك القرش الشرسه ، وما عدا كل تصور .. أن يقترب فوج من حيتان البحر العظيمة من مصب الرَيَّاح جاراً فى إثره كائنات ضخمة ومزعجة

لتنسل خلسة إلى المجرى المائى الضيق ، وينفر بعضها إلى البر منتحراً بعد ما إختنق بها الرَيَّاح فلفظها ، فأثار هذا الحراك الأرعن والضجة الهوجاء .. زلزلة عنيفة طاحت بشوطىء الكفر ونواحيه ، أحس بها حراس الجيوشى عندما تصدعت الأسوار بتصدعات عملاقة ، وما لبثت أن إستحالت إلى إنفجارات وإنهيارات متتابعة ، أثارت دوىّ مريب رج الكفر رجاً .. فسقطت البوابات السبع تباعاً ..

وقتئذٍ لم يكن ما حدث قد نبا لى على حقيقته ، فركضت إلى جروف الوادى أستعلم الأمر ، فإفتزعت مذهولاً على مشهد مروع ! ، لقد زالت أسوار الكفر وبواباته بالكامل ! ، خلع دثرته .. وسقطت قلاعه وأبراجه ، نظرت جنوباً جهة الوادى .. فوافيت القبور قد

تهدمت وإنشطرت أقبيتها ، سقطت جوانبها فإنكشفت رفات الموتى مبعثرة ..

أقمت عينى فى شده وذهول فوقعت على الجيوشى عند الجانب الأخر للوادى .. وقف مريجاً بين شرازم متحزبه من حراسه كانوا قد نفروا إلى قلب الكفر ، عندما إستشعروا تلك الزلزلة التى إستجابت لها القصور فسقطت شواهدها فى تتال مفزع وكأنها القيامة .

قبضت بذراعىّ على الصندوق وركضت جهة الجسر من الجهة الخبيئة خلف منازل العمال والعبيد ، وما إن ناهزت حافة الممشى حتى رأيت الجيوشى قد إعتلى تبة الوادى ، إستدار فوقعت عينه فى عينى .. لأتكشف أمام ناظريه تماماً ، ولا أعرف كيف ميَّزنى بين تلك الجحافل المنتشرة من عبيده وحراسه ؟! .. غير أن الصندوق كان شِية مميزة نُلفت الأنظار لى دون الأخرين ، صاح فى حراسه ..

- **إلحقوا به ، لا تدعوه يعبر الجسر ..**

فركض الحراس فى إثرى .. وكأن ثأراً بائتاً بينى وبينهم ، يرشقوننى بطلقات عاثرة تحيد هنا وهناك ، غير أن شيئاً ما جعلنى أتخبط فى ركضى على نحو ملفت ، كانت الأرض تهتز وتميد من تحتى وكأنها تطفو فوق موج يتذبذب فى أرجحة غريبة ! ، ولا عجب ، فالرَيَّاح لم يتحمل تلك الوحوش العملاقة التى شغلت مجراه .. بما يعدو طاقته ، كان أضيق من أن يتحمل حراكهم وذعرهم .. فإنفتح فرعيه للمرة الثانية بعد زهاء الأربعمائة عام من الفيضان القديم ، فى فيضان أخر

أكثر شراسة .
ظللت أركض بخطو عابث حتى هويت قبل أن أجد أن الجميع قد سقطوا ! ، حينها جاءتنى إنفجارات أخرى أشد دويّاً ، ظلت المياه تمور وتعلو حتى فاضت ، أصبح الموج كجدار مائى يشارف قامة إنسان .. تدفق سريعاً إلى عمق الكفر .
إهتاج الرَيَّاح صارخاً ، فازعاً ، فاتحاً فكيه كوحش تليد ، فتصاعد الموج يرعد بدمدمة مخيفة .. ليسحق جسدى الذى حاول عبثاً أن ينتصب فإرتد إلى الخلف مبهوتاً ، وقتئذٍ كنت أرقب هجوم الماء الذى كرَّ على الكفر مصروعاً .. أحاول فى غمرة هذا اللجاج أن ألتقط أنفاس بالكاد تصلنى .
وهناك على الجانب الأخر من الوادى كانت موجة تحتيّة قد سبقت أخواتها فساقت أمامها نفايات الكفر .. راكلة فى طريقها حراس الجيوشى وعبيده ، وسفعت الرجل فكورته .. لينساح بين الموج والزبد .
توحش المجرى المائى فضرب بأذرعته شواهد القصور والقلاع ، وكرَّ فيضان تحتىّ فسحق سفوحها ، دافعاً البيوت الواطئة المنسية صفاً بعد صف فى سرعة جنونية ، أخذ كل شيئ أمامه ، إقتلعه من جذوره فى نوبات رعيد متضاخمة .. تخلع القلوب ! .
تضارب الموج فى تصارع محموم صانعاً جدران مائية ضخمة تعلو وتهبط .. يعلوها رذاذ غليظ يرغـى ويزبد ، إزدادت دكنته بما حُمِل من

طين القاع وطميه ، وما إبتلعه من ركام الكفر .
إرتد الموج المصبوغ بحمرة قانية ، دموية ، فوق الكفر الغارق .. نافراً إلى الجانبين ، حاملاً معه بقايا البلدة .. جثث وأشلاء ومِزع مبعثرة ، وثمة ألواح العلم المكتوبة بماء الذهب .. تموج طافية فوق الماء المتوتر ، نمت ولملمت فتاتها المنثور عبر السنين .. لتطفو بالأخير على أديم الحدث الأعظم ، كلها تتقلب فى التيار مندفعة معه .
حينها ووسط هذا العراك الغاشم كنت أسفل نقطة بالموج المنداح قبل أن يحملنى التيار إلى السطح ، ظلت التيارات المتلاقفة تتقاذفنى إلتف جسدى الغارق حول نفسه حلزونياً .. يغوص ويغوص ، إنساح فى دوامة بعرض الوادى فطفقت أدور فيها لأسفل ثم لأعلى حتى قذفنى التيار إلى السطح تارة أخرى ، إشرئب جسدى برأسه .. فأخذت شهيق متهدج مكروب يدخل رئتاى مختلطاً بالماء .
وقتئذٍ ، وفى رمقة ساقها لى القدر لمحت الجيوشى فى الأعلى يتقلب بين موجتين .. يحاول عبثاً أن يصارعهما ، وما إن رمقنى الرجل حتى لاحت أساريره تتغضن وتكفهر ، لازال يبحث عنى ، ذكرنى عبوسه بالصندوق فضممت ذراعىّ إلى صدرى .. لأجد أنه لازال متشبثاً بساعدى ، إنتزعت الأمواج عباءته ثم ضربته موجة نافرة .. فدفعته إلى أسفل مغتمراً بالماء .
نظرت جاهداً إلى جبال الماء التى تحاصرنى .. فرزح صدرى فى خوف ثقيل ، تلفت حولى عدة مرات فلم أره ، إختفى ! ، علّه غرق ،

وهل مثله يغرق ؟! ، لم تجد الفكرة وثوقاً فى صدرى .. كان كشبح يترصدنى فى كل إتجاه ، لازالت الأمواج تصارعنى وأنافحها ، أراوغها ، لم يبق شىء من الكفر لأتعلق به ..

ضربتنى موجه ثقيلة فإنقلب جسدى رأساً على عقب حتى إغتمرت جميعى تحت الماء ، دارت رأسى وإختلطت جهاتى .. رئتاى تحترق شوقاً إلى فقاعة هواء ، برهه وقذفنى الموج تارة أخرى فظهر جسدى إلى السطح ، شهقت شهقة عاجزة .. يعيقها شخير مؤلم ، لأجد نفسى فى قاع وادٍ من الماء تحوطه تلال شاهقة من الموج ، درت بجسدى خارجاً قبل أن تنهار تلك التلال فوق رأسى ، كنت أجدف بساقىّ وذراع واحدة .. لأجد الجيوشى فى مواجهتى مباشرة ..

جدفت جاهداً لأفر منه .. إلا أنه كان قد سبقنى فأمسك بتلابيبى ، جذبنى إليه فتعلقت به عنوة .. إما أن يُغرقنى أو نغرق معاً ، ظلت يدا الجيوشى تتجاذبنى .. يصارع الموج ويصارعنى إلى أن إنفلتت قبل أن ينسحب غائراً إلى هوة عميقة ، حينها ، وعلى حين غرة وجدت الماء جميعه ينحسر ويسقط سريعاً ، وقتئذٍ لم أكن أعلم أن جيوب سحيقة بالقاع للتو قد إنفتحت إثر خسف عنيف ضرب أرض الكفر كلها ، تصدعات عميقة تبتلع الموج .. فيهوى إلى الأسفل كشلال هادر! ..

وإذا بالسماء ترعد وتصطخب وكأنه إنفجار كونى .. لتنفجر أضراعها بماء منهمر غزير ، الفيضان بات طوفاناً ! ، وما هى سوى

برهات حتى تشدخت السماء بكوات سوداء عظيمة .. تنهال منها شظايا عملاقه ، شهب بحجم جسر كفر يَمَـان .. يحدث إصطدامها بالماء رقع مخيف ، لتقابلها حمم متأججة تقفز من الماء .. تخترقه كرؤوس الشياطين ! ..
خُسف بالكفر كله خسفاً عظيماً ، فتحت الأرض أفواهها لتبتلعه ! ، الماء يرغى ويزبد حاراً .. والدخان الأسود يتصاعد كأنهار حارقة ، رُويت أفمامه حتى كرعت .. فلفظ روحه الأخيرة ، لتمتلئ شرايينه بدخان ولهب ونار .

فيضان وسيل وإنحسار ، رعد وصخب ، خسف وإنفجارات ، تصدعات وكوات سوداء ، دخان وماء ، حمم وشظايا ، إنها القيامة بعينها .. ولازال فى روح الجيوشى رمق ! ، طل بنصفه العلوى مخترقاً هذا الزخم الحارق ، حينها كان الصندوق قد إنفلت من يدى .. فأضحى يموج بينى وبينه ، الجيوشى ينازع التيار قدر قوته .. ومارد فى عمقى يثور " الصندوق أو النزع الأخير " ..
رعدت السماء ، ليأتينا فحيح عظيم يصم الآذان ساقطاً من أعلى ، شظية عملاقة تشق طريقها إلينا ، ظلت تقترب ويتضاخم صوتها حتى باتت ملئ العين ، هوت ! .. سوف نحترق .. نحترق .. نموتــ ...

" إِسْتِفَاقْ "

إرتج جسدى .. فإنتفضت ..

بقايا كلمات واهنة تتسربل إلى أذنى ، تطن ، وشعور مقبض يرزح بصدرى ..

إنفرج جفناى بغتة .. " **أين أنا ؟!** "

إلتقطت أذنى ضجيج خافت ، لويت عنقى جهة اليسار .. ثمة أشخاص يتحدثون ، حملقت .. لازال دوار عنيد يؤرجح فى رأسى ، أطبقت جفناى لهنيهة ثم أفرجتهما .. فرقعت عينى أو ما وقعت على الصندوق ، مصفوف على رف قديم ! ..

حينها لم أملك زمامى .. فنطقت بصوت خفيض يوشك على الإختفاء ..

- **الصندوق ؟!** ..

فأتانى صوت قريب ..

- **حمداً لله .. هاهو قد فتح عينيه ..**

فلويت عنقى جانباً ، ثمة قطرات دافئة تنساب إلى أذنى ثم إلى رقبتى .. وغشاوة تنزاح رويداً ليتكشف المشهد فى طبقات ، حملقت .. فوقف ناظرى عند السيدة التى تتحدث ..

- **حمداً لله على سلامتك يا قُرة عينى ..**

حينها جحظت عينى عنوة ..

- **عطامينو !!** ..

فشعرت بسدل من الغفى والنسيان والخدر تنزاح عن وعيّ وإدراكى .. " **أمـى !** " ..

دارت عيناى بالغرفة لأجد أبى .. الجيوشى ، وعمى قاسم ، وأخى ناصف .. جميعهم هنا حاضرون ، فنطق لسانى رغماً عنى ..

- **ماذا حدث ؟!** ..

فأجاب أبى ..

- **أصابتك حمى ، هذا ما جاءنا من التُرع .. ولهوك عارياً** ..

فلكزته أمى برفق ..

- **ألا تُحسن إختيار الحديث ! .. فلتحمد الله على سلامته** .

إستدرت غافياً .. فطافت رأسى بهذا الكابوس الثقيل ، **" كفر يَمَـان .. يغرق "** ..

لازالت الأمواج تتصارع فى عينى ، حينها إستردت شيئاً من وعى الأحداث .. فقلت هامساً

- **الجيوشى ؟!** ..

فنظرت لتوى إلى أبى .. تلك هى إبتسامته السجية ، شتان بينه وبين جيوشى كفر يَمَـان ، رمقت سرواله المرقع .. ثم صعدت عينى إلى أن توقفت عند وجهه الأشيب وشعره الأشعث ، أساريره المنحوته بعفوية .. فإبتسمت ، حينها رمقت الإبتسام يرتسم على وجوههم .. فرفعت أمى الكمادة عن جبهتى ، ثم قال ..

- **ماذا يضحكك يا عزيز قلبى ؟! ..**
- **لا شىء ..**

وإنفرجت عيناى دهشة .. وكأنى للتو أفقت من سكرتى ، شردت **" إذا كان هذا أبى وعطامينو أمى ، إذن أنا زُهِير ! .. صياد الرَيَّاح ! "** أحسست حينها بإرتباك شديد لتعدد أدوارى فى هذا الكابوس اللعين .. صاحب اللفائف وحامل الرسالة ..

هممت بالإعتدال فوضعت أمى ساعدها خلف ظهرى .. لتُقيمنى ، عرجت بناظرى إليهم جميعاً .. فإنفجرت من حلقى ضحكة طويلة حتى غالبتنى شرقة ملحة ، فناولنى عمى كوب ماء ..

برهات حتى إستردت هدوئى ورزانتى .. ثم طفقت أنظر إليهم تارة أخرى ، أتأملهم

- **كم أنا أحبكم ..**

فنظر أبى إلى عمى قاسم مبتسماً ..

- **عذراً ، لازالت تضربه هلاوس الحمى ، أرى أن نؤخر الروحة عدة أيام أخرى ..**

فحدجه عمى دهشاً ..

- **أهلنا بالبلدة والبلاد الأخرى على أهبة الإستعداد للرحيل .. هم مشتاقون للوطن الأم ..**

وهنا تذكرت أنهم كانوا قد عقد العزم منذ عدة شهور على الهجرة إلى كفر يَمَـان .. موطن أجدادنا القدامى ، حينها خال لى ، أو قل تيقنت

بأن الكابوس لم يكن سوى رسالة من السماء لناسنا ، لقد عايشت رحلة المسير والبقاء من بداياتها إلى نهايتها .. فلم أجد تأويلاً لما رأيت سوى أنه كان علامة من الله ..

فدفعتنى رغبة ملحة إلى رفع غطائى ، فإستدركتنى أمى ..

- **لا تغادر سريرك .. لازلت مريضاً ..**

فأشرت إليها أنى بخير ، ثم ترجلت خطوتين جهة الرف القديم وتناولت الصندوق ، جلست على أريكة فإرتكنت أختى الصغيرة إلى جوارى ، كان الجميع يرقبنى ، فتحت الصندوق .. فألفيت فيه عشرون لفافة موثقة بخيوط رفيعه ، حررت واحدة تلو الأخرى .. فوجدت أن جميعها خاوية ، فعرفت وقتئذٍ بأنى أنا من سيخط الرسالة ويبلغها ، فرصصت اللفائف مفرودة فوق بعضها البعض .. ثم وضعتها بالصندوق مرة أخرى وإلى الجوار منها أصفادها ، ثم أغلقت الصندوق وأعطيته لأختى ..

- **ضعيه كما كان ..**

حينها أسندت ظهرى إلى الأريكه ثم أطرقت قليلاً قبل أن أرفع رأسى ناظراً إلى أبى وعمى قاسم ..

- **ألكما أخ ثالث إسمه صبيح .. له ابنة وحيدة ؟ ..**

ياغتهما السؤال .. فتبادلا نظرات عجب وإندهاش ، فإقترب أبى منى

- **من أدراك بهذا ؟ .. هل أخبرتك أمك ؟ ..**
- **إذن فالنبأ حق ، أين عمى صبيح وابنته يا أبتى ؟..**

وما رأى نظرات الإتهام فى عينى مدعومة بوثوق جازم شعر بإرتباك شديد ، فأدركنى ..

- **إهدأ يا بنى .. فالأمر ليس كما يخال لك ، سأخبرك بكل شيئ**

قذف إلى عمى رمقة ريبة قبل أن يجلس إلى جوارى ..

- **حقٌ لك عم إسمه صبيح ، أما إبنته هذه .. نسمع عنها ولم نرها ، كانت بيننا وبينه خصومه قديمة ، فهجرنا وآوى بلاد بعيدة منذ ما يعدو خمسة وعشرون عاماً ، وعلى مر هذه الأعوام لم يسأل عنا .. ولا نحن بحثنا عنه ..**
- **وهل هو بالشخص السىء حتى تهملوه ك هذه السنوات ؟ ..**
- **لا يا بنى .. لم يكن سيئاً على الإطلاق ، كان أصدقنا وأكثرنا علماً .. ومما جاءنى عنه منذ عشرة أعوام أنه أضحى من أعاظم علماء الشام .**
- **كيف لى أ أثق بأنكما لم تُلحقا به سوء ، قتلتماه مثلاً ..**
- **قتلناه ! ، أرى أن هلاوس الحمى قد عاودتك تارة أخرى .**
- **أنا لا أهلوس ، جدالك يزيدنى وثوقاً بأنكما قتلماه ؟ ..**
- **على هونك يا بنى .. بماذا تُبلينا ؟! ، الرجل لم تنظره أعيننا منذ خمس وعشرون عاماً كما قلت لك ، لم نلتقى به مرة واحدة ..**

وهنا فقط ندَّ صدرى تنهيدة إرتياح ..

- **ولمَ لم تخبرونا بأن لنا عم ثانى ؟ ..**
- **لم نرد إيلامكم ، فما جدوى أن نخبركم بوجوده .. طالما أنكـم**

لن تروه أبداً " ؟ ..

- **يؤسفنى أن أخبركم بأنكم لم تحسنوا التصرف يا أبتى ، على كل حال دعنا من هذا ، أخبرنى .. هل سيهاجر عمى معنا إلى كفر يَمَـان ؟ ..**
- **أنا لا أعلم هل نبا إليه أمر الهجرة أم لا ، كما لا أعرف عزمه بهذا الخصوص**

فواجهتهما مباشرة ، عينى تدور فى أعينهما ..

- **وهل لازلتما على عزمكما فى تلك الروحة ؟ ..**

فقال عمى دهشا ..

- **ماذا تقصد ؟ .. نحن نتوق شوقاً للعودة ..**

فإستدركته ..

- **أنا لا أرى خيرا فى تلك الهجرة .. فبقاءنا هنا أفضل حالاً من روحة إلى بلاد لا نعرف فيها أحد ..**

فضحك أبى ضحكة سخرية مفعمة بحزن مستتر ..

- **تقول أفضل حالاً ، يابنى أنت لم تعى إلا حقبة صغيرة مما لحق بنا فى تلك البلاد الظالم أهلها ، هؤلاء أذلو رجالنا وإستخدموا نساءنا ، هم حفنة من الطغاة الجبارين .. يأكلون حصائد أيادينا فلا نجد إلا السياط والطرق فوق رؤوسنا .**

فإنفجرت من حلقى ضحكة أشد سخرية وترح .

- **ومن أدراك بأن كفر يَمَـان أفضل حالاً من هنا ...**

وطافت عينى بين سادة يَمَـان وهم يعذبون عبيدهم ويشردون ذويهم .. تحوطهم تلك السلة من الجهال الغلاظ ، فأطرقت للحظة ثم إقتربت منه ..

- **يا أبتى لقد رأيت مالم تروه ، وعلمت مالم تعلموه ، تلك الروحه ستجلب عليكم غضب الله وإنتقامه .**

فتغضن وجه أبى ..

- **لقد إنتهى الأمر ، سنرحل بعد أربعة أيام .. فلا تحادثنى بهذا الشأن مرة أخرى ، لازلت طفلاً .. لا يعى ولا يزن مايقول ، عد إلى مهدك قبل أن يتفاقم عليك المرض .. فتثقلنا لأيام أخرى ..**

حينها طأطأت رأسى للحظات قبل أن أترجل خطوتين جهة سريرى .. ولبرهة جلست عند حافته فى صمت ، يرقبنى الجميع دون أبى ، ثم رفعت هامتى ناظراً إليه فرأيته مطرقاً قانطاً ، فإقتربت منه .. ووقفت أمامه مباشرة تلتحم عينى بعينه .

- **مادمت لن أستطيع أن أثنى عزمك عن الأمر .. فلتقبل من صغيرك يا أبتى بضع كلمات ، ربما تكون هى الأخيرة ! ..**
يوماً ما ستكون سيداً على قومك .. سأنصحك ببعض ما نصح به هذا السيد إبنه ، فيما رأيت ..
إجعل عقلك قبل لسانك .. ولا تجعل السوط شِرعه حكمك ، وإذا حكمت .. فلتحكم كما يقتضى صالح رعيتك ، إجعل

دينك هو معتقدك .. ولا تذعن لأى معتقد أخر ، حتى وإن كان معتقد عشيرتك ، أرخى لُجم العباد وأقواتهم .. تستحوذ على ألبابهم وقلوبهم ، كن كشجرة ظليلة على الشاطىء .. يستظل بخيرك آلك ويلوذ إلى كرمك المستضعفين ، كن متواضعاً .. فكل خردلة تزن بها إنسان ترفع قدرك فى أعين الناس ، فلا تفرق بين عظيم أو حقير ، كن براحاً من الوضوح ، فمهما كان الغموض مفضلاً .. فالوضوح قلوب الناس ويجلب ودهم ، كن أنت مخزن أسرارك .. وإستعن بالكتمان فى إجراء تدابيرك ، فبعض الأسرار إذا أشيعت .. ثبطت الهمم وجلبت الفتنة والفساد ..

فشده أبى من رزانة قيلتى قبل أن ينظر حوله مزهواً فخوراً ، ثم إلتقفنى بين ذراعيه ..

- **متى كبرت ! ، لا أعلم أن الحمى سترقى بعقلك كل هذه السنوات ، أنضجت ثمرتك قبل أوانها ! ..**

إن كانت الأقدار ستقضى بأن أكون سيداً على قومى يوماً ما .. فحتماً ستكون أنت سيداً بعدى .

فحررت جسدى عن دفتيه ، ثم أمعنت فى عينه ثاقباً ..

- **ولكنى لن أذهب معكم إلى كفر يَمَـان .. لا عبداً ولا سيداً !**

* * *

تمت بحمد الله ...

مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

رأيت الجيوشي وعبيده يسوقون جيشاً من وحوش كالأسود الضارية ، جوعى منذ عدة ليال ،أهاجها العبيد بسياطهم فإنثالت من جهات الوادى الأربع كالسيل العرم ، يحتازون الجروف فى وثبة واحدة . .

توقف الزمن لبرهات . .

لم يقو الرجال على الصراخ أو الإستغاثة الفزع قبض قلوبهم بعنف فأوقف الصراخ فى حلوقهم ، بعضهم سقط صريعاً ، والبعض الآخر حاول أن يفر . . فتلقفته الكلاب كسرب ذئاب شرسة حول فريستها ، إندفعت بقوة الظمأ والجوع فإنفلت قيادها تجر العبيد خلفها . . فإنكفأوا على وجوههم ، إنقضت الوحوش على جسد يَمَان القابع فى قبره المكشوف . . فمزقوه تصارع ملهوف ، الجوع يعض بطونهم . . فإلتهموا كل شىء بشراهة شرسة !